

لَا تَذْكُرُ الْمَآسِي

ديف كندرد

- ♦ المؤلف: ديف كنדרد
- ♦ العنوان: لا تذكر المآسي - رحلة جد يبحث عن صبي اختطفه الإدمان
- ♦ ترجمة: عمر إبراهيم وعين جودة
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2024
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٣ / ١٦٢٠٣

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 389 - 3

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

———— Afaq Bookshop & Publishing House ————

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

ديف كندر

لا تذكر المآسي

رحلة جد يبحث عن صبي
اختطفه الإدمان

ترجمة

عمر إبراهيم وعين جودة

آفاق للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب:

LEAVE OUT THE TRAGIC PARTS: A Grandfather's Search
for a Boy Lost to Addiction

By: Dave Kindred

This edition published by arrangement with PublicAffairs, an imprint of
Perseus Books, LLC, a subsidiary of Hachette Book Group, Inc., New
York, New York, USA.

All rights reserved

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2023

«ليس ثمة جد لا يعشق حفيده».

- فيكتور هوجو، البؤساء

«إذا أمعن راوٍ التفكير في عملية الرواية نفسها، حتى صار مدفوعاً بالحكاية، فسيجد أنه لا ينفك عن معاناة شخصياته، بخلاف المؤرخ. فالراوي عليه أن يتبع التعاطف أينما ذهب به، وعليه أن يرافق شخصياته، حتى لو مروا بين نيران وأدخنة. ويجب أن يشهد على ما يُفكِّرون فيه، وما يشعرون به، حتى عندما ينسون... لقد كانوا صغاراً ولم يُخلَّفوا كثيراً وراءهم، ويريدون من يتذكّرهم».

- نورمان ماكلين، شباب ونيران

إلى شيرل...

كلمة المؤلف

لم أكتب شيئاً في حياتي بمثل هذا الصدق من قبل. وفي الوقت ذاته، لم أكتب شيئاً في حياتي أشك في حقائقه. ولأسبابٍ وُضِّحت في النص، فإن الشخصيات الرئيسة المتنقلة جميعهم رواة غير موثوق بهم. ولكي تصير قصصهم أكثر وضوحاً وتماسكاً، فقد ذكرتُ الأسماء، والتواريخ، والأماكن، والأحداث، كما وردتني. فما يهم بالنسبة إليّ أن تروي الشخصيات الحقيقة كما عرّفَتْها... وأظن أنهم فعلوا.

تمهيد

إن هذه قصة صبي صغير عرفته منذ يوم مولده، وشاب لم أعرفه قط. ذاك الصبي هو حفيدي چارد جلن كندرد، والشاب هو جوبلن. وجوبلن هو لقب چارد الذي يستخدمه في أسفاره. كان قد اتخذ من الشارع بيتًا له، إلى أن تعلّم القفز على قطارات الشحن، فأمسى الطريق بيته. وكان من هؤلاء المتجولين الذين لهم حياة غامضة محيرة، تمامًا كأحجية صور يستحيل حلّها.

وفي محاولةٍ للتفتيش عن النور في العتمة، يبحث الراوي عن هؤلاء الذين عرفوا چارد، الذي صار جوبلن فيما بعد. والراوي هو جده، ولهذا فهو يكتب بصدق، وتعاطف، وضحك، ودموع... يكتب أنه في كل مرة تكلم فيها مع چارد، الذي صار جوبلن، يُنهي المحادثة قائلاً: «أحبك يا بُني»، فيردُّ حفيده في كل مرة قائلاً: «وأنا أيضًا أحبك».

وُلِدَ چارد في الثامن من ديسمبر، عام ١٩٨٨، بعد ثلاث دقائق من ولادة توأمه چيگب. بلغ وزن أحدهما خمسة أرطال، والآخر زاد عليه بأونصة. في الأسبوع الذي سبق عيد الميلاد المجيد، رأيتُ الصبيين ينامان في سلة من الخوص، چارد على اليسار، وبجانبه چيگب على

اليمين. أخرجهما زوجتي شيرل من السلة ووضعتهما بين يدي. تمدداً من كفي إلى منتصف ساعدي. خالجنى شعور حينها بأنني أريد أن أتذكر ضالتهما.

في النهاية، ظلّ مولد الطفلين معجزة بالنسبة إليّ، أو ربما معجزتان، هما: چارد وچيکب. ذكّرني رؤيتهما بمولد ابني چف، الذي هو أبوهما. تذكّرتُ كيف استغرقتُ زوجتي ساعات لتلدّه، وكيف رجّنتني أن أفرك ظهرها، وكلما كنتُ أفعل، كانت تصرخ قائلة: «لا تلمسني!».

كنتُ حينذاك أبلغ الثانية والعشرين من عمري، ولم أدر شيئاً عن العالم. ذكرى ولادته كانت كصور مجمعة لحياتي: المدرسة، ثم العمل، ثم الزواج، ثم يوم الولادة والصراخ، ثم عودتنا إلى أشغالنا من جديد. كانت شيرل ممرضةً تعمل في دوام صباحي، وكنتُ أنا صحفياً رياضياً يعمل صباحاً، ومساءً، وفي عطلات نهاية الأسبوع أيضاً، لأنك حينما تكون شاباً، جائعاً، لكنك لا تكل ولا تمل، لن ترغب في شيء آخر سوى العمل لتصل إلى المكانة التي تستحقها. لكن المكانة التي أستحقها لم تكن غرفة الولادة التي يُغلفها الصراخ. أردتُ أن أنطلق لأحقق المستقبل، ولأنني كنتُ صبيّاً حينذاك، فلم أدرك أن المستقبل كان يتحقق بالفعل داخل غرفة الولادة، بمولد ابننا.

وفجأة، وجدّتي أبلغ السابعة والأربعين، وصار ابننا أباً، وبات يفهم العالم، على الرغم من أنني لم أفهمه يوماً. حمل چف التوأمين على ذراعيه وأسماهما «چيک وچد، فتيا الريف». ثم نظر إلى الكاميرا، فرأيتُ فيه أباً فخوراً لم أعهد مثله من قبل. تُرى، هل حملته يوماً على

ذراعي والتقطت معه صورةً كهذه من قبل؟ ربما إن بحثت في الأدراج والصناديق فسأجد صورةً ما. لكنني لن أحسبها، لأن هذا سيعني أنني كنت قد نسيتُ أمرها أصلاً، أو أن تلك الصورة لم تعن لي شيئاً وقت التقاطها.

جعلتُ من نفسي أحمق لكي أحب حفيدَي. أدركتُ فيما بعد لماذا فعلتُ ذلك، لأنني لم أهتم بابني بهذا الشكل، وتلك كانت فرصة أخرى لي. ربما حينما أمنحهما الحب سيلاحظ ابني ذلك، وسيسعد بأبني أحب ولديه كما لم أحبه يوماً. أو ربما سيذكره ذلك بكرهه لغياب ذلك الحب. ولكن من بوسعه معرفة الحقيقة؟ إن تلك محض توقعات، وأنا أظن أن ابني رأياني أكن حباً لحفيدَي لم أمنحه له من قبل. وفي مكان ما بداخله كان ثمّة جرس حزين يُذكره بغياب حب أبيه عنه. ودقات ذلك الجرس لم تخفت قط.

إذن فأنا الراوي الذي ألّف كتاباً عن جارد الذي صار جوبلن. وفي كل كتاب كهذا، حينما يضل الراوي في العتمة ويبحث عن النور، يريد الناس قراءة حكاية الابن، أو الحفيد، الذي أثر العيش في الشوارع، وصار يشمل، ويتعلم كيف يقفز على القطارات، ويجوب الولايات المتحدة، ويشرب مزيداً من الخمر. إن من يقرأون هذه الحكاية سيؤثرون معرفة كيف حدثت ولماذا، وعلى الراوي أن يبذل قصارى جهده، بمعنى أن يبحث عن المقربين إليه: كلاب الطريق الذين سافروا مع جوبلن، ويستمع إلى ما سيروونه على مسامعه، وينتبه إلى طريقة حكيهم.

إن رحلة چارد قد حصرتة في دائرة صغيرة من متشردى القرن الواحد والعشرين، الذين أسموا أنفسهم «الصَّبِيَّة الرَّحَّالَة». قال أحد أصدقائه عن عالمهم: «إنه الجانب المظلم من الولايات المتحدة، الذي لا يعرف معظم الناس بوجوده». إنهم يذهبون إلى وجهاتهم بأي وسيلة متاحة: يمشون، ويطلبون من الغرباء توصيلهم، و«يستقلون الكلاب» (أي حافلات جريهاوند^(١)) كما يقولون. لكنهم يُفضِّلون -على الأغلب- القفز على قطارات الشحن، وهو أمرٌ خطير وغير قانوني. ومن الواضح أن المرء ليس بوسعه، فور تجربته، مقاومته. وفي خمس سنوات، قطع چارد خمسة وعشرين ألف ميلاً مسافراً بالقطارات.

يمتد خط رحلات چارد من فيرجينيا وكارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية، إلى فلوريدا وساحل الخليج الأمريكي. ثم يمر إلى كاليفورنيا، ويعود إلى تينيسي، وأوهايو، وبنسلفانيا، قبل أن ينعطف شمالاً صوب فيرمونت، ويتجه جنوباً من ماساتشوستس إلى نيويورك.

كان يهاتفني من ريتشموند وسان دييجو وبوسطن وشيكاغو وأوكالا. أخبرني أنه يحب نيو أورلينز، وأنه تنزه في الحي الفرنسي، وشرب الخمر على رصيف يُطل على نهر المسيسيبي، بجانب مقهى دو موند، حيث غنى مع جماعةٍ أسماهم «الأوغاد الأخسَاء»، وهم بضعة شباب شعثٌ مثيري شغب، لو كانوا قد وُلدوا في زمنٍ آخر لوصفتهم بقراصنةٍ مخادعين قادمين من جزر الكاريبي.

(١) شركة جريهاوند هي أكبر شركة نقل داخلي في أمريكا.

هاتفني غير مرة ليطمئن عليّ، أو ليحدثني عن آخر مغامراته. كان يقول: «لقد رأيتُ فتيات عاريات يا جدي! وكُنَّ يركضن في الغابة عاريات!». عرفتُ بفضلِه كم هو سهل لجَدُّ أن يُحوِّلَ المالَ من وِسترن يونيون. قال لي ذات مرة: «أريدُ تذكرةَ ميجاباص^(٢) من ألباني إلى نيويورك، ثمنها ١٩ دولارًا فقط».

إن عالم الصَّبية الرَّحالة صغير، لكنه -في الوقت ذاته- ليس له حدود. قد لا يتخطى عددهم مائتي شخص، وقد يكونون ألفًا، لا أحد يعلم، ولا أحد يهتم بإحصاء عددهم. لكنهم يعيشون من دون أن تعوق أي حدود حركاتهم. ووقتما يريدون الذهاب إلى مكانٍ ما، فإنهم يذهبون إليه بكل بساطة.

إنني أكتب بدافع شغف الراوي الذي لا يتغير: أن يبحث عن قصة جيدة، ويحكيها جيدًا. لقد حكيتُ ألف قصة عن أناس آخرين، لكن هذا كان أمرًا سهلاً، لأن أي شيء سيبدو منطقيًا. أما في هذه الحالة، فتلك حياة الراوي، وحياة ابنه، وحياة حفيده، ولذلك فالأمر معقد لدرجة لا يمكن لأحد تخيلها، إلا إذا ضلَّ في الظلام وبحث عن مخرج من الارتباك. ولم يزل الراوي يبذل قصارى جهده ليتحرى الصدق والدقة، لأنه أراد معرفة ما حدث لحفيده، حتى لو لم يهتم الأمر أي شخصٍ سواه. كان عليّ معرفة ما حدث، فقد أحببتُ الصبي چارد، الذي صار الرَّجل جوبلن، الذي عاش حياة لا تشبه أي حياة عرفناها، أو سنعرفها فيما بعد:

(٢) شركة مواصلات توفّر للمواطنين خدمات الحافلات بأسعار رخيصة في الولايات المتحدة وكندا.

حياة متجول، لا متشرد، لأنه كانت لديه بيوت عديدة فتحت جميع أبوابها له، لكنه أثر التجول، والنوم على الأرصفة، وأسفل الجسور، وبجانب قضبان السكك الحديدية خلف مصنع چاكس للخمور في نيو أورلينز.

كان عليّ أن أعرف ما حدث، فقد أحببتُ الطفل چارد، الذي كان ينام في سريري، فأحكي له قصصًا قبل النوم. وددتُ حينذاك أن يأتي يوم يُحدثني فيه عن كل ما يخطر على باله، كما لم يفعل ولدي معي، وكما لم أفعل أنا مع والدي.

ثم غاب چارد عن ناظري، ولم يتخطَّ الوقت الذي قضيناه معًا بضع ساعات، بل بضع دقائق. كانت ثمّة أوقات لا يصمت فيها، لكنه بعد ذلك بات يعشق الصمت. ثم استحال إلى شخص غريب، محبوب، لكنه غريب. ثم رحل. وحينها تساءلت ماذا كان بوسعي أن أفعل كي أبقيه قريبًا مني، وكذلك مع ولدي من قبله.

بقيتُ أتساءل: ماذا لو فعلتُ ذلك؟ وماذا لو قلتُ ذلك؟ تراحمتُ الأسئلة في رأسي، ولم يكن ثمّة أي إجابات لها. ولذلك بذلتُ ما بوسعي لكي أعرف ما حدث. لم أُرِد أن يُسامحني أحد، بل أردتُ أن أسامح نفسي لأنني لم أقدرُ معاناة چارد، ولم أعلم كيف يمكنني مساعدته. وربما حينما أوصل جميع الخيوط ببعضها، وأبحث عن مزيد منها، وأوصلها أيضًا ببعضها، سنعود مجددًا جدًّا وحفيده! ترى، هل بوسع هذا الكتاب، الذي ألّفناه معًا، بكل ما يحويه من أصوات الصبي نفسه، وحكايات أصدقائه عن جوبلن، الجميل منها والمؤلم، أن يجمع شملنا من جديد؟ كان عليّ أن أتأكد من ذلك بنفسي.

في أوقات حزني كنتُ أحلم. راودتني أربعة أحلام في شهرٍ واحد. في أحدها كنتُ لاعب بيسبول محترفاً، أستقل حافلة فريقي المتَّجهة إلى ملعب يانكي، لكنني نسيْتُ قفازي، فعدتُ إلى النادي لأجلبهما وأركب الحافلة من جديد، إلا أنني وجدتها حافلة من حافلات المدينة، ولم تكن متَّجهة إلى ملعب يانكي، بل كانت تجوب مانهاتن، عابرةً النهر إلى بروكلن. وهناك نزلتُ منها، ووقفتُ خلف السياج الذي يحيط بأرض طينية فارغة، تنتشر عليها الصخور، أراقب أطفالاً يضربون كرات البيسبول المتسخة. دعوني لألعب معهم، لكنني لم أملك قفازي، لأنني نسيتهما هذه المرة في الحافلة. قلتُ حينها: «فليصطحبني أحدكم إلى ملعب يانكي»، فقال لي رجل طويل، نحيف كما هيكل عظمي، له لحية رمادية، ويرتدي واقي ساق: «اركب ذلك التاكسي». فقلتُ للسائق: «أودُّ الذهاب إلى ملعب يانكي». فدهشتُ عندما رأيتُ الممثلة مِج راين تجلس خلف عجلة القيادة، حاملةً في يدها مفكِّرة كأنها صحفية. قلتُ لها: «أتريدين قصة مثيرة؟ اليوم أولى مبارياتي في دوري البيسبول للمحترفين، ولن أصِل إلى موقعي بالجنح الأيمن لأنني ما زلتُ هنا في بروكلن!». فقالت مِج راين: «أين قفازاك؟».

في أحلام أخرى أفقد حقيبة الجولف، أو اللابتوب. وذات مرة وجدتني ملقى على الأرض، داخل مبنى شاسع مهجور، تلمع شظايا الضوء في سقفه. بدا لي مصنع صلب مهملاً. صعدتُ درجه الفولاذي المتشابك، الذي يقذف على الأرض ظلالاً متشابكة تشبه خيوط العنكبوت. ثم فتحتُ الباب الضخم فأعماني الضوء، وإذا بي في كنيسة

أنجليكانية يجلس على مقاعدها أناس يبدون من بريطانيا. تنهدوا فور رؤية ذلك الدخيل المتجهّم الذي قاطع صلاتهم. فتساءلت عن سبب وجودي هناك.

قصصتُ على الناس أحلامي، فأخبرني صديق لي أنها باغتتني بدافع الفقد، فقد الأشياء المتعلقة بـ جارد. داهمتني أحلام أخرى، أجدني فيها ألتمس طريقاً في العتمة، خائفاً، قلقاً، لا أقوى على فعل أي شيء أريد فعله، ولا ما اعتدتُ أن أفعله طوال حياتي. أدركتُ فيما بعد أن تلك الأحلام لم تنبعث من الفقد، بل من الفراغ الذي يتبع الفقد، فراغ اليأس الذي يُصيب المرء بالشلل.

سألني أحدهم: لماذا اخترتُ أن تقصص حكاية جارد؟ لماذا ستلقي بنفسك في غياهب الظلام بدلاً من أن تترك الحزن يَتملك منك لبعض الوقت ثم تتخطاه؟ لماذا تكتب حكاية مليئة بالأوجاع وليس ثمة إجابات للأسئلة التي تطرحها؟ فوردت على ذهني إجابة، وهي أنها حكاية مثيرة. وهذا كل ما في الأمر.

وقال لي صديق آخر: «عليك أن تقصص حكاية جارد، من أجله، ومن أجلك، ومن أجل أبويه، وچيـكـب، وجميع من مثله من الصبية. إن حبك واهتمامك بـ جارد لم ينقذه، لكنك تستطيع إنقاذ بعض من سلخوا الطريق ذاته».

عثرتُ على إحدى رفيقات جارد، فتاة تُدعى آجرو. تحدّثتُ معي، فاستمعتُ إلى الموسيقى في حكاياتها، الموسيقى التي كان جارد سيسمعها. قالت:

«إن أفضل علاج لنا، لمّا يصيبنا ضيق ما، ليس كأس خمر، ولا كوز جعة، بل أن نأخذ جولة. نقول: «فليذهب العالم إلى الجحيم»، ثم نقفز على أول قطار ينفث دخاناً، غير أبهين بوجهته. نجلس ونستمع إلى طقطقة عجلات القطار فوق قضيبه، ونستمع بالريح وضوء الشمس وهما يدغدغان وجوهنا، ونتنفس رائحة الريف، ونتمایل مع تمايل القطار. تُفارقنا الأميال، ومعها الآلام والأحزان والقلق. ثم يحل محلهم سلام لا نعلم مصدرًا له سوى أنه من عند الله. لهذا السبب أقفز على القطارات، لكي أحظى بسلام نفسي لن أجده في أي مكانٍ آخر. وكأنما القطارات ترعانا، فإنها تُهددنا ليلاً لكي ننام، وتُبرّد أجسادنا في الأيام الحارة، وتُغنيّ لنا حينما يُصيبنا اليأس. وفي بعض الليالي، حينما تتسكّع في حديقة ما، وتسمع صافرة القطار من بعيد، تلك الصافرة التي تصرخ معلنةً عن شعور القطار بالوحدة، فتجد نفسك تقول: «أنا أسمعك يا حبيبي، أنا أيضًا أشتاق إليك»».

عثرْتُ أيضًا على صورة لجوبلن ورفيقه بوز كوپ، يُغطيهما الوسخ والوشوم. ينظر الصبيّان المرتحلان في عدسة الكاميرا. يقف بوز كوپ عاري الصدر، يرتدي قبعة بيسبول، ويلف بندانة حول رقبته، واضعًا ذراعه على كتف جوبلن.

وعندما سألتُ بوز كوپ عن الصورة، قال:

«التقطناها في شارع ديكاتور بنيو أورلينز. أعتقد أن جوبلن عثر على القبعة ملقاةً على الطريق. لا أذكر ما حدث بالضبط في نيو أورلينز، فتلك المدينة تُشجّعك على الشراب. انظر كيف يبدو

جوبلن كالمزارعين؛ يرتدي مربلةً وقبعة. أتسألني حقًا ماذا كان انطباع الناس عندما رأونا بهذا الشكل؟ قالوا: «ابتعدا عن هنا أيها المتشردان!»، أما عندما أنظر في هذه الصورة، أقول في خاطري: «هذا أخي الصغير الذي يمرح معي!».

أنا الجد الذي يكتب قصةً عن حفيده. وعندما أنظر في صورة جوبلن وبوز كوپ، أقول في نفسي:

«انظروا إليهما، ولكن غضُّوا الطرف عن قذارتهما، ووشومهما، وندوب حياتهما، الحقيقية منها واللا حقيقية، والتي لا تُرى أيضًا. أمعنوا النظر في تلك الصورة، تفحصوها، ارمقوهما بعين الحقيقة؛ إنهما من إخوتنا، وأخواتنا، وأبنائنا، وبناتنا، وأحفادنا. إنهما منا».

كان عليَّ معرفة ما حدث. لقد عاش جارد معنا حينما كان صبيًّا. لكنني لم أرَ جوبلن سوى مرة واحدة، في نهاية قصته. ولذلك أردتُ أن أسدَّ فراغ الفقد في حكايةٍ عن الحب الذي يسبق الفقد، والذي ما زال يعيش بداخلي حتى الآن.

بدأتُ هذه القصة بذكر اسم، إلا إنه لم يكن اسمًا حتى، بل كُنية. سمعتُ عن فتاة أسَمَت نفسها ستراي^(٣)، رافقتُ چارد في أولى رحلاته تنقلًا بين القطارات. قمتُ بعمل الصحفيين، فنقبتُ في مواقع التواصل الاجتماعي، باحثًا عن طرف خيطِ يوصلني بها، وأجريتُ بعض المكالمات، حتى توصلتُ إليها في النهاية، فتحدثنا، وتبادلنا الرسائل النصية القصيرة، وتواصلنا عبر فيسبوك. نمتُ معرفتي، عبر الحديث مع ستراي، بأن قصة چارد تبدأ، في أحسن وصف لها، بمغامرة رومانسية وهاجة. إذ تبدأ من أمام صيدلية في سان دييجو، كاليفورنيا، في أغسطس من العام ٢٠١٠.

كانت ستراي فتاةً مشردةً تخطر في ثياب الچينس المرقعة. احتاجت في أحد الأيام إلى بعض الشراب، فذهبت إلى مكان تعلم أن أمثالها هناك سيتشاركون معها نصف جالون منه. جاء، حين جلست تحت شمس الظهيرة قرب الصيدلية، شابٌ صغير ذو وجه ملائكي. تذكرُ هي بإجلال وإعجاب أن فارسها كان يحمل كيسًا ورقيًا بُني اللون من ذلك النوع الذي تحصل عليه من متجر الخمر. لم يكن في عجلة

(٣) Stray تعني بالإنجليزية «الضالة» في هذا السياق. لكن لأنه لقب هنا، فأثرنا نسخ الكلمة بالحروف العربية تسهيلًا على القارئ.

من أمره، يمشي في خيلاء واثقاً بنفسه. ارتدى حذاءً عسكرياً بلا رباط، ومريلة ماركة «كارهارت» بُنية اللون، سوّدتها شحوم السكك الحديدية، ولوّثتها الليالي التي قضّاها متمرّغاً في تراب أمريكا. كانت المريلة فضفاضة، فبدا جسده من تحتها جلياً؛ ولم يكن يرتدي قميصاً، فظهرت كتفاه اللتان ضربتهما سُمرة الصيف. شعّ شعره الأشقر متفرّقاً في كل جانب. وكانت عيناه الزرقاوان الواسعتان تدب فيهما الحياة والدماثة.

قال لها على سبيل التقديم لنفسه:

- أنا جارد كندرد.

فقالت:

- وأنا ستراي المجنونة.

فسأل ضاحكاً:

- حقاً؟

- أنا كالقطة الشريفة، يجن جنوني حين أثمل. ادعني ستراي.

- رائع، وأنا جوبلن.

كان جوبلن في الحادية والعشرين من عمره، ولديه منزلٌ يأويه، إلا أنه اختار أن يكون شريداً، متسخاً، مفلساً، غير حليقٍ، تُحلّق رائحته الكريهة إلى عنان السماء. انتشرت نتوف من لحيّة حمراء في وجهه، وارتسم وشمٌ رديء داكن الزرقة، من جبهته، التواءً حول وجنته وحتى عرنين أنفه. وأصبح اسمه جوبلن في الليلة التي قضّاها جلوساً مع صديق له يُدعى بوز كوپ- أي «شرطي الشراب»- في مركز تجاري

حيث كان شحاذًا. رفعًا لافتةً من الورق المقوى تحمل رسالةً بأقلام
التلوين السوداء:

«الموتى الأحياء قادمون!

نحن بحاجة إلى المنشار الكهربائي،

ونقدر ما تجودون به»

قال لبوز كوپ:

- ينظرون إليّ كأنني كائنٌ مخيف.

فقال له:

- كأنك عفريتٌ مثلاً؟

كانت ستراي ضئيلة الحجم، في السابعة عشرة من عمرها، شاحبةً،
يعلو محياها النمش، زرقاء العينين، انقعص شعرها الأحمر القاني
في جدائل. تشاجرت، قبل ذلك اليوم، مع شرطة السكك الحديدية
في تشين ويلز في كولورادو، إذ انتزعوها من عربةٍ بأحد قطارات نقل
الفحم، وقيدوها، وأرسلوها على متن طائرة متجهة إلى سان دييجو.
قاموا بذلك إذ كانوا على اعتقاد بأن والدَي الفتاة سيستقبلانها بالأحضان
وهما يبكيان بحرارةٍ وامتنان. لم تكن الشرطة تعلم أن والديها انفصلا
منذ أمد بعيد، وأنها كانت تعيش مع أمها التي سمحت لها بترك المدرسة
في الصف السادس لتفعل ما يحلو لها. ما يعني، في حالة ستراي، أن لها
مطلق الحرية في التسكع. وبهذا لم تكن أمها تمنع تسكعها في سان
دييجو. خططت ستراي للذهاب إلى كولتون، أكبر نقطة في جنوب
كاليفورنيا، قفزًا على أول قطارٍ تلحق به.

وفي أثناء انتظارها قرب الصيدلية، قالت ستراي للفتى حامل الكيس البني:

- كنت أتعامل مع عائلات رعاية غريبة الأطوار في الحقول ومنزل «العريف» ومجاهل كولورادو.

فقال چارد:

- أترغبين في بعض الشراب؟

فأجابت الفتاة ذات السميت السعيد الظمان المتشرد:

- بالطبع أريد. بالمناسبة، وشمك رائع.

- لكن أُمي تكرهه.

- أليس هذا ما تفعله الأمهات دائماً؟

كان قد استقل طائرة إلى سان دييجو لرسم هذا الوشم. هاتفتني، في الثالث من أغسطس للعام ٢٠٠٩، أمه «لين آن سيجدا كندرد»، أنا جد الصبي، وهي تبكي. بالكاد استطاعت قول:

- لقد فعل چارد ما طلبت منه ألا يفعله أبداً.

أخافني ابتئاس صوتها فقلت:

- ماذا حدث؟ ما الذي فعله؟ أأضرمت النيران أم سطا على مصرف؟

أسرق سيارة؟

- بل وشم وجهه.

وجه طفلها الملائكي. قالت:

- بسًا، لديّ وشوم أنا كذلك، فلست أمانع...

ثم أجهشت بالبكاء:

- ولكن على وجهه!

كان بإمكاننا أخذ الأمر على محمل الدعابة مثلما فعلنا عندما حلق چارد شعره بقصة «الموهوك»، حينما انتصبت خصل شعره المصبوغة بالأرجواني والأخضر والأزرق. فإن المراهقين يرغبون في استرعاء الانتباه. إلا أن تلك المرة كانت مختلفةً بالنوع والحدة. يرى أكثر التفسيرات تقبلاً وشمّ الوجه باعتباره تشديدًا على الفردانية والتزامًا بحُكم الفنان الواشم الجمالي. كان وشم چارد إعلانًا يحمل عبارة «تبًا للعالم» الذي هجره وتصريح دخول للعالم الذي سيلجّه.

كان صديقه كريج أنتهيرو ثملاً حين وشمه. وفي حين أن من المرجح لمايك تايسون، بطل الملاكمة للأوزان الثقيلة، إنفاقه لآلاف الدولارات لوشم وجهه على طراز قبائل الماوري على نحو دقيق ليصبح عملاً فنيًا، فإن ذلك لم يكن ما فعله چارد، إذ سمح لصديق له مشرد بأن يستخدم وجهه في أول أعماله، فوشمه بطرائق بدائية عبر غمس إبرة خياطة معقودة بفرشاة أسنان في حبر الكتابة، وهو ما يقيمه محرك صغير منزوعٌ من سيارة ألعاب.

يقول كريج: «لم يكن لدينا تصميم في المخيلة، كنا في غرفة فندق رخيص عندما وشمته بعفو خاطر في حين راقبني في المرأة».

كان أمر الوشم لا يزال حاضرًا في ذهن لين بعد عام حينما أخبرها

چارد باعتزامه ترك فيرچينيا إلى سان دييجو، إذ كانت خليلته قد هجرته
فتتبعها.

سألته لين:

- من يقود السيارة؟

- كريج.

- كلا! كلا! إن صاحبت ذلك الشاب عبر البلاد فسينتهي بك الأمر
موشومًا حتى أخمص قدميك.

كانت لين تعلم أن من بين ثقافة الفتية دائمي السفر ثلة من معجبي
«البنك روك» الموشومين والمخزومين. فلم يتحتم تابعو «الكراسي
بانك» أو يبدلون ملابسهم على الدوام، إلا عند الإجماع، وكان خاتم
التأكيد الموثق لانضمام المرء إليهم هو وشم الوجه. كان چارد قد سار
في طريقه إلى النهاية. كان چارد -وليدها- لا يزال متخفيًا تحت تلك
العلامات، فكمّن أسفها في معرفة معنى ذلك الحبر، إذ لم يكن ثمة
مجال للرجعة.

إلى أن أخبرني لين أنها مرتاعة لسماحها لچارد بالسفر ثلاثة آلاف
ميل داخل سيارة يقودها واشم مبتدئ:

- ماذا بإمكانني فعله؟

- أبامكانك أن تبتاع تذكرة طيران؟

وهكذا قابل چارد، بمجرد نزعهِ للملابس الحضرية وارتدائه ملابس
المشردين الدبقة، ستراي المجنونة، أمام الصيدلية. فبكونه قد تسكع

كثيراً حد أن خبر ما يتوق الرحالة له، فقد أسقط يده بداخل الكيس البني ليلتقط منه قارورةً تزن نصف جالون من الويسكي نوع «أولد كرو».

قالت ستراي:

- هذا ما أردت أن أهم به طوال الليل.

لا بد وأن شعَرَ چارد وستراي، رغم أنه من المستبعد أنهما قد قرآ رواية «على الطريق»، بما أحس به چاك كيروك حين جلس بطله دين موريارتي خلف المقود ليشغّل المحرك. يقول كيروك: «أدركنا جميعاً أن علينا إلقاء الارتباك والهراء وراء ظهورنا، وأن علينا تأدية وظيفتنا الوحيدة النبيلة في ذلك الوقت: أن نتحرك».

فاقترح آنذاك چارد على ستراي:

- أود الذهاب إلى نيو أورلينز في عيد القديسين، أترغبين في

الذهاب؟

ولأن ستراي قادمة لتوها من كولورادو فلم تعد أي خطط عدا خطة الرحالة المعتادة في انتظار ما سيحدث مستقبلاً، فقالت:

- إني مستعدة، هلمّ بنا.

فقال:

- كيف لنا أن نذهب إلى هناك؟

- عبر كولتون يارد.

وهي كبرى نقاط تلاقي القطارات في كاليفورنيا، بل في مختلف البقاع، وهي نقطة البدء لأي قطار متجه شرقاً. قال چارد:

- ما كولتون؟

لم تهزأ به. كان أيُّ من يسأل سؤالاً كهذا مُحدِّثاً على تلك العيشة.
قالت:

- ألم تتسلل إلى القطارات خلسةً من قبل؟

كان جوبلن يرتشف شراب البوربون في صمت. علمت ستراي أنه لم يتسلل إلى متن قطارٍ من قبل. إن آخر ما كانت تريده مرافقة مُحدِّث. فالمحدثون يرتكبون الحماقات والحماقات قد تلقي بك إلى حتفك على متن قطارات البضائع، إلا أنها أُعجبت به. سألته عن القلادة التي يرتديها. فقال لها إنها قلادة سن القرش قد صنعتها له أمه كتميمة حظ. أُعجبت بها ستراي كما أُعجبتها عيناه الزرقاوان وشعره الأشقر المتسخ الذي يشبه عش طائر. كان يتمتع بالإقدام والاستقلالية وإلا فما كان ليدع أحدهم يوشمه بوشم لن يروق لأمه. ولم يكن أيضاً بالأمر الهين أن يقدِّم هذا الغر لها نصف جالون من ويسكي أولد كرو.

وجد جوبلن، الآن في حين وجوده في سان دييجو في أثر فتاة هجرته، فتاةً أخرى؛ ستراي المتسللة على القطارات. قال:

- إنني على استعداد لأن أجرب.

فقالت ستراي:

- يا نيو أورلينز ويا لويزيانا ويا عيد القديسين، ها نحن قادمون.
مرحى بمقابر فوق الأرض وأشياء القودو المريعة وعب الشراب بقرب
الميسيسيبي. انس تلك الساقطة ههنا، ستجد أفضل منها هنالك. لدينا

شهران حتى نصل إلى هناك، اسمع إليّ، ركوب القطارات ليس بالأمر الشاق، فقط افعل ما أفعل، ليس ثمة سوى قاعدة واحدة: لا تتركب الحماقات. ستؤدي الحماقات إلى هلاكك. وسيؤدي السقوط، في أفضل الأحوال، إلى بتر ذراعك أو رجلك أو أن تُفرم كلحم البرجر المفروم.

سافرت ستراي وجوبلن معاً مسافة ألفي ميل في شهرين عبر خطوط السكك الحديدية من جنوب كاليفورنيا وحتى نيو أورلينز. ليس يسهل التثبت من ذلك كقول حكّاء إن هذا لم يكن «سوى الحقيقة الشاهد عليها الله». إلا أن الرحلة كانت، كما حكّتها ستراي، جيدة وممتعة، بل كانت أكثر بهاءً إن جمّلتها بمخيلة الرحالة العظيمة.

حكاية ستراي

كنت أركب أنا وچارد معاً. كنا في أغسطس، لذا كان لدينا شهران قبل الوصول إلى نيو أورلينز في موعد عيد القديسين. عبرنا بكاليفورنيا وأريزونا ونيو مكسيكو وتكساس ولويزيانا. لن تصدق ما رأينا وما فعلنا؛ استقللنا، في بادئ الأمر، حافلة من أمام الصيدلية حتى بيرس.

شاهد جوبلن وستراي، في بلدة بيرس الصغيرة في كاليفورنيا وفي شارع متسخ في منطقة باريو المكسيكية، مباريات العراك بين الناس والكلاب المغلولة بالقيود الثقيلة. وقدم لهما قزّم ورجل أعور الثودكا وقدم لهما اقتراحاً.

سأل جوبلن قاصدًا القزم:

- ماذا قال؟

- يقول إن «الأعور» يريد السطو على محل بيع الخمر.

مكث جوبلن وستراي طويلاً، إذ رفضا الشراب والسطو، حتى شهدا رجال العصابات المكسيكية يدخلون إلى محل بيع الخمر ويخرجون منه ليجهز عليهم عشرات الشرطيين. وبحلول الصبح تمكنا من شحذ الفكة لشراء تذكرة الحافلة من بيرس إلى ريفرسايد وحتى كولتون. فسلكا طريقاً جبلياً شاقاً في القيط حتى ساحة كولتون دونما توقف إلا عند بقالٍ لشراء النبيذ.

مال جوبلن، في باحة كولتون قرابة قاطرة بضائع رآها لأول مرة، بجذعه حتى يرى سقفها. بإمكان قاطرة البضائع أن تبدو من بعيد كأنها جزء من القطار الكهربائي، لكنها تبدو من قريب هائلة الضخامة. إذ يمكن أن ترتفع اثني عشر قدماً متكئة على عجلات ارتفاعها ثلاثة أقدام تسير على قضبان تعلو نصف قدم. فقد يصل طولها إلى ستين قدماً وعرضها عشرة أقدام، وتزن، في بعض الأحيان، ثلاثمائة ألف رطل أو خمسمائة ألف رطل إذ ترفع حمولتها.

قال جوبلن:

- يا إلهي.

فقالت ستراي:

- تعال هنا.

فقدته حتى قاطرة غلال. إن قاطرة الغلال تماثل قاطرة البضائع طولاً تقريباً إلا أنها أقل إرغاباً لاستواء مدخلها في نهايتها أو ما يسمونه المقاعد التي يسع الواحد منها فرداً وحقيته وكلبه. وتعلو المقعد كوة في الجدار دائرية بإمكان الراكب الهروب إليها اتقاءً للريح العاتية والرعذ الصارخ الذي يصدره قطار البضائع. استقل چارد وستراي قاطرة الغلال تلك في رحلة قصيرة نحو جنوب لوس أنجلوس ذي الوديان. فقابلاً، تحت قطرة، بوز كوپ وأحد أصدقاء ستراي في التسكع وهو فيرل مدمن الهيروين.

سافر الأربعة حتى بارستو وتشاركوا زجاجتين من الشودكا (سعة الواحدة نصف جالون)، وهي ما أمدتهم بالجرأة الكافية لوشم أذرعهم والتجادل بشأن أجمل وشم. وفي المغيب تسللوا عبر الكوة معتقدين أن بارستو هي باحة قائظة تغص بالثيران -وهو الاسم الذي أطلقوه على ضباط السكك الحديدية المنوط بهم تنفيذ القانون الفيدرالي ضد متسللي القطارات، إذ تطلب وجودهم أن يكون المتسللون، على حد تعبير ستراي، يشبهون مقاتلي النينچا على نحو ما. فأوضحت قائلة: «علينا القفز عبر عشرين قاطرة من دون أن يرانا أحد أو أن يسمعنا أي حيوان». فبمجرد الاكتظاظ بين القطارات وارتقاء المفاصل الرابطة بينها يستقر هؤلاء النينچا على مقاعد قاطرات الغلال ينتظرون. ويسمعون هسهسة الهواء تتخلل مكابح القطار قبل أن تشرع العربات في التحرك. نام مقاتلو النينچا عبر سان برناردينو واستيقظوا في فيرنون.

لم يكن جوبلن يدري شيئاً عما يورط نفسه فيه. أخبرته حقائق الحياة عن التسلل إلى متن القطارات. العام الأول بمثابة مُغامرة، عبر أماكن غريبة وأناس غرباء. وها نحن أولاء في أنعس مناطق البلاد: فيرنون في كاليفورنيا، التي تُماثل جاري في إنديانا. فلديها مصانع إنتاج اللحوم حيث تتناثر حولها رمم الحيوانات المتعفنة. بإمكانني أن أرى بالفعل أن جوبلن لا يشبه باقي الرخالة. فهو بالتأكيد لا يود أن يصبح بطلاً مغواراً أو متعالياً. إن للفتى طريقته الخاصة في العيش ولا يرغب إلا في تقضية الوقت الممتع. إنني أحبه حقيقةً. فقد قفز في عصر هذا اليوم عبر القضبان ليرح أحد الشباب ضرباً لنعته إياي بالساقطة القذرة حين فتشت في مرمده. نحن بالكاد لم نبدأ رحلتنا لكنه يُظهر لي جراته.

بعدما توقف القطار في فيرنون، قطعنا مسافةً طويلة سيراً على الأقدام إلى المدينة الصناعية، على الجانب الآخر من لوس أنجلوس. ثم مضينا إلى الحي الصيني وشرق لوس أنجلوس، ونمنا في إحدى الحدائق حتى أيقظنا رشاش الري مبتلين. وصرخ جوبلن كطفلة صغيرة.

كانت رحلة قطعناها مشياً على الأقدام لأربعة أيام، قضينا معظمها مختبئين من المطر تحت عوارض السكك الحديدية المهجورة نشرب الفودكا متحينين القيام بخطوتنا. اختفى فيرل يومين ومن ثم عاد يرافقنا في الركوب. كان فيرل فتى عدده روجاً مجنونة يرطن بالشيطنية. فيستنشق الهيروين حتى يغمى عليه كأنما قد مات، فيغدق عليه جوبلن وبوز كوب المياه ليعيده حياً -بؤساً لهذا.

لم يكن ينفع التسلل إلى القطارات حين انهمار المطر، فحتى رهام الصيف يصبح، حين يجلس المرء على قطعة من المعدن تطوي الأرض بخمسين ميلاً في الساعة، قارس البرد. جمعنا ما لا بأس به في حين انتظارنا وحلقنا جوانب رأسنا اهتداءً بانعكاس «قرصٍ مدمج» تحت وطأة الملل والشمالة.

وكانت وجهتنا للنزول خارج الطريق العام في مكب نفايات يغص بالصراصير - فإن لوس أنجلوس بالغة القذارة - حيث يداعب جوبلن الصراصير كالحيوانات الأليفة، فيهرب الهاموش حين يركلها، فأصرخ وأهرب قطعاً للشارع. استمتع هو بالأمر، واستمتع كلانا بالمداعبة. أليس هذا ما يفعله رفاق الدرب؟

وقمنا أخيراً بخطوتنا حين قفزنا على متن قطار متجه جنوباً على حين غرة، جالسين على أحد المقاعد الرثة التي طوت الأرض بنا طياً خارج لوس أنجلوس وحتى يوما في أريزونا، حيث قضينا الليل في باحة اصطفاة السيارات قرب متجر الخمور.

رفعنا اللافئات طلباً للشراب طوال غداة هذا اليوم ومن ثم ذهبنا إلى السوق المكسيكية في قلب البلدة وطلبنا شرائح اللحم، إذ توافرت لدى بوز كوپ كوبونات الطعام المدعومة. شويناها قرب النهر وسبحنا فيه طوال النهار القائظ - كانت الحرارة تزيد على ١٢٠ فهرنهايت. فيغوص المرء في المياه ويخرج منها ليحف جسده في دقيقتين.

قضينا الليالي الخمس التالية في يوما مترددين ذهاباً وإياباً من يوما الجديدة وحتى يوما القديمة.

استقرت ستراي وفريقها، في أثناء انتظارها في يوما، حذاء نهر كولورادو سابحين فيه هرباً من حر الصحراء القاطن. لم يكن عليهم من الثياب سوى الملابس الداخلية حين قابلهم ضابطان. فقال أحدهما:

- نحن نبحث عن سرق حقيقية يد من وسط البلدة.

فقال ستراي:

- أنبدو لك كمن كان في وسط البلدة؟

وبرحيل الضابطين توجهت الثلة نحو وسط البلدة، وصولاً إلى تقاطع أملوا أن ينعم عليهم بسخاء لشراء نصفَي جالون من الفودكا الرديئة وشرائح اللحم للعشاء قرب النهر. وفي التقاطع رفعوا لافتات لجذب انتباه سائقي الدراجات النارية الخيريين. فحملت لافتة ستراي:

«قلت لي أمي: ابق هنا

كان ذلك منذ سبع سنين مضت

ألديك بعض الفكّة؟»

اختفى، في الليلة الخامسة قرب النهر، فتى يُدعى «ماركوس». كان لاجئاً من السلقادور التقطوه في لوس أنجلوس. فأسماه بوز كوپ، بافترض أن أيّاً من كان من السلقادور مشتبه بتورطه في أمر ما، «الإرهابي». أرسل أحدهم ماركوس لشراء الطعام. فعاد بالماء وشطائر التامال، وتساءل أحدهم، بعد ساعة في أثناء تناول العشاء:

- أين الإرهابي؟

كان جوبلن قد رآه يسير نحو النهر.

- كان يتأوه قائلاً بالإسبانية: «نو ماس، نو ماس»، ما يعنى هذا بالمكسيكية؟

فقال بوز كوپ:

- هو من السلقادور.

- سيان.

- ما قاله يعني «كفى، كفى».

لم يروا الإرهابي مجددًا. قد يكون خطأ في النهر حتى لم يستطع الخروج منه. أو ربما قد شفته الأيام القليلة التي أمضاها على الطريق من لوثة القفز على متن القطارات فتوجه نحو محطة حافلات. إلا أنه خَلَف وراءه على ضفة النهر حاجاته في حقيبة تحمل السروال والحذاء، وهو ما أثبت، كما استنبطت ستراي في رثائه، «أن ليس الجميع مؤهلين لهذه العيشة».

بدلوا موقع مخيمهم إلى مكب نفايات أسفل قنطرة يوما التي تُدعى «أوشن-تو-أوشن» منتظرين ليوم آخر وصول قطار بضائع متجه شرقًا. وحينما أقبل واحد كان محملاً بقاطرات «الانتحار» -أي القاطرات التي لا قعر لها سوى حواف تسع بالكاد جسد أحدهم، قالت ستراي:

- ستتجه شرقًا على متن أول قطار يمكننا القفز على متنه، وهذا لا شيء سوى قاطرات «الانتحار»، مرعب حد الموت، هل أنتم مستعدون؟ أمستعد أنت يا جوبلن؟

فقال:

- نعم.

وأضاف:

- ربما.

وتمسك بقلادة أمه ذات سن القرش الجالبة للحظ. فقالت ستراي:

- من اللطيف أن نقوم بالمخاطر من آن إلى آخر، يجعلك الأمر تشعر كأن حياتك تساوي هذا العناء.

رحلوا عن يوما، قبل ثلاثة أسابيع من عيد القديسين، مسرعين نحو تاسكان. راق الأمر لجوبلن. ففي مرورهم بنيو مكسيكو رقص في جندول -أي قاطرة مكشوفة السقف عالية الجوانب. كانت ليلة صيفية، فغنى أغنية بيللي أيدول: «رقصًا مع نفسي». قطع القطار طريقه شرقًا بحذاء جنوب نيو مكسيكو، شاقًا للجبال في ضوء القمر. رقص الفتى في القاطرة المكشوفة مطوِّحًا برجليه وذراعيه. صدمت الريح الباردة المنعشة جوانب الجندول كاشفةً عنها الغبار والصدأ. رقص الفتى في الليل وغنى: «إن حانت لي الفرصة، فسأطلب من العالم أن يشاركني الرقصة». كان قطار البضائع في طريقه عبر ظلال الجبال التي كونها ضوء القمر نحو إل باسو في تكساس. كانت المدينة لا تزال مضاعة، ولا يزال الفتى يرقص. لم يدرك أحد كيف كان بإمكانه الرقص، إذ كان ثملًا على الدوام.

رأى الركاب، قبل الفجر على تلال خواريز في المكسيك، دورية خفر الحدود مدججين ببنادق نصف آلية. اتجهوا شمال شرق البلاد مرورًا بأوديسا نحو دالاس وفورت ورث وصولًا إلى نيو أورلينز، لأن

نيو أورلينز نعيم للفتية المتسكعين. فتقريباً من غير المقبول أن يكون المرء سوى ثمل في شوارع تلك المدينة، وتقدم المطاعم الفارهة بقايا طعامها في صناديق بيضاء. جاءها جوبلن وبوز كوپ مرات عدة بقيادة السيارات أو تسؤل طريقهما في سيارات الآخرين.

لم يسبق لهم أن جاءوها هكذا، لم يستقلوا القطار إليها من قبل. اتصل جوبلن بمنزله ليقول: «إنه لأمر رائع يا أمي. إنا ذاهبون، نحن قرابة الخمسين أو الستين، كل ما حولي يهتز وأنا أرقص معه. تستحيل كل الضوضاء بعد مدة إلى عزف الكمان». كان ذلك إطارات الحديد تحتك بقضبان الحديد، وصرير القاطرات وتشاحن الحديد مع الحديد وصرائحهم، ذلك أن سمع الفتى في خضم ذلك عزف الكمان يصاحب رقصه. يرج قطار البضائع المتحرك الوحشي هذا ركابه تخبطاً بحديده، ليضربهم بالرعد والريح حتى يصرخوا طوال الليل. إلا أن يضيء نورٌ عندما يبطئ القطار مروراً بالمصانع وأعمدة الكهرباء، عندها يرتدي راكبوه حقائبهم ويقفزون من على متنه هرباً من الشرطة.

تحملوا خمسة أسابيع من قيظ الصحراء ووسخ السكك الحديدية والضوضاء المزعجة وعب بحيرة من القودكا. شاهدوا عشرات من الشرطيين يجهزون على قزم وأعور في باربو المكسيكية. وشاهدوا فيرل، ذلك المعتوه والكائن الشيطاني، يُبعث من موته. رأوا، ولربما لم يروا، الإرهابي يُغرق نفسه في نهر كولورادو. ورغم أن كل رحلة قام بها جوبلن شرقاً قربته إلى منزله، كان أبعد ما يمكن عنه. فتجراً على فعل ما قال لأبيه إنه لن يفعله أبداً: أن يرحل بلا رجعة. تحدثه ستراي لركوب

قاطرات الانتحار، بالتأكيد كان ليستقلها معها - فقد كان بالفعل قد أبرح شاباً شتمها ضرباً.

فأخبرها:

- أوافق، سأموت قبل الثلاثين على أي حال. لأستمع بالأمر على الأقل.

قدموا إلى وايت سيتلمنت في تكساس، وهي إحدى ضواحي فورت ورت. اكتشفت، هذا اليوم في أثناء الشحادة في شوارع المدينة، ستراي وجوبلن اكتشافاً غير مألوف للفتية المتسكعين: أن الشرطي بإمكانه أن يكون إنساناً. لم يكونا على يقين من هذا حتى أوقفهما شرطي يقوم بدوريته، فقررا أن يسلياه بما أسمته ستراي: «غباءنا المقرف واختيار عيشتنا الغريب»، فأخرج الشرطي كاميرته ليصور هؤلاء المسافرين إذ يغنون أغاني جي جي آلن، ويمثلون ببلاهة للترويح عنه أملاً في الهرب من السجن. وبالفعل قبل دعابتنا وجهلنا وعدة كوبونات وسمح لنا بشحن النقود التي نحتاج إليها، ورجانا أن نترك شوارع المدينة آمنة لجموع المدنيين.

اتصلت ستراي إثر ذلك بصديقة قديمة تُدعى «دي»، وهي آسيوية كانت أولى رفيقاتها للدرب والتي تعمل الآن راقصة تعرّ لتقول لها إن أربعتهم صعدوا لتوهم على متن آلة القتل هذه ويبحثون عن مأوى لبضعة أيام. فقالت دي:

- أتيت إلى المكان الصحيح يا عزيزتي.

لم يكن بمنزلها كهرباء أو ماء أو أي شيء. جلب جوبلن وفيرل وبوز كوپ ست عبوات وزن نصف جالون من القودكا رغم تحذير ستراي من أن حتى القليل من الشراب سيُفقد دي صوابها. وهو ما حدث. شرعت دي في رقصة تعرّ، لغير سبب سوى أن الجنون بدا لا مفر منه، وصرخت باليابانية ورقصت في دوائر أصابتها بالدوار، وأنهت رقصتها بقذفها طلاء الأكريلك على الحوائط. فحثهم هذا العرض الحار على لطم وجوه بعضهم بعضًا بالطلاء. وسرعان ما وجد بوز كوپ وجوبلن نفسيهما مقلوبين قرب دي العارية، التي كان من ضمن صفاتها المخفية حصولها على الحزام الأسود في الكاراتيه. وبنهاية اليوم تلطخت سراويل الفتية بألوان شتى.

استقل طاقم ستراي، في الصباح الباكر، قطار بضائع يتجه إلى الشمال الشرقي لينقلهم ٢١٧ ميلًا نحو تكسر كانا، فقد ركبوا على متن سفينة فاكنج، في قاطرة بمقعد يسعهم كلهم لكنها تحمل خطر الوقوع من جوانبها على القضبان، بسرعة خمسين ميلًا في الساعة، جنوبًا تجاه جفرسون في تكساس، حيث نزلوا منها عبر قنطرة امتدت فوق بحيرة ومستنقع. قضوا ليلتهم مبتلين ومنهكين من الصقيع، يعلوهم البق الأحمر، منعزلين بفعل الفيض وهم يجرعون القودكا الرخيصة لثلاثة أيام تحت قنطرة متهالكة من الصلب الصدئ. أناموا حقًا والقاطرات ذات الثمانية عشر إطارًا تدوي طوال الليل فوق رؤوسهم؟ اختارت الثلة في الصباح الرابع إبقاءً على ذرة العقل والكرامة المتبقية الخوض في المستنقع لا تحمّل قضاء الليل حول موسيقى الديث-ميتل التي تصك الأذان تلك. وسرعان ما وجدوا فرعًا لمطعم ماكدونالدز. قالت ستراي:

- أثرٌ للحضر أخيراً.

أعلنت أنهم سينتقلون تاليًا إلى شريفبورت الواقعة على بُعد خمسين ميلًا جنوب شرق البلاد. وهناك قطعوا خمسة أميال مشيًا على الأقدام نحو قلب البلدة خوضًا في المستنقعات، حيث أُرعب فيرل، هذا الكائن الشيطاني، جوبلن في كل خطوة خطوها، إذ أخبرها بأن بمقدور تماسيح المستنقعات الزحف نحو جانب الطريق، فأطلق النذل للريح ساقيه القصيرتين على نحو تنخلع له سيقان المتسلقين قبل رؤية أي شيء قادم. سار جوبلن في منتصف الطريق طوال الأميال الخمسة. شعر فيرل، بمجرد ولوجهم البلدة، بالحاجة إلى إشباع إدمانه فانشق عن الثلة بحثًا عن المخدرات فتبعته ستراي. ترك جوبلن وبوز كوپ رسالة لهما تقول: نراكما في نولا، الواقعة على بُعد ٣٢٧ ميلًا في الجنوب الشرقي. انتقل چارد وبوز كوپ من حيث شريفبورت حتى باتون روج ومن ثم إلى نيو أورلينز، حيث نزلا في باحة چينتلي الواقعة على بُعد ستة أميال شمالي مقهى دو موند، فكانت التمشية الطويلة المفرحة للفتيين اللذين كانا قد تركا لوس أنچلوس منذ شهرين، مضيا قاطعين ما يربو على ألفي ميل. قابل جوبلن وبوز كوپ في تلك الليلة ستراي وفيرل واثنى عشر متسكعًا آخرين عند مرسى نهر المسيسيبي.

إن الصلات التي تجمعنا ههنا أوثق للمرء من صلة القربى. إنهم عائلتي. نقبل بعضنا بعضًا كيفما نحن، بغض النظر عن الغرابة الناشئة. كنا، چارد وأنا، معًا تحت القنطرة نعب الشراب ونقطع

الطريق ونحن نجتر الحياة والتاريخ، هذا ما يحصل المرء عليه:
عائلة حقيقية تعيش معك الحياة يوماً بيوم، لا في المناسبات فقط.
في المرة التالية رأيت چارد واقفاً عند المرسى في نيو أورلينز. كنا
نقطع الطريق طوال شهرين. رأني فابتسم ابتسامته الرائعة وسألني:
«ألديك أيّاً من شراب أولد كرو؟».

عند المرسى كانت ثمة فودكا رديئة وحمل أحدهم جيتاراً. تجمّع
الحشد المتضارب كتفاً بكثف على الدرج الخشبي في زمهرير الليل.
كانوا مشردين وسعداء، احتضن جوبلن خليلته القديمة ليندزي، التي
كانت كالجنينة من أشقيل في شمال كارولينا. كانت تضفر شعرها صفائر
الدرد. كانا شديدي التشابه حد أن يخطئ البعض ويحسبها أخته. هجرت
بيتها وأبأها مدمن الكحول بحثاً عن أي مكان آخر وأي شخص آخر.
كانت في الرابعة عشرة من عمرها حينما ولجت متجر كحول ليسألها
العامل: أتبحثين عن والديك يا صغيرة؟ فأجابته: إن كانا سيكلفانني ١٢
دولاراً و ٩٥ سنتاً من النوع الرخيص، فأنا فعلاً أبحث عنهما.

قابلت ليندزي جوبلن للمرة الأولى في سافانا في جورجيا. فوجدته
ظريفاً وذكياً ولطيفاً ومرحاً. إذ كانا قد تسولا طريقهما من المركبات
صعوداً وهبوطاً تجاه الشرق وعبر نيو أورلينز قبل أن تنقطع بهما
الصلات. والآن فإنه يلاحق فتاة أخرى في سان دييجو ليعود أدراجه
إلى نولا بوصول ليندزي البلدة. توجهت، كما العادة، نحو المرسى
للاستمتاع بوقتها مع الأصدقاء القدامى، هنالك رأيت چارد فصرخت:

«جوبلن!». فتعانقا وقالت: «تباً! يعجبني وشمك! تعالي يا ماجي وانظري إلى هذا».

كانت ماجي رفيقة درب ليندزي. رآها جوبلن من وراء ليندزي فلم يقدر على تحويل نظريه عنها. كانت صغيرة الحجم وجميلة يعلو وجنتيها الوشم الباهت. وكانت تحمل آلة مندولين خضراء اللون، متقزحة، تلمع تحت ضوء الليل المتذبذب. ليس الأمر معتاداً أن ترى فتاة جميلة تحمل المندولين، كان چارد ليتذكرها لو كان قد رآها من قبل.

قال لماجي:

- أنا جوبلن.

فقالت:

- أعلم، سمعت ليندزي.

ضرب كل من حمل الجيتار أوتاره فرفعت ماجي المندولين، وشرع چارد وستراي وكل الفتية المتسكعين في غناء الأغنية التي عشقوها، لم تكن من نوع الهيب-هوب فقط بالنسبة إليهم، بل كانت تمثيلاً مثيراً لأنشودة المشردين:

في جبال الحلوى الصخرية العملاقة،

لا يغير المرء جواربه.

تقطر جداول الكحول

من علٍ حتى الصخور

فيضطر عمال المكابح إلى خفض قبعاتهم،

وتعمى ثيران الحديد.

ثمة بحيرة من اليخنة

وثمة ويسكي كذلك،

بمقدورك أن تجدف حولها،

في قارب كبير

عند جبال الحلوى الصخرية العملاقة.

* * *

إن قصة چارد لا تبدأ بالضبط داخل قطار الشحن في تلك الليلة، بل في مساء صيفي هادئ، لَمَّا قَدِمَت لين آن سيجدا كندرد إلى مكتي، الذي يقع في الدور العلوي من منزلي، حيث النوافذ مفتوحة، والنسيم يجوب الغرفة حاملاً رائحة شجر الماجنوليا العذبة.

كنتُ كالعادة أكتب. وكما رَوَت لي لين لاحقاً، فقد وقَّعت بجانب المكتب لبعض الوقت، تنتظر، قبل أن تجرؤ على الكلام. قالت في النهاية:

- أيمكنني مقاطعتك؟

- عذراً، ما الأمر؟

- هل ستوافق إذا تزوجت أنا وچف؟

لم أتخيل يوماً أنني سأنفوه بتلك الكلمات:

- بالطبع، وأتمنى أن تُنجبا توأمين غداً: ولد وبنت.

هل سأكون جدًّا؟ حقًّا؟ هل أريد ذلك لهذه الدرجة؟ أنا؟ إن

الأجداد عجائز مقعدين، وليسوا شبابًا أقوياء مثلي. لم أعرف جدي،

فقد مات والد أبي قبل مولدي بوقتٍ طويل، ووالد أُمي كان بعيداً عنا، ولم أره سوى مرة واحدة، خارج حانة جدتي لينا، عندما أعطاني عشرة سنتات لأشتري الآيس كريم.

لم يكن من السهل عليّ أن أكون أباً، ولكن هل أودُّ حقاً أن أصير جدّاً أيضاً؟ ربما يوماً ما، عندما أكبر سنّاً وأمتلك وقتاً كافياً لأحوك الكروشييه. لكن تلك الفتاة قد أتت من جورجيا لتسألني، أنا وشيرل، إذاً يمكنها الزواج بابننا. وقبل حتى أن أفهم ما قد يحدث، صرْتُ أتخيل المرح الذي ينتظرنا.

تزوج جيف ولين في أبريل من العام ١٩٨٦. أذكر اليوم مثلما يذكر الصحفيون الرياضيون المتفانون الأحداث المهمة. وافق ذلك يوم الأحد، وكانت بطولة كأس الماسترز للجولف مقامة. لقد غطيتُ تلك البطولة لعشرين عاماً، إلا أنني، في ذلك اليوم، لكوني والد العريس، لم أعرف شيئاً عن البطولة حتى فتحتُ التلفزيون الساعة الثامنة وسمعتُ: وأحرز اليوم چاك نيكلاوس الهدف السابع والستين لـ...، ما دفعني لأن أقول: سُحقاً...، فقد حفرَ نيكلاوس اسمه في تاريخ الماسترز بذلك الفوز، الذي حققه في سن السادسة والأربعين.

أفقتُ من صدام الأحداث هذا لأنني أحببتُ لين، أو هكذا بدا لي. كانت من لاعبات الجمباز، اللائي يشبهن دمي الكيوي^(٤)، تقفز محاولةً تقليد أولجا كوربوت، معشوقة روسيا، التي تُوجت بطلة

(٤) نوع من الدمى، عادةً ما يكون لها رأس كبير تغطيه خصلة شعر واحدة، وعينان واسعتان، وجسد بدين.

الأولمبيات لعام ١٩٧٢. ليس بوسعي أن أصف لين بالشجاعة فقط، لأنني بذلك سأقلل من حس المغامرة لديها. كانت تقود الدراجات في سن الخامسة والعشرين، وتعمل في خَمَّارة، ويناديها الجميع تايجر^(٥). كما أنها قضت شهرًا في السجن من قبل بتهمة بيع الحشيش لضابط أخفى هويته الحقيقية عنها. قالت: «أوقعني ذلك الضابط اللعين في الفخ، كان يرجوني لأسابيع حتى عثرتُ على مصدر للمخدرات».

وفي أحد الأيام سبحت في نهرٍ لتُنقذ بعض القطط. رأى زملاؤها بمطعمٍ للمأكولات البحرية، الذي يقع بجانب نهر أوكوكوان، في ضواحي واشنطن العاصمة، رجلًا يوقف سيارته على جسر الطريق ١٢٣، ويُلقي صندوقًا من الورق المقوى من فوق الحاجز. شاهدوا الصندوق يصطدم بالماء وتسقط منه قطط تترنح على السطح.

فعلوا ما سيقوم به أي شخص يعرف تايجر. صاحوا: «تايجر! تايجر! افعل شيئا!». كانوا يعلمون أنها عاشقة للقطط، ولديها ست منها في بيتها. كما أنهم يعرفون أنها لن تغض الطرف عما يحدث.

وبعدما سبحت تايجر لنصف المسافة إلى القطط، أدركت أنها كانت ترتدي ملابس أنيقة لكي تخدم الزبائن، لا لتسبح. قالت: «كان بنطالي الجينز ثقيلًا». استندت القطط الأربع، الأم والأبناء الثلاثة، إلى قائم خرساني في منتصف التيار. أعطت تايجر اثنين منهن لرجلٍ على متن قارب، وسبحت بالاثنتين الأخريين عائدةً إلى الشاطئ. أحست بالإرهاق ففكرت أن تطلب المساعدة. لم تكن تطلب من الرب شيئًا،

(٥) النَمرة.

رغم أنها كانت مؤمنةً به، لم تكن مهمة لهذه الدرجة. ثمّة أوقات يخطر فيها الرب على بالنا، وذلك كان الوقت بالنسبة إلى تايجر، التي تذكّرت أنها صاحت بأعلى صوت قائلة: أرجوك يا رب، لا تجعلني أغرق؛ إنني لم أنجب أطفالاً بعد.

قصّت لين عليّ حكاية إنقاذها للقطة في اليوم الذي أخبرني فيه بخبر مهم: أتذكّر اليوم الذي سألتك فيه إذا كان بإمكانني الزواج بحف؟ لقد حدث ما قلته؛ سأنجب ولداً وبناتاً.

صحّ سنونجرام آخر المعلومة، فكانا ولدين. قدنا السيارة إلى فيرجينيا بعد أسبوع من ولادتهما. كان چارد وچيکب مُلتفّين في بطانيتين زرقاوين، ينظر أحدهما إلى الآخر داخل السلة وقد تلامست يداهما. ذكّرتني يدا چارد، رغم صغرهما، بيدي أبي التي أغلظتهما النّجارة. وضعت شيرل چارد وچيکب بين ذراعي، فضممتها إلى قلبي للأبد.

هاتفني صديق في اليوم التالي.

قال: «إنها التاسعة مساءً أيها الجدّان. ألا يجب أن تشربا اللبن، وتأكلا الكوكيز، وتتجها مباشرة إلى السرير؟».

فقلت: «إن حياة الأجداد رائعة يا نوم».

ولأول مرة، أدركت أن الحياة معجزة. صحيح أنني كنت أباً، وحملت ابني مثلها من قبل، أليس كذلك؟ بالطبع قد حملته مثلما حملتُ ولديه؛ إلا أنني لا أتذكّر لحظة كهذه، فقد كنتُ صبيّاً حينذاك،

أبلغ الثانية والعشرين من عمري. تساءلتُ وقتها: هل سأكون أبًا حقًا؟ لم يكن ذلك ضمن قائمة طموحاتي، لكن الفأس وقعت على الرأس. والآن، هل صرتُ جدًّا أيضًا؟ يا لها من معجزة! بل بالأحرى معجزتان. أثبتَ هذان الطفلان لي أن الحياة مليئة بالعجائب. نظرتُ إليهما، صغيران مثاليان يستلقيان على ذراعي، دعوتُ لهما بأن يجدا الفرح دائماً وأبداً، وقلتُ: آمين.

هل أصبحتُ جدًّا حقًا؟ مرحى.

لم يحطني الطفلان بالمعجزات فقط، بل منحاني أيضًا فرصة ثانية لإعادة النظر في أبوتي. كنتُ مراسلاً صحفياً، وكاتب عمود، لا أوجد في المنزل إلا عندما لا تكون لديّ قصة لأكتبها. أداوم على الكتابة، والتفكير في الكتابة، غائب في كل غرفة حتى إن وُجدت بها. لذلك ظننتُ أن بإمكانني إصلاح حياتي عندما أصير جدًّا. سأشاهد چارد وچيگب يسقطان وينهضان. سيركلان الكرات ويفوزان في سباقات الركض. سيقرآن شكسبير، وسيهتفان مع سپرينجستين^(٦)، وسيطاردان الفتيات الفاتنات إلى أن يقع كل منهما في شباك الحب.

أن أحمل ولدي ولدي على ذراعي يعني أن أتخيّل عالمًا بلا نهاية، فعندما يبلغان الثامنة عشرة، سأكون قد أتممتُ الخامسة والستين، وعندما يبلغان هما الخامسة والستين، ويصير لهما أحفاد، سأكون قد رحلتُ عن العالم. ولأن شغل الكُتّاب شاغل هو الكتابة، فقد ضممتُ في العمود الصحفي الدائم الذي أكتبه تلك التخيّلات. وكتبتُ في عيد

(٦) بروس سپرينجستين، مُغنٌ وعازف جيتار أمريكي شهير.

الميلاد، بعد سبعة عشر يومًا من مولدهما، أن چارد وچيگب: «قد اتَّخذنا بسلام خطواتهما الجريئة الأولى في رحلة طويلة ستكون مليئة بالأمل والخطر، والفرح والحزن».

شنتُ حملة إقناع لجلب چف ولين وچارد وچيگب إلى نيونان في چورچيا، وهي بلدة صغيرة لطيفة تقع شمال أتلانتا. اصطفتُ يوم ذاك النجوم جليّة في السماء، وعلى الناحية الأخرى من الشارع، كان ثمة منزل معروض للبيع. كما أن توكيل فورد أعلن عن حاجته إلى ميكانيكي، وتلك كانت الوظيفة التي لطالما حلم بها چف.

وفي الأيام الباردة الممطرة بفيرجينيا، كنتُ أتصل بابني وزوجته لأخبرهما بأن الجو مشرق وماء حمام السباحة الخاص بنا دافئ. سيقولان لي لاحقًا إنهما انتقلا جنوبًا لأنهما سيحتاجان إلى المساعدة لأنهما أبوان للمرة الأولى، ويجب عليهما مراعاة التوأم. وأعتقد أيضًا أن السبب هو إسكات الجدّين عن الحديث عن ذلك الموضوع.

كنا قد سبقناهم في الانتقال إلى نيونان بأربع سنوات. كنتُ كاتب العمود الرياضي لصحيفة واشنطن پوست، وقتما كانت في سنواتها الهوليوودية، لمّا صنع روبرت ريدفورد ودستن هوفمان فيلم «كل رجال الرئيس» عن التحقيق الذي نشرته عن فضيحة «ووترجيت»^(٧)، طالني الوهج الذي طال واشنطن پوست، حدّد أن صحيفة أتلانتا

(٧) تُعدّ فضيحة ووترجيت أكبر فضيحة سياسية في تاريخ أمريكا، حيث استقال بسببها الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون بعدما وُجّهت إليه أصابع الاتهام، لتجسسه على مكاتب الحزب الديمقراطي المنافس في مبنى ووترجيت.

چورنال كونستيتيوشن قد عرضت عليّ وظيفة. فقرّر أحد رؤسائي في واشنطن پوست أن يُنهي النقاش بأن يقول باستعلاء: إنك تحصد هنا دخلاً معنوياً أيضاً، وتوجد مع الكبار.

وعندما أتى مدير تحرير صحيفة أتلانتا چورنال كونستيتيوشن، إد سيرز، إلى العاصمة، قابلني في فندق فاخر للغاية. رأيتُ فيه امرأة ترتدي ملابس بيضاء شفافة، بدت مثل الملائكة، تعزف القيثارة على منصة عالية في غرفة الطعام.

سألتُ سيرز حينها: هل وظّفتَ تلك العازفة؟
فردّ: وددتُ لو فعلت.

وفي اليوم الذي قررتُ فيه ترك واشنطن پوست، وقف رئيسي الذي يُروّج دائماً للدخل المعنوي على باب مكّتي، وقال:
- إنه قرار سيؤثر عليك سلباً، وعلى الصحيفة أيضاً.
- لقد أحسستُ فقط بأن تنفيذه ضروري.

- أجل، إنك كالواعظ المعمداني الذي يتبع صوت الرب ليجمع مزيداً من النقود.

كأن صحيفة واشنطن پوست مؤسسة فقيرة ومثيرة للشفقة على وشك الإفلاس.

قبل ذلك بنحو عقد، سألتُ رد سميث، الذي أعده مثلاً أعلى لي، وأفضل من كتب العمود الرياضي على الإطلاق، لماذا لم يكتب مذكراته، فقال: «إنني أحفظ بها في حال أن طُرِدْتُ من العمل». انتظرته

أن يقهقه ضاحكًا، لكنه لم يفعل. فإذا كان رد سميث قلقًا بشأن مستقبله، فعليًا أن أقلق بشأن مستقبلي أنا أيضًا.

إذن فاستغنيانا عن العاصمة من أجل الذهاب إلى مقاطعة كويتا. كانت شيرل مسرورة بمغادرتنا لواشنطن. قالت حينها: الجميع هنا يعتقدون أنهم مهمون للغاية. لم يعن ذلك أن نيو نان لم تكن بها شريحة من هؤلاء الناس. لكن عندما يكون اسم الحاكم غاندي، ويجوب البلدة بسيارته الكاديلاك التي ألصق بشبكته الأمامية مقعد الصيد، فحينئذ يكون الأمر محتملًا. كذلك أمر الحاكم أن يُعلّق حيوان أبوسوم كان قد صاده على فرع شجرة، بعدما أراه رفيقه وصديقه في رحلات الصيد سمكة سلمون مرقطة لها أسنان حادة.

ليس ثمة إمكانية للسفر جنوبًا لما هو أبعد من نيو نان. لم يحدث أن قابلت أنا وشيرل جيرانًا في ضواحي واشنطن العاصمة. لكن في أسبوعنا الأول في نيو نان، زارتنا شابة تُقيم على الجانب الآخر من الشارع، وظلت تُحدّق إلى صورة أبراهام لينكون المعلقة على الحائط في غرفة المعيشة. قالت لشيرل: هذا طبيعي على ما أظن، فأنتم جميعًا يانكيز^(٨).

في ذلك الصيف، شاهدتُ تجمُّعًا لكلو كلوكس كلان^(٩) في ميدان

(٨) مصطلح يُشير إلى سكان الولايات المتحدة عمومًا، وسكان شمالها على وجه الخصوص.

(٩) تُعتبر منظمة «كلو كلوكس كلان» أقدم منظمة إرهابية في الولايات المتحدة. احتلت العناوين الرئيسة للصحف لأكثر من ١٥٠ عامًا؛ برنامجها الذي يتسم بالكرهية والعنصرية والإقصاء والعنف يُعاد استخدامه حتى الآن. (المصدر: موقع دويتش فيله).

المحكمة، فسألت رجلاً عجوزاً أسود البشرة عن المسدس الدوار ذي المقبض الكرومي الذي يلمع جرابه، فقال: «أملكه منذ وقت طويل». فاعتمدت إجابته على أنها رأيه في تلك المنظمة.

لم أقابل في نيو نان «أتيكس فينش»، والد سكاوت الصالح، لكنني لمحتُ بو رادلي في كل ركنٍ ظليل^(١٠). علمتُ سريعاً أن الحرب الأهلية، التي تُعرَف في نيو نان باسم «حرب العدوان الشمالي»، قد تركت جرحاً لم يلتئم بعد. رفضتُ وظيفة بأحد المتاجر فاتورتي التي بلغت خمسين دولاراً، قالت: «نحن لا نقبل هذا هنا». متقمصةً دور يوليسيس جرانت^(١١).

كان من ضمن جيراننا محامٍ بإحدى الشركات، ورَّسامٍ پورترية، ومُصوِّرٍ محترف، وطياران، وعمدة نيو نان، والآنسة ليليان، العجوز النحيفة التي ترتدي دائماً فستاناً رثاً في منزلها، وتتلصص على اليانكيز الدُّخلاء من خلف لافتة الوقوف الواقعة في ركنٍ يجمع بين شارعَي كوليدج ووبزلي.

أقمنا في منزلٍ يبعد عن ميدان البلدة بثلاثة شوارع. كان منزلاً مصمماً على الطراز الفيكتوري، تلتف حوله شرفة تكفي لإقامة معسكر كونفدرالي بها، وفوق السطح ينتصب برج بداخله غرفة. والحق أنه كان منزلاً فخماً، وباهظ الثمن، بغض النظر عن المصروفات التي أنفقناها

(١٠) ثلاث شخصيات رئيسة في رواية «أن تقتل طائرًا بريئاً» للأمريكية هارپر لي.

(١١) الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة. عمل مع أبراهام لنكِن لقيادة جيش الاتحاد للانتصار على الكونفدرالية في الحرب الأهلية الأمريكية.

على ذلك المبنى الذي يبلغ عمره قرناً، لم نكن نبحت عن حصن، لكنه بحث عنا، فلبينا النداء.

كنت أنا وشيرل حينذاك نبلغ الثانية والأربعين من عمرنا، إلا أننا شعرنا كأننا قد تزوجنا للتو.

تقابلنا في المدرسة الثانوية. كانت قد انتقلت من البلدة المجاورة، وفي التو أصبحت أجمل فتاة في مدرسة أتلانتا الثانوية. كانت أيضاً عضوةً بجمعية الشرف الوطنية. أقول «تقابلنا» لأننا كنا في مدرسة بها ثمانية وعشرون طالباً فقط في صفّها الثانوي، ولا أذكر أنني قابلتها قبل ذلك. أعني، ماذا كنتُ لأقول لفتاة ذكية وجميلة مثلها؟ لم أعلم قبلها سوى معدلات الضرب في البيسبول، لا الفتيات. ولم أكن لأبس بكلمةٍ معها لولا أن أختي ساندرا قد أصرت على أن أطلب من شيرل الذهاب في موعدٍ معي. وأظن أنني فعلت، وعلى الأرجح قد كلّفني ذلك تذكرةً ثمنها تسعة عشر سِتّاً لمسرح القصر، وكوبا ميلكشيك من مطعم لو ديوترمان بجواره. لا أذكر التاريخ، لكنني أذكر اللحظة جيداً. وفي إحدى الليالي، بعد دهرٍ من ذلك الوقت، ذكّرني القمر بتلك اللحظة. كنتُ قد خرجتُ للتمشية، في ليلةٍ دافئةٍ من ليالي أغسطس، ومن فوقني جلس القمر، أو بالأحرى نصف البدر، عاليًا خلف السُحب الرفيعة. وفي ليلةٍ كذلك، عام ١٩٥٨، سألتُ شيرل لأول مرة إذا كان بإمكانني تقبيلها.

وعندما حلّ الربيع بعد ذلك، وفّقت بيننا مُعلّمة اللغة الإنجليزية كلاريس سوينفورد، بأن اختارتنا للعب دوري الثنائي في مسرحية صفّنا

الثانوي «إنها حياة عظيمة». لعبت شيرل دور الفتاة التي تظهر للمرة الأولى في التجمّعات الرسمية، وكنتُ أنا طبيبًا. وفي المشهد الأخير، التقت شفاهنا (وقد تطلّب ذلك قبلها أن تتدرب كنوع من المذاكرة). وقد صارت حقًا حياةً عظيمة بأن تزوجتُ شيرل، وأضحَت أمًّا لابني. كانت تعمل في إحدى هيئات ترميم المنازل الأثرية، وكانت أيضًا الممرضة المسؤولة عن جناح الرجال المغلق بأحد مستشفيات الأمراض النفسية الخاصة (تذكروا فيلم «أحدهم طار فوق عش الوقواق»^(١٢)). حقًا صارت حياةً رائعة، فقد صعدنا معًا سلم «نصب لينكون التذكاري»، وتناولنا العشاء في برج إيفل، وشربنا الشاي في لندن، والنيذ في سان فرانسيسكو، والبيرة في ميونخ، وبنّا في زيورخ ومدريد وروما وستوكهولم، وشاهدنا أماكن أفران الغاز في داخاو، وتمثال بيتّا لمايكل آنجلو في روما، وعشنا في إلينوي وكتاكي وفيرجينيا وماريلاند وجورجيا، وكانت جميع البيوت التي سكناها مميزة بفضل جهود شيرل وذوقها الانتقائي الذي أسمّته «ذوق الحظائر». كل ذلك حدث بفضل تفكيرها السليم، ولطافتها النادرة، وتحملها الدائم لفشلي من دون أن تمل.

ثمّة أمرٌ آخر يخص التدرب والمذاكرة:

في إحدى الليالي، كنا في المقعدين الأماميين لسيارتي الشيفروليه طراز ٥٣، وكنتُ كالعادة أتحدّث عن بطولاتي في رياضة كرة السلة،

(١٢) فيلم من إخراج ميلوش فورمان، وبطولة چاك نيكلسن، صدر عام ١٩٧٥، يروي قصة راندل الذي اغتصب فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، ويدخل السجن، ومن ثم يدّعي الجنون ليهرب منه، فيودّع مستشفى الأمراض العقلية حيث سيواجه ممرضة قاسية تدعى راتشد.

في المرحلة الثانوية، وأني كنتُ صانع ألعاب قبل أن يوضَّع ذلك المصطلح أصلاً. ثم ذكرتُ كيف انتصر فريقنا، فريق أتلانتا ردوينجز، طوال تسع وعشرين مباراة من دون هزيمة واحدة.

ولمَّا سمعت شيرل ما يكفي، قالت:

- أنا أيضًا أَلعب كرة السلة.

- حقًّا؟

- في فريق كنيستنا.

ارتكبتُ خطيئتي الأولى:

- وهل أنتِ لاعبة جيدة؟

- لقد سجَّلتُ جميع نقاط الفريق في إحدى المباريات.

ارتكبتُ خطيئتي الثاني بأن سألتها عن عدد النقاط.

- أربع عشرة.

أما خطيئتي الثالث فكان أن أسألها سؤالًا طبيعيًّا بالنسبة إلى صحفي رياضي مستقبلي، ألا وهو:

- ما عدد النقاط التي سجَّلتها الفريق الآخر؟

- اثنان وسبعون.

ضحكتُ بأعلى صوتي، وذلك كان خطيئتي الرابع، والحق أنه خطأ سيئ للغاية، حد أنه كان الأخير في تلك الليلة، لأن الجو في السيارة صار باردًا، كما أن تصرفات شيرل قد أوضَّحت لي أن الوقت قد حان لأصطحبها إلى منزلها.

- الآن لو سمحت!

وبعد ثلاث سنوات، وأعد ذلك أعظم انتقام في مسيرتي، تزوجتها.

هل قلت من قبل إنني مدمن عمل؟ أكتب باستمرار؟

كانت أُمي قد اشترت لي آلة كاتبة محمولة من طراز رويال، ثمناها خمسة دولارات، بمناسبة عيد ميلادي الخامس عشر. أجلسْتُ الآلة السحرية على طاولة المطبخ، وانتظرتُ، طويلاً، أحاول التفكير في الكلمات الأولى التي سأخلدها. وفي النهاية، بعد تنقيب واصطياد، كتبتُ اسم بطل البيسبول المفضل لديّ، الهَدَّاف العظيم لفريق سان لويس كاردينالس:

«ستانلي فرانك موسيال».

ثم أصبحت الكتابة نعمة ونقمة. أظهرني إعلان ترويجي بإحدى الصحف مرتدياً بذلة توكسيدو، وواضعاً قدمي على حقيبة. كُتِبَ على الإعلان: «مَن يطوف العالم بكتاباته؟».

كنتُ معظم الوقت بعيداً. بعيد عن زوجتي، وابني، وبيتي، حدَّ أنني كنتُ أوقع البطاقات البريدية باسم «الشبح».

من الستينيات وحتى منتصف التسعينيات، أنفقتُ الصحف أموالاً طائلة على المنتج التحريري، بعدما عامت في الأرباح الاحتكارية. كان كاتب العمود الرياضي دائماً في طريقه للحدث الكبير القادم: كالسوبر بُول، دوري الجامعات لكرة القدم الأمريكية، وبطولة العالم للبيسبول، وبطولات الملاكمة للوزن الثقيل (أجريت عشر مقابلات مع محمد

علي كلاي)، والمربّع الذهبي لكرة السلة، ودورة الألعاب الأولمبية (الصيفية والشتوية)، وبطولة ويمبلدون للتنس، وبطولات الجولف الأربع الكبرى، وكأس أمريكا لسباقات المراكب الشراعية، ودورة ألعاب النيات الحسنة في موسكو (يتغيّر حرس الكرملن الساعة الثالثة صباحًا)، وسباقات ناسكار، وسباق إنديانا بوليس ٥٠٠، وبطولة تريبل كراون لسباقات الخيول (شاهدتُ الحصان سيكريتاريت وهو يربح السباق في بلمونت). فعلتُ كل ذلك إلى جانب كتابة الأعمدة اليومية عن الفرق والمواضيع المحلية. وألّفتُ أيضًا تسعة كتب.

في عيد زواجنا الخمسين، سألنا أحدهم كيف نجحتُ أنا وشيرل في حياتنا الزوجية. ضحكتُ شيرل حينها وقالت: أعتقد لأنه لم يلزم البيت إلا لعشر سنوات فقط.

وسرعان ما أصبح منزلنا في نيونان ملكًا لچار د وچيگب، فملاهُ بطاقتهم الطفولية وثرثراتهما. عندما أتيا إلى جورجيا كانا يبلغان من العمر عامًا واحدًا. وبعدئذٍ أثرا الركض بدلًا من المشي، وباتا يتكلمان بدلًا من أن يثرثرا، ويشقان طريقهما من المهد إلى الطفولة. كانا يزحفان أسفل طاولة تقطيع اللحم في مطبخنا، ويركبان الدراجات الهوائية ثلاثية العجلات في شارع كوليديج. كنا نصطحبهما إلى متجر الحلوى الواقع في ميدان المحكمة، حيث كان چيگب يقول: «فطائر النعناع من فضلك».

كان چارد يستكشف يوميًا كل ركن من محطة الإطفاء، التي تقع على بُعد بنائتين منّا، ويتذكّر قبل أن يرحل أن يقول: «وداعًا يا رجل

الإطفاء. وداعًا يا عربة الإطفاء. وداعًا يا حذاء الإطفاء!». أما چيگب فأحبَّ الطبخ، فكان يجلس على أرض المطبخ، ويخرج عشرات القدور والمقالي من الأدراج، ثم يهتم بعمل الفطائر بإلقاء مكعبات الثلج في مقلاة، ثم وضَّعها في الفرن الذي بدا للطهاة الأقل خبرة محض مساحة بين الأرجل الأربع لطاولة تقطيع اللحم. ثمَّة صورة للصبيَّين وهما يرتديان حفاضتَيْن، أمام صندوق موسيقى من طراز فورليتزور ٨٠٠. كان چيگب يُحدِّق إلى أنابيب الفقاعات، وچارد باسط رجله وذراعيه على الأرض لينظر أسفل الآلة. أسمينا تلك الصورة: «إلفس، هل أنت هنا؟».

جلَس چيگب على رجلي طوال خمس عشرة أغنية. كتبتُ في مذكراتي تلك السنة: «لم يُرد أن يتحرَّك. وفي كل مرة كنت أريح يدي بجانبه، كان يُمسك بهما ويُعيدهما إلى مكانهما. كان يحب شعور الجذب، والأمان. وكان يحب أن يُرَفَّع عاليًا في الهواء كلما غنَّي ليتل ريتشارد أغنية «توتِّي فروتِّي»، وكان يصيح قائلاً: «واااااااااااااااااااا».

أحبَّ الصبيَّان أيضًا الجلوس مع شيرل لتقرأ لهما القصص. وعندما كانت تنتهي، كان چارد يقول لها: «اقرئي ثانية»، حدَّ أنه حفظ حكايات قصص پيتر پان من كثرة سماعه لها. وعندما سألتها ماو: «ماذا سيحدث الآن؟»، أخبرها ثم قال: «اقرئي يا ماو ماو».

وأخيرًا حظينا بفرصة أن نكون عائلة حقيقية. في بداية زواجنا، بسبب انشغالنا في أعمالنا، فاتتنا لحظات من طفولة ابننا لم يكن بوسعنا استعادتها فيما بعد. أما الآن، فقد نما لدينا أمل أن نعوض تلك الغيابات.

في السابع من ديسمبر عام ١٩٩١، اليوم الذي سبق عيد الميلاد الثالث للتوأم، ألبسناهما بذلتين كي يلتقط لهما صديقنا وجارنا بوب شاپيرو صورة رسمية. أحبتّهما كاميرا بوب، فقد كانا لطيفين لدرجة لا تُصدّق؛ يتسمان وقد فُردَ شعرهما الأشقر على ظهريهما، وارتديا بذلتيهما البضاوين، وأحذيتهما البيضاء أيضًا، وأربتين وحزامين لونهما أرجواني. كل منهما كان أنيقًا أكثر من الآخر. بدا چارد جذّابًا؛ وضع يديه في جيبه، ومال بجسده يمينًا، وعلى وجهه ارتسمت بدايات ابتسامة، ومدّ رأسه للأمام، فتجلّت عيناه.

في إحدى اللقطات بفيلم شاپيرو، يتقاسم الصبيّان مقعدًا. وفي لقطة أخرى، يجلس چيکب عند قدم أخيه. وفي لقطة أخرى، يهمس چارد في أذن أخيه. اتّخذ الصبيّان جميع أوضاع التصوير التي طلبها منهما المصوّر، لمدة ساعتين كاملتين. لمعا تحت أضواء الاستوديو البيضاء الناعمة. ظهرا كأنهما يطفوان فوق الأرض البيضاء، بفعل ارتدائهما لأحذية بيضاء من نفس الدرجة. بل ربما السعادة قد رفعتهما في الهواء.

لكنهما قد تغيّرا فيما بعد.

وبغض النظر عن طول أو قصر عمرهما، فقد كانا وقت التصوير فتّينَ ذهبيّين.

وبعدما صار چف ولين جارّين لنا، يشاركان طفليهما معنا، أصبحت سنوات نيونان تلك أسعد أيام حياتنا.

دعانا جف بعد شهرين من جلسة التصوير إلى العشاء. لست أذكر شيئاً عن هذا العشاء وإن كان قد حدث بالفعل. بعض الذكريات تخطر قلبك فيحملها دمك إلى أن تصل لعقلك، لتطرد كل شيء خارجه. كل ما أتذكره عن تلك الليلة تدونه عبارة منقوشة في يومياتي: «قال جف: السبب الحقيقي لدعوتنا إليك هو أننا قررنا الانتقال إلى فيرجينيا».

لكي أكون عادلاً -مثلما كنت عادلاً في حكمي حينذاك- لم يفاجئني ما قاله ابني. فلطالما شكّا جف من وظيفته واعتبرت لين بلدتنا الصغيرة الحبيبة أقل رقيّاً من المدن الكبرى التي تحبها، حد أنها دعت جارةً لليلة التي يقضيها خارجاً إلى أتلانتا: بوابة العالم الجنوبي. فقالت في إحدى المرات: «ليس في نيوغان حتى ملعب بولينج».

اعتبرنا، شيرل وأنا، أن نيوغان هي آخر محطاتنا في الحياة. إلى إن أراد ابننا وزوجته أن يهجراها إلى شمال فيرجينيا الريفية. لم أستطع، غضباً وانكساراً من فوري، قول ما فكرت به؛ أي: «حسناً فلترجعاً إلى فيرجينيا ولا تدعاً خط الحدود يركلكما، اذهبا وابعثا لنا ببطاقات البريد في عيد الميلاد. اذهبا والعبا البولينج مرتين في الليلة، اغربا عنا واتركا چارد وچيکب هنا».

كانت خسارة الفتيين بمثابة رشق السكين في القلب. فلم تكن أحلى الصور تلك التي التقطها شاپيرو، بل تلك التي التقطتها شيرل من كاميرا الكوداك المحمولة، حيث كان چارد وچيگب وأنا جالسين حول طاولة الإفطار. كنت أقرأ الجريدة والفتيان يرتديان المنامة، جلس چارد على فخذي وچيگب على الطاولة. لم أكن أرغب في أي شيء أكثر من قراءة تلك الجريدة برفقتهم. لم أتناول تلك الليلة بعد العشاء شيئاً، كنت قد شربت خمس زجاجات بيرة جعلتني عبوساً قبل النوم. أجهشت شيرل بالبكاء طوال الليل.

جاء چارد في صباح أحد الأيام بعد أسبوعين، حين انشغل چف ولين مع عمال النقل وقال لي: «الأعلى»، ظننته مرتبگًا - أكان يود الخلود للنوم؟ حتى همست لي شيرل: «يريد حلوى إم آند إمز». فلقد كانت لديّ ماكينة حلوى في مكتبي. فاصطحبنا نحو الأعلى ولحق بنا چيگب، إلا أن الفتيين أرادا الجلوس على فخذي لا الحلوى، كما فعلا مرارًا وتكرارًا. قال چارد: «شغل الحاسوب يا بابا». فضغطنا الأزرار معاً مرة أخيرة.

وبحلول ذلك الوقت كانت لين قد صعدت لتقول:

- هيا أيها الفتیان، نحن ذاهبون إلى فيرچينيا.

فاستدار چارد نحو شيرل ليقول:

- هل ستأتين معي؟

فقالت شيرل:

- لست أقدر يا عزيزي، سأفتقدكما.

لربما رأى چارد دمعة تنسال من عين جدته لأنها سألها:

- هل ستبكين؟

- نعم.

- سأبكي أنا أيضًا.

ما زال بإمكانني رؤية الفتيين في مدخل منزلنا جالسين في السيارة متأهبين للرحيل عن نيونان. احتضنتني لين ثم قالت:

- أحبك يا بابا.

وهو ما أشعلني غضبًا. كانت غافلةً عن ألمي حد أن تنعتني بما قاله الفتیان عني كنايةً. ابتعدت وعدت إلى البيت حيث كان چفٍ منتظرًا. قال:

- إني آسف جدًّا يا أبي.

احتضنتني واحتضن شیرل وهو يبكي. قال:

- إني أكثر أسفًا مما تظنان، كان من ضمن غضبات لين استياؤها من المرأب.

كنا قد بنينا مرأبًا ليأوي عدته لتصليح السيارة. فقال:

- كانت خائفة من أن تقوم أنت وأنا والفتیان بالأشياء معًا من دونها.

تبًّا، كانت تشعر بالغيرة من مرأب؟ أردف چف:

- سنعود إلى فيرچينيا وسأصلح الأمر - أو سيزيد سوءًا.

لم أكن أعرف حينها ما عنى ذلك ولم أهتم. كل ما عرفته أن الأمر لن يزداد سوءاً لنا.

كان چارد موثوقاً في السيارة بحزام الأمان. حدق من النافذة حزيناً على تركنا. كان چيگب بجانبه. لوّحت لنا لين، حين عاد چف بالسيارة نحو المدخل، بابتسامة عريضة.

وبعد خمس سنوات، ازداد الأمر سوءاً. فقد خاض چف ولين طلاقاً مريعاً. إلا أنني وشيرل لم نجد عزاء في الأمر سوى أن تخلت لين عن حضانة الفتيتين إلى چف. تساءلت حينها كيف لأُم أن تتخلى عن ولديها اللذين ليس لها غيرهما، وتساءلت عن الأذى الذي سيلحق بهما، إن كان ثمة أذى. لكن سرعان ما تزوج چف مؤسساً لعائلة جديدة برفقة زوجه ليزا التي أنجبت له ابناً يُدعى كالب وابنة تُدعى چوزي.

وما كان لشيرل وأنا أن نفعل؟ اشترينا مزرعة في لوكست في فيرجينيا تبعد خمسين ميلاً عن منزل چف، من ثم بنينا له منزلاً على أرضنا. فتمكّنّا، مجدداً، أن نقنع ابننا بالانتقال إلى جوارنا. أجل، استنسَخنا ظروف نيومن التي تسببت في التعاسة. إلا أنني كنت بارعاً في عقلنة ما أردته. ظننت أننا كنا جزيرة مستقرة في حياتهم المضطربة. بالإضافة إلى أننا أحببنا ببساطة الوجود قرب چارد وچيگب.

كثيراً ما قضى چارد ليلته عندنا. حكيت له حتى ينام الحكايات عن الفتية الذين كبروا ليصبحوا أبطالاً، فتضمنت هذه الشخصيات، بما أنني كاتب رياضة، بي وي ريس ومحمد علي وبيلييه. تدرب چارد على رمية

الكرة حينما سمع أن بي وي كان بطلاً لدى ماربلز قبل أن يشغل موقع الشورتستوب لدى فريق دودجرز. أخبرته أنني اعتليت سرير محمد علي كي أجري معه مقابلةً تحت الأغطية هرباً من الحشد في غرفته. قلت له: - أخذ محمد دفترتي ودوّن عليه أسماء الأشخاص في حاشيته وما دفعه لهم أسبوعياً.

أعجب چارد، لكونه قد تعلم لعب كرة القدم، بحكاية الفتى الفقير الذي كان يركل كرة مصنوعة من أسمال القماش. فكان يقول: «أخبرني عن بيليه». فطفنا بالمخيلة نحو البرازيل وحتى ملعب ميدولاندز، حيث استمعت إلى أفضل لاعبي كرة القدم على الإطلاق، في آخر مباراة في مسيرته حين صرخ في ٦٤٦, ٧٥ مشاهداً: «ردّدوا ورائي: الحب، ثم الحب، ثم الحب».

جاءت ليلة في فيرجينيا حين جلس چارد على حجري وقال: - رأيّت يا جدي هذا الإعلان التجاري؟ أتعلم هذا الذي يتحدث عن نمو الشعر؟

انكمش حاجبيّ جدّه. قال:

- لم أفعل، لماذا؟

فمسد چارد بيديه رأسي في موضع علاه يوماً الشعر، وقال: - رباه، لا أعلم.

كان الفتى المشاكس في السابعة من عمره.

كان چارد في السابعة من عمره في صيف العام ٢٠٠٠. وكنت أنا في مونتانا فوق نهر ميزوري على متن قارب برفقة أختي ساندي. هاتفت جف حين نزولي من النهر في وقت متأخر من الليل للاطمئنان عليه. قال إن چارد وچيگب تعاركا وإن الأمر كان مريعاً، كان هذا ما يفعله الأخوان يومياً.

قال جف:

- لسنا نقدر على تحمل مزيد من هذا، إنهما لا يرغبان في التوقف.
فسألته:

- أتعرف لاعب الجولف كيرتس سترانچ يا جف؟

كان كيرتس قد فاز ببطولة الولايات المتحدة للجولف المفتوحة مرتين. كان ذكره ملائماً لتلك المحادثة لأنه كان توأماً متماثلاً.

- أخبرني كيرتس بأن كبرى مشاجراته مع أخيه آلان كانت على مائدة العشاء، حيث نتج عنها تبعر الطعام على السقف. كانا في السادسة عشرة يا جف، أما ولدناك ففي الحادية عشرة. سيدركان حلاً للأمر، أعطهما بعض الوقت.

- كلا، بساً لذلك. إنهما قد خرجا عن السيطرة، إنهما يخيفان ليزا كذلك بما يفعلانه.

- كيف؟

- علّق چيگب في يوم مضى چارد من عقبه من حاجز العلية. لم يكن چارد خائفاً. ظن الأمر مرحاً، كما العادة مع الأطفال. لكن كان من الممكن أن يسوء الأمر، إن ليزا قلقة.

ثم في صلب الموضوع قال جِف:

- سنفرقهما عن بعضهما. إن چارد هو من يخيف ليزا أكثر.
سأرسله للعيش مع لين.

لم أصدق أن الأمر كان يحدث من جديد. كان ابننا، منذ ثماني سنوات مضت، قد أبهتنا بإعلانه اعتزام الرحيل بعائلته إلى فيرجينيا، والآن هذا؟ كان الأمر جنونياً. إلا أنني قلت له، تلك المرة عوضاً عن التضور في الغضب الصامت كما اعتدت:

- لا يمكن أن تكون جاداً بشأن هذا يا جِف.

كانت الفكرة عvisية على التفهم. كان بين جِف ولين بعد طلاقهما ما صنع الحداد. والآن فإنه على وشك إرسال فتاه الذي قال إنه يحبه، للعيش مع امرأة قال إنه يكرها. قلت له:

- ليس بمقدورك أن تفعل هذا يا جِف، بالله عليك لا يمكنك التفريق بينهما، لا يمكنك التفريق بين الإخوة فما بالك بالتوأم؟!
- هذا ما يجب علينا فعله.

- يا جِف...

قاطعني بصرخته الغليظة:

- أنا الأب هنا!

أيُّ الأبناء يخاطب أباه بهذه الطريقة؟ نجا أبي وأمي من الكساد العظيم والحرب العالمية الأولى ولكنهما أدركا أن باقي الحياة كنزور للابتسام. جعلنا طفولتي دافئة ومريحة وآمنة. كنت أقف بنافذة المطبخ،

قرب الخامسة، لمشاهدة شاحنة أبي في حين عودته من العمل. كنا نجلس معًا لمشاهدة التلفاز والبيسبول والملاكمة والمصارعة ومسلسل جان سموك. إلا أننا لم نتحدث كثيرًا، كان أبا إن تحدث، كنت أرد بكلمة. كان الصراخ بوجهه مما لا يمكن تخيله. فيم فشلت في تربية ابني ليهاجمني بتلك الطريقة - كانت كلماته بمثابة الهجوم - ليحدثني بتلك الحدة؟

أغلقت الهاتف في وجهه. لم نحظ، أنا وِجف، لسنين عدة بمحادثة ذات بال عن الأولاد. كان الصمت خطأ آنذاك وخطأ فيما بعد. فكان بمقدور الأب والجد، عبر السنين حين اختفى چارد في غياهب الطريق، أن يجتمعا لمساعدته. لم نتشارك في شيء عوضًا عن ذلك.

وكما كان ذلك محببًا ومغيبًا للجد، كان الأمر محيرًا لچارد الذي كان في السابعة من عمره حين أرسل للعيش بعيدًا عن أبيه وأخيه. كان ذلك واحدة من الحوادث المضطربة في سنه اليافعة. عاش چارد، عقب طلاق والديه، مع أحدهما لا مع الاثنين معًا، فانتزع من ملكيتنا في فيرجينيا الريفية إلى شقة لين العالية في ضواحي واشنطن. ومن ثم انتقلت لين حين أتم چارد السابعة عشرة، إلى جنوب كارولينا. أراد چارد البقاء في مدرسته الثانوية المألوفة لا أن يكون غريبًا في جنوب كارولينا. عاد، على مضضٍ، إلى بيت چف في لوكست جروف حتى أتم هنالك سنته الأخيرة في الثانوية.

تذكر چيگب انعدام اليقين، للعيش مع والدته في ثلاث شقق ومع أبيه في مدينتين. فقال:

- بمجرد تصادقنا أنا وچاردي مع الآخرين في مكان ما، ننتقل للعيش في آخر مجدداً.

خلال تلك السنوات شرع الفتيان في معاقرة الخمر.
يقول چيگب:

- ذهبنا إلى كي وست لحضور جنازة قريب لنا، فتناولنا، أنا وچاردي، إبريقاً من الجعة.
كانا حينها في الثالثة عشرة. ويتبع:

- احتسينا الشراب طوال العام في المدرسة الإعدادية، كنا ذات ليلة ثملين للغاية من شرب الجعة، إلا أننا تمكناً إثر دخولنا المنزل من التظاهر بالإفاقة لمدة خمس دقائق حتى غبنا عن الأنظار. وفي الصف التاسع والعاشر كنا نعب أقداح شراب كابتن مورجان.

لم نكن، أنا وشيرل، على علم بأيّ من هذا، بل ولم يكن لدينا من سبب للتشكك في أمر معاقرة الفتين للخمر، حتى قال چارد في أحد الأيام: «أنا مدمن خمر يا جدتي». ارتاعت شيرل وأخبرتني بما قاله. إلا أننا غضضنا الطرف عن ذلك، فما الذي لابن الخامسة عشرة أن يعرفه عن إدمان الخمر؟ لربما احتسى الجعة بين الحين والآخر، من المراهقين لم يفعل ذلك؟ أن يكون مدمناً للخمر؟ محال.

كنا سعيدين لرؤية چارد في نهاية الأسبوع حين كان يأتي من المدينة حتى ريف فيرجينيا وبيت والده في الجوار. كان چف قد أصبح ممثلاً تاريخياً للحرب الأهلية ضمن آلاف الرجال الذين يعيدون خلق حيوات

الحرب وزمنها. أعجب چارد بملابسه، وصاحَب أباه بين الحين والآخر في الحرب تلك متخذًا سَمْتُ طَبَّالٍ ثم طَبَّاخ.

وتضمن أحد عروض التمثيل المفضلة لچارد القطارات في جوردنسڤيل في فيرجينيا. إذ كان قد حُوِّل منزل هنالك في أثناء الحرب إلى مستشفى. بات چِف وچارد ليلهما في باحة هذا المنزل بحذاء خطوط السكك الحديدية التي جلبت يومًا ما الجنود إلى المستشفى. قال چِف إنه لم يغمض له جفن قرب تلك القضبان إلا أن چارد استطاع، على نحو ما، أن ينام قرير العين.

كانت السنة النهائية للفتيين، على أحسن الأحوال، بمثابة الاختبار التقليدي للفتية المراهقين في خرق حدود أبيهما. وكانت، في أسوأ الأحوال، عامًا مضطربًا وضعهما في بيت لم يشعر فيه بالترحيب. كانت ذاكرة چيڭب عن تلك الفترة صعبة. إذ يقول:

- أخبرنا أبي أن ليس بمقدورنا أن نعيش معه بعد التخرج في المدرسة، بعد إتمامنا الثامنة عشرة. أخبرني أن أخرج أشياءي اللعينة من منزله، وإن لم أفعل فسألتقطها من الشارع. قال لي: «اذهب وانضم إلى البحرية».

جاء چيڭب عقب تخرجه في المدرسة للعيش معي وشيرل. إلا أن چارد رحل لكن ليس إلى البحرية، بل اختفى فقط في مكان ما. علمنا أنه بات ليله حيثما وُجدت أريكة صديق له. ثم جاء إلى منزلنا يومًا ما حليق الفودين بقصة الموهوك المصبوغة بالأرجواني والأخضر والأزرق.

بُهِتْنَا. كان چارد كما عهدنا خجولاً وهادئاً وطبيعياً. من أين أتانا هذا الفتى غير الاعتيادي الفاضح غريب الأطوار؟

لربما كانت الفتيات على علم بذلك. قابلنا أمريكية-تايلاندية اسمها نام، وفاتنة أخرى رقيقة الكلام تُدعى شانون. وتذكرت دستني لين كينج، الممتنة لنا، چارد بقولها:

«كنت في السنة الأولى في مدرسة أورنج الثانوية عندما جاء چارد للدراسة في سنته الأخيرة. لم أكن أعرف أحداً، أخافني الناس. في أحد الأيام كنت في الحافلة أستمع إلى الموسيقى مرتدية معطفاً مكتوباً على ظهره «جيسس فريك». فلكرز أحدهم كتفي ليقول: «ماذا يفعل أحد معجبي جيسس فريك بحق السماء باستماعه إلى نيرفانا؟». كان هو چارد، فلطالما دافع عنا إثر ذلك على متن الحافلة وفي المدرسة».

ولاحظته لورا ساليقان: «كنت أنا وصديقتي آلي نتسكع في المركز التجاري فيرفاكس حين رأينا هذا الفتى صاحب تلك القصة والمعطف الجلدي المرصع، فقلنا إنه محب لموسيقى البانك مثلنا. وهو ما ندر في تلك المنطقة. فشرعنا في الحديث معه، عرفنا الموسيقى التي يحبها: موسيقى فرق ليفت أوفر كراك وتشوكنج فيكتم وكيفوركيان إنچيلز».

لم يكن ثمة أي أغنية لكيفوركيان إنچيلز على مشغلنا للأغاني. من أين أتانا هذا الفتى؟ كان قد أرسل من حيث بيتنا في غابة فيرجينيا في سن الحادية عشرة. وعلى مدار السنين الست التالية لم نره سوى زائرٍ في نهاية الأسبوع أو في الأعياد. فنادرًا ما رأيناه خلال سنته الأخيرة في المدرسة، رغم أنه كان يعيش على مبعدة مائي ياردة عنا. قُلِبَت حياته

رأساً على عقب. كان يذهب في نهاية الأسبوع والعطلات إلى واشنطن لكي يكون برفقة أصحابه. لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك الفتى چارد، معجب البانك روك، بل لم أعرف حتى حفيدي چارد.

قضى چارد ليلته حيثما كان مُرحَّباً به. فقضى إحدى الصيفيات، حين لم يكن له بيت يأويه وحين أخبره أبوه بأن ينضم إلى البحرية، في خيمة نصبها صديقه كريس آلن الذي كانت كنيته دير جاد. كانت الخيمة التي تسع اثني عشر شخصاً شاهقة الارتفاع حد كان بمقدور الجميع التجول. كانت ثمة طاولة طعام بداخلها ومشواة بخارجها. كان المخيم في عمق خور بحذاء طريق آي-٩٥ السريع في إريكسبيرج في فيرجينيا. عاش دير جاد وچارد وثلتهما في الغابة دونما معرفته بما كان له أن يطرأ. فعادة ما بدأ يومهما بقول چارد: «لنشرع في مغامرة يا دير جاد». احتاجا في يومٍ ما إلى النقود فتوجها للمصرف، على الأقدام لا ركوباً، فلم يمتلكا سيارة. وحينما بلغا ممر السيارات تظاهرا بركوب السيارة. يقول دير جاد: «مشت صديقتي القديمة تامارا إلى حيث يُفترض وجود مقعد القيادة وتظاهرت بإدارة المقود، وحاكيت أنا صوت المحرك، وكان چارد ورائي مضطجعا على المقعد الخلفي وكأنما أغشي عليه».

أعجب موظف البنك بهذا العرض الصامت حد أنه سلّم السائق النقود فتوجه ثلاثتهم نحو أقرب متجر للخمر. مهَّد هذا الصيف الطريق الذي ستسير فيه حياة چارد.

قابل رجلاً كان قد وقع في الهاوية.

بشكل ما لم تقتل السقطة مايكل ستيفان. إذ كان ثملاً مغيباً حين دخل غابة مظلمة ليقع في خور عمقه ثلاثون قدماً. كان في التاسعة والعشرين من عمره، يعزف على الجيتار ويكتب الأغنيات ويطور نظريات المؤامرة. كان يعاقر الخمر، كونه ابن عائلة معدمة تعيش في الشارع، وتناول المخدرات الأخرى ليداوي ألمه الجسدي والنفسي. قضى ستيفان أسابيع في الخور كسيراً ومكدوماً إذ شلت الأشواك رجله اليمنى وذراعه اليسرى.

بات ليله في مبنى مهجور في فيرفاكس في فيرجينيا، به عمود خرساني بحجم شاهد قبر طفل يحمل الحروف «ق. ط. ف» محفورة عليه؛ أي القطاع الطبي، فيرجينيا. كان المبنى أثراً من الخمسينيات يعلو طابقين من القرميد الأحمر بنوافذ وأبواب من الخشب الأبلكاش. لم يكن بالمبنى كهرباء أو ماء، لكن كانت له مزية قدرها مستوطنوه: أن أبوابه يمكن غلقها من الداخل لدفع الهاجمين شرطاً كانوا أو سارقين. كانت فيرفاكس أرضاً مألوفة لچارل كونه قضى دراسته هنالك. كان العام الذي قضاه في لوكست جروف الريفية طارئاً على حياة المدينة التي اعتاد عليها. كان قد جاء إلى هذا المبنى برفقة صديق مشترك لزيارة الشاب المتأذي الألمعي غريب الأطوار. هنالك وجد مكاناً كالمنزل: مبنى ضخم وفارغ، ووجد شاباً كسرتة الحياة وفي حاجة إلى المساعدة.

حكاية مايكل

كنت أعب الشراب حد الموت. لم يكن هناك سواي في هذا المبنى المهجور. لولا بقاء چارد كنت لأنتحر أو أموت. اعتنى بي. كنت مقعداً في بادئ الأمر ثم اتكأت على عصا. ساعدني في كل شيء. لم يكن هنالك سواه وأنا خلال الشهور الثلاثة الأولى. لست أذكر شعوري بهذا الأمان والسعادة من قبل. لم يكن هنالك أحد سوى اثنينا في زمهرير الشتاء المتأخر.

انفصل والدي وأنا في العاشرة من عمري، وكان ذلك عندما بدأت في الترحال. بدأ الأمر تنقلاً بين أمي وأبي وجدودي. ومن ثم شرعت في التجوال عبر البلاد في التاسعة عشرة حاملاً حقيبة ظهري قرب جراي هاوند. وفي كولورادو وواشنطن ونيويورك وبوسطن، ورافقت شباب الهيبى. كان معجبو الكراستي بانك دومًا راغبين في افتعال المشاجرات، وتفوح منهم الرائحة الكريهة. تماشيت مع الهيبى بشكل أفضل. كانت لديهم مخدرات الجود بوت والماشروم التي تصيب المرء بالذهان.

بالكاد عاقرت الخمر، لأنه عندما تناولتها كان الأمر كارثياً. في يوم كنت غائبة عن الوعي من أثر الثمالة في ساحة تزلج في سانتا باربرا. لا بد أنني عددت نفسي توم هوك فانتزعت لوح تزلج أحدهم وتزلجت، انفلت اللوح من تحتي فسقطت خمسة عشر قدماً على جانبي الأيمن تحت وطأة وزني. تناولت، من جراء كسر ضلوعي، المسكنات بكمية كبيرة لشهور فأدمتها وأودعت

مصحة الإدمان. ثم هجرتني خليلتي وسرقت مدخراتي، خمسة آلاف كنا قد خصصناها لشراء عربة كارفان، وهربت مع شاب زميل في عملها. فعدت للشراب مجدداً.

شعرت بالأسف على نفسي حتى سقطت من ذلك المنحدر. بأعجوبة لم أنكسر، إلا أن جسدي امتلأ بالكدمات، حتى عظامي. بلغت جام غضبي من نفسي في تلك الفترة. أيمكن أن أكون غيباً لهذا الحد؟

كنت غاضباً من الطريق الذي تسير فيه حياتي الرثة حد أنني كنت أقص الحكايات عن أسفاري على نحو عاطفي وعن عظمة حياتي. مجّدتها برمتها، ومجّدت قدراتي العبقريّة في النجاة، ومجّدت ترحال المشردين ومجّدت قلبي: «تبّاً»، ومجّدت الاحتفال حتى آخر العمر.

لم يعلم شيئاً عن العيش في الشارع. لم يكن حتى يعلم أنه بحاجة إلى المياه، ناهيك عن كيفية الحصول عليها. علّمته أن يظل مرتوياً، وأن يجد زجاجة يحرص على امتلائها. قلت له: «إن جعت، اذهب إلى البقالة، فإنهم يرمون الخبز كل ليلة».

تقبّل الأمر برمته. لم يكن بمقدوره معرفة مدى ضياعي. إذ كان على نحو ما بريئاً وساذجاً. في حين كنت مبشراً بعبارة: «تبّاً لكل شيء». فأصبح الفتى الغر تابِعاً متحمساً. أنقذ حياتي، فلقتته كل حيلي. يا له من صديق!

لم يتقصَّ چارد عبر وقته مع ستيثان في شوارع واشنطن الريفية ومن ثم شوارع أمريكا سوى أمه. كنا نأمل في إنجاب ابنة بعد چف ولكننا حصلنا على لين. فعلى قدر ما آلمنا انتقالها وچف من نيومن، ونكء انفصالهما لجراحنا، لم أتشكك في الأمر الوحيد الذي عني كل شيء لي ولشيرل؛ أحبت لين هذين الفتيين. استحققت احترامنا، إثر طلاقهما، لسماحها لنا بأن نحب چارد وچيگب كما أردنا في يوم ولادتهما. قامت بذلك بإصرارها مشاركتنا حياتهم.

وبمرور الوقت تقبلتُ أن حياة البلدة الصغيرة في جوف الولاية الجنوبية كان صدمة ثقافية للين، وهي ما قوّضت زواجها الفاشل. فهمت أخيرًا أسبابها الوجهية لترك حضانة الطفلين چارد وچيگب. إذ انضمت إلى الجامعة، عند عدم قدرتها على الحصول على عمل مجدٍ، لتتخرج بشهادة في المحاسبة. أدركت أن بيت چف، بمساعدتي وشيرل، كان أفضل مكان للولدين. كان قرار ترك نيومن تاريخًا عتيقًا من الأفضل هجره، وبخاصة في سني الفتيين المضطربة. احتفلنا معًا: أنا وچف ولين، بعيد ميلاد الفتيين السادس عشر وتخرجهما في المدرسة. لكن سرعان ما انقشع هذا الاهتمام الذي تشاركنا فيه -من جانب چف. كانت لين دومًا على علم بمكان چارد فأمرته بإبقاء هاتف نقال معه. إذ أرادت، في الأوقات السعيدة، أن تسمع نغمات صوته، وفي الأوقات العصبية، أرادت أن تساعد. وفي الحالين كليهما كانت لين تهاتفني. لكن چف، على أي حال، اختار أن يكون خارجًا عن تلك الدائرة. فتقول لين:

- طوال الفترة التي قضاها چارد في الطرقات، لم أهاتف چف إلا مرة واحدة لأخبره عن الفتى.

- لم مرة واحدة؟

- كان مؤذيًا فكففت عن محادثته.

قطع چف، في خضم حربه الباردة لطلاقه من لين، صلته بما يحدث في حياة چارد. لم أستطع أن أفعل المثل. تصالحت مع لين. فلم نكن حمًا وزوجة ابن آنذاك، بل كنا منخرطين في الأمر معًا. فأصبحنا، على غير المتوقع، صديقين وشريكين وحليفين يجمعهما الاهتمام بالفتى الذي أحبيناه.



انتهى المطاف بچاردي وستراي وبوز كوپ، بعد رحيلهم من سان دييجو، إلى مدينة نيو أورلينز المسكونة، والساكنة. في عيد الهالوين من العام ٢٠١٠، أقامت فرقة موسيقية تُسمى «وايدسپرد پانك» (ذعر منتشر) حفلاً على ساحل بحيرة نولينز^(١٣). أما ثريلاً غوريلاًز، وهو فريق رقص مكوّن من سبعة وخمسين راقصاً، فقد احتشدوا بعدما وضعوا مكياج الزومبي لتأدية أغنية ثريلر لمايكل چاكسون. كانت الأجواء أشبه بعيد باخوس؛ عربية من الشراب، واللحم، والأشباح، والغيلان، والكثير من العفاريت، يمشون في موكب في شارع ديكاتور وبوربون. شارعان مقدسان في عالم من الكفر. غزا مصاصو الدماء الليل، ورقص چارد على سطح مصنع چاكس للجة، الذي تفصل بينه وبين النهر العتي قفزة واحدة، وبرق تحت ضوء الهلال. من فوق المبنى، رأى أضواء ميدان چاكسون، والأبراج الثلاثة لكاتدرائية سان لويس. والأهم من هذا كله أن الرحلة الطويلة من سان دييجو قد وضعت چارد في صحبة كرسيتين مينارد، التي ستستمر منذ لحظة لقائهما إلى وقتٍ طويل. مينارد كاتبة حرة، تسكن شقة فوق متجر خمور بشارع ديكاتور، تبلغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً، طُلقت غير مرة، وأم لثلاثة أولاد. تبدو لي كأنها شخصية

(١٣) استخدم المؤلف هنا النطق الدارج لنيو أورلينز.

خرجت من مسرحية لتنيسي وليامز، فهي معقدة، ودائمة المعاناة، وتضم بداخلها كل ما تضمه أي امرأة: رومانسية، وشفقة، ومأساويات، ورحمات رقيقة. ولمّا كان الحزن يصيب چارد، كانت تصحبه من الشارع، وتقدّم له المساعدة، وتطعمه، وترعاه. وفي أسبوع الهالوين، أسدت إليه خدمة بأن عرّفته على رجل يلقب بـ«پازلز»^(١٤).

عمل پازلز في بعض الأوقات ممثلاً صامتاً في الأفلام التي تصوّر في نيو أورلينز. كان في الثلاثينيات من عمره، وله كاريزما لكنه مضطرب، نحيف لكنه وسيم وله جدائل داكنة. رسم وشماً لحروف «هـ و ب و» على مفاصل أصابع إحدى يديه، وكتب «حول العالم» على يده الأخرى، وعلى إصبع خاتم الزواج رسم عربة قطار شحن. كتبت مينارد ذات مرة أنها استنبطت من پازلز «تفاصيل فظيعة عن الألم، والمعاناة، والإهمال الذي تحمله منذ صغره. لقد صار رَحَّالاً من الرابعة عشرة، يركب القطارات».

تسكّع چارد برفقة پازلز على رصيف خشبي على حافة نهر المسيسيبي. يُقال إن چان لافيت^(١٥) وقراصنته قد مشوا على ذلك الرصيف. قال أحدهم عنهم إنهم كانوا أوغاداً حُقراء. لذلك، قرر چارد أن ينعت كل مَنْ كانوا يقفون على الرصيف في تلك الليلة بالأوغاد الحُقراء. في المرة الأولى التي تحدّثتُ فيها مع پازلز عن چارد، قال لي:

(١٤) أحاجي.

(١٥) قرصان فرنسي شهير، استقرّ في الولايات المتحدة برفقة أخيه، ليتاجرا في البضائع المهربة والرقيق. وكان له دور كبير في حرب ١٨١٢ حيث إنه ساعد الحكومة في الدفاع عن نيو أورلينز.

- كان اسم جوبلن مثاليًا.

- أنعد اسم جوبلن مثاليًا؟

- بل كندر^(١٦)، لأننا كنا روحيين متآلفتين، حُرَّتَيْن. ذلك الفتى كان بمثابة أخٍ لي.

بعد الهالوين بأسبوعين، داهم چارد وپازلز شعور الجوّالة المُلح بالحركة. في محطة چنتلي، قفزا مع فتاة اسمها أليكس تالنت، واتّجهوا غربًا، إلى سان دييجو تحديدًا، دونًا عن أي مكان آخر. في رحلة مروّعة أكثر من رحلة ستراي الاستكشافية، وصل طاقم «الأوغاد الحقراء» إلى محطة قطار أريزونا.

حكاية أليكس

لا أعلم لماذا أراد جوبلن أن يعود من حيث أتى. لم يكن يهمني السبب، فقد بدا الأمر أشبه بمهمة عليه تأديتها، ومن ثم يغادر نيو أورلينز، لويزيانا، لبعض الوقت.

كانت رحلة جنونية، حتى قبل بلوغنا توسن. سرّت أمور على نحو جيد، وأمور أخرى على نحو سيئ، مثلما حدث عندما قفز جوبلن وپازلز في هيوستن. أزعج جوبلن وجود كلبتي الجاك راسل الجميل، الذي كان يتصرف كالحمقى. كما أننا أفرغنا ما

(١٦) Kindred كلمة تعني عشيرة أو أقارب، أما تعبير Kindred Spirits فيعني «روحيين متآلفتين».

كلمة تعني عشيرة أو أقارب، أما تعبير

لدينا من جعة وسجائر، فقال جوبلن حينها: «لماذا لا نقفز هنا يا پازلز لنبحث عن طريقة لجلب المال؟».

ابتعدنا عن الطريق مبكرًا جدًّا، بعدما أخرجتنا شاحنة من الساحة. درجة الحرارة تجاوزت الثمانين، والجو عمّته الرطوبة، وكنا نحمل أغراضنا، واضطررنا لأن نمشي خمسة أميال لعينة حتى وصلنا إلى الحي الخامس بهيوستن.

لم يكن كل شيء واضحًا بالنسبة إليّ وقتئذٍ، لكن پازلز لدغه دبور، ونما جرح في ساقه، وربما قد تعرّض للضرب. لكنه نجح في الوصول إلى أحد المستشفيات، ولم يستكمل معنا رحلتنا. ثم مكثنا في هيوستن لأسبوع، وهناك قابلنا شخصًا نعرفه، يُدعى «بروك».

عندما تكون هائمًا في طريقك، عادةً ما تمشي على جانب الطريق. حينئذٍ تتمكن من التجوّل في أماكن لا يجدر بك الوجود فيها، والحي الخامس في هيوستن هو أحد تلك الأماكن، فلنعقود من الزمن، تحكّمت في تلك المنطقة عصابات وتجار مخدرات، حتى صارت ساحةً للقتلة، ومخزنًا للقتلى، واكتسبت اسم «سبيكة الدم».

عندما مشيت أليكس مع چارد من المحطة إلى الحي الخامس، ركضت نحوهم كلاب ضالة، شرهة، تُكشر عن أنيابها. كان الوضع سيئًا مع الكلاب، لكن الأسوأ كان محاولة أطفال صغار لأن يبيعوا لهما الكوكايين الصخري.

استغرقت الرحلة من هيوستن إلى توسن ثلاثة أيام. وعندما بلغنا منتصف المسافة، في سان أنطونيو، قفزنا من القطار. جلستُ أنا وبروك على مقعد، وجلس جوبلن على مقعد آخر مع فتاة تعرّفنا عليها هناك، عاهرة حمقاء تُدعى «جولز»، لم تفعل شيئاً سوى أن تُطارد ذَكَرَ چارد. كان لديها كلب يعاني من فيروس بارفو، ولم تكن تملك أي طعام سوى قطع المارشميلو. كما أنها لم يكن معها ماء لأنها أَلْقَتْ ما تبقى منه على قِيء كلبها المريض.

ثم فجأة، رحل جوبلن. انفصلت عربات القطار، ففقدنا جوبلن والعاهرة. قفزنا، فقال عامل المكبح: «ماذا تفعلان هنا بحق الجحيم؟ إن البرد قارس!». انخفضت حينئذ درجة الحرارة إلى خمسٍ وأربعين درجة، وبات الجو عاصفًا. فسألناه أين ذهب نصف القطار الآخر، حيث يقبع صديقانا، فردَّ: «ستفصل هذه العربة خلال خمس دقائق».

يعلم جوبلن كيف يتصرّف، فرأيناه يركض خلف عربتنا، ويُحاول أن يمسك بالمقبض ويصعد، لكنه فشل. فلَوَحنا له لنودّعه، وبداخلنا يقين بأننا سنلتقي به مجددًا. وإذا بالقطار يتوقّف، فحمل جوبلن الفتاة على ظهره وصعد بها. ما أثار جنوني في كل ما حدث أن عامل المكبح قد أوقف القطار من أجلنا، بل إنه قاد شاحنته واعترض طريق القطار. كان رجلًا لطيفًا لا نقابل مثله كثيرًا.

خرجنا من سان أنطونيو، ومررنا بدل ريو، بالقرب من الحدود التي تفصل بين أريزونا ونيو مكسيكو. كدنا نموت من العطش مرّتين في الصحراء، لأن العاهرة قد أفرغت كل الماء على قِيء كلبها.

مكثنا هناك ساعتين، أو ربما أربع، لا أحد يعلم. جفّت حلوقنا، ثم ما لبثنا أن رأينا شجر التين الشوكي، فقال جوبلن: «لنأكل منها؛ هناك سوائل بداخلها».

لا أدري إذا كنت تعلم ما التين الشوكي، لكنه نوع من الصبّار، له شوك يشبه الإبر الفولاذية. ويجب أن تكون جائعاً للغاية، أو عطشان جداً، كي تأخذ قضمَةً من هذا الخراء. أو أن يصيبك الهذيان، مثلما أصابنا ودفعنا لأن نقطف ما استطعنا منه لنتلهمه.

أما في المرة الثانية، فكنا بجانب منزل لاتيني قذر. رأينا سيدة مكسيكية تقف في الفناء الخلفي، فحاولنا أن نطلب منها سجائر بلغتنا الإسبانية المكسورة: «فومار، پور فافور؟»^(١٧). عادت السيدة بقدر كبير به قهوة، ورغيف خبز، وسلّة فاكهة. كانت -حرفياً- هبة الله الوحيدة لنا طوال الرحلة.

ثم وصلنا إلى محطة قطار توسن. وقفت العاهرة على الحاجز الحديدي، مكشوفة أمام الساحة بأكملها، تُعبئ حقيبتها بينما كنا ننتظر أن يُبطئ القطار سرعته. ثم فجأة، رأينا شاحنة ضخمة تسبق القطار. ظل السائق مصوّباً نظره نحونا لأنه رآها، وكيف له ألا يراها والساعة كانت الثانية بعد الظهر والنهار مشرق؟

في تلك الأثناء، بحثنا عن فتحة بين السياج كي نغادر الفناء منها. ثم انقلب الأمر إلى سباق، لكي نهرب من القطار، ونجد الفتحة، ونغادر المنشأة قبل أن تلتف الشاحنة من أمام القطار وتأتي إلينا.

(١٧) «هل معك سجائر؟»، أو «سجائر من فضلك».

فقفزنا مع كلابنا، وعادةً ما يُسبَّبون لنا جميع أنواع المتاعب، لكننا
نجحنا في الانزلاق تحت السياج.

وجدنا أنفسنا على طريق سريع. ركضنا إلى الجانب الآخر، فقابلنا
حاجزًا في المنتصف سيتعين علينا القفز من فوقه، أو الزحف من
تحتة. نظرنا بجانبنا، ولم يكن هناك شيء.

على الطريق، دائمًا ما يكون ثمة شيء قادم نحوك.

قفزت أنا وجوبلن وبروك من فوق الحاجز، واستأنفنا الركض إلى
الجانب الآخر من الطريق السريع. وفجأة، ظهرت سيارة من العدم،
قادمة نحونا بسرعة من سبعين إلى خمسة وسبعين ميلًا في الساعة.

ثم حدث الاصطدام!

ضربت مرآتها مرفقي وكتفي، والتفتُّ في مكاني. أبصرتُ
بروك يطير بارتفاع عشرين قدمًا في الهواء. تهشَّم زجاج السيارة
الأمامي، لأنه اصطدم به. انثنت ساقه وقد برزت عظامها، فأخذ
يصرخ: «تبًّا! تبًّا! تبًّا!».

ثم رأيتُ جسد جوبلن يتلوَّى على الطريق. كان قد أصيب إصابةً
قوية أيضًا، لأن ساقه التفتَّت بالكامل. ضربته السيارة من جانبه
بطريقةٍ ما، أو ربما قد رآها في الثانية الأخيرة والتفت. صدمت
حقيقته أولاً، التي لولاها، لكان قد قُتل.

كان تقرير المستشفى مربعًا، فقد ذكر ستة كسور حادة في جسد چارد من فوقه حتى تحته. وجاء فيه أيضًا ما نصه: «تشوه واضح في طرفه السفلي الأيمن»، ما يعني أن قصبة ساقه انكسرت أسفل ركبتة، وانحنت بزواوية حادة. وبداخله -بالطبع- عمّت فوضى لعينة، فقد قُطِع كبده، وفُتِحَت مثانته. وعلى الرغم من أنه طار في الهواء، ومن ثم اصطدم بأرض الطريق السريع الخرسانية، فإنه لم يُصَب في رأسه. بخلاف ذلك، كان ثمة استثناء واحد للألم الذي تحمّله؛ وقد أوضح ذلك لاحقًا، بعد خمسة أيام، عندما سُئِل عن المكان الذي لم يُصَب فيه بأذى. قال حينذاك: «شعر رأسي».

نص التقرير

المركز الطبي الجامعي، توسن، أريزونا

اسم المريض: چارد كندرد

تاريخ الميلاد: ٨ ديسمبر ١٩٨٨

السن: ٢١ عامًا

الوزن: ٦٦ كيلو

الطول: ٦٧ بوصة

كان هذا المريض يمشي على قدميه حينما ضربته سيارة أتت بسرعة ٦٥ ميلاً في الساعة. يشكو من آلام في الجانب الأيمن من منطقتي البطن والصدر، ويصفه بأنه ألم دائم وحاد، ويزداد مع الحركة. كما أنه يشكو

من الطرف السفلي الأيمن، ويؤكد قسم الطوارئ أنه يعاني من تشوه واضح في المكان نفسه، فتمت تغطيته بالجيرة بالكامل. لا يستطيع المريض تذكر الحادث. ذكر قسم الطوارئ أنه كان قد فقد وعيه في مكان الحادث.

يعاني المريض من كسر في الظنَّبُوب الأيمن، وانصباب في مفصل الركبة الأيمن، وكسر في الفرعين العالي والسفلي من عظم العانة، وكسر في المفصل العجزي الحرقفي، وتمزُّق الكبد من الدرجة الثانية، وتمزُّق المثانة داخل وخارج الصفاق، بالإضافة إلى خدوش عدة. أعطانا المريض رقم تلفون والدته لين.

اتصل الطبيب بلين من هاتف جارد المحمول، ثم أعطاه إياه. قال: «لقد ضربتني سيارة يا أمي». فطلبت منه أن تُحدِّث الطبيب.

– ما حالته؟

ذكر لها الطبيب عدد الإصابات.

– هل سيعيش ابني؟

أجاب الطبيب بنعم، وأخبرها بأنه سيجري عمليات جراحية غدًا. فقالت: «سأكون هناك».

* * *

سألت لين إحدى الممرضات بمجرد وصولها إلى مستشفى توسن:

- أين هو؟

- في قسم التعافي، نجحت عملياته الجراحية.

- أين ذلك القسم؟

- ليس بمقدورك الذهاب إلى هناك الآن.

- بل أستطيع.

- أعتذر لك، إنه لم يُقَّ من تأثير المخدر بعد.

- بلى، إنني ذاهبة إليه في التو واللحظة.

- سنضطر إلى استدعاء الشرطة إن فعلت.

- فلتفعلها إذن، لأنني ذاهبة لأكون بجوار صغيري.

عندما تطلب أمُّ تدعو نفسها بالنِّمْرَة وقد استقلت الطائرة ثلاثة أرباع الرحلة عبر البلاد لرؤية ابنها الجريح، فلا بد أن يكون رد الممرضة الملائم بالإشارة نحو قسم التعافي والتنحي عن طريقها. وهو ما يفسر لماذا كانت لين، في يوم إجراء العملية، في قسم التعافي بجانب چارد تمسّد شعره. لم يكذب الكاد يفتح عينيه حين قال:

- بامكاني أن أشتّم رائحتك يا أمي.

ثم تلعنم كطفل.

- أنا ههنا بجانبك يا صغيري.

فقال چارد:

- اقرصي لي وجهي يا ماما.

أراد لها أن تقرص وجهه مثلما كانت تفعل حينما كان طفلاً.

لم تكن لين قد رآته سوى مرتين في عامين. جاء إلى ميرتل بيتش في صيف العام ٢٠٠٩ حين رأت وشم وجهه للمرة الأولى ولم يرق لها. أرادت منه أن يمحوه وأن يزيله. وحين قال إنه سيزيله، كانت تعلم أنه لن يفعل. كان معجباً بشكله. وبعد أسبوع قالت له: «أتعلم؟ لا يلاحظه المرء بعد حين، بل لا يرى سوى چارد».

ومن تحت وشمه، قرصت أمه وجنتيه قرصاً خفيفاً.

كانت قد تقطعت بي السبل وصولاً إلى چارد. كنت على علم أنه عاش متشرداً في الشوارع ومسافراً في الطرقات جُل السنوات الثلاث منذ تخرجه في المدرسة الثانوية. لم تكن تلك عيشة بمقدور أي أحد أن يتحملها، فهي حياة قائمة على معاقرة الخمر وتناول المخدرات الأخرى. إلا أنني فضّلت، بإنكار جدّ لما يحدث أمام ناظريه، أن أرى تسكّع چارد على أنه مغامرة شاب يافع. فقد قرأت توين وهو يكتب عن هاك فِن: «بأنه يرمق كالبرق الأراضي من حوله». فسّم چارد، كمثل

هاك، مما كان فيه، راغباً في أن يكون في مكان آخر.

هاتفنتي لين من توسن، لم تكن تبكي، فقد رأت جسد چارد
المثخن. لم يعد ثمة أهمية لوشمه. عمل عليه الجراحون ليومين. فجاء
ملخص ما قالوه:

المركز الطبي الجامعي، توسن، أريزونا.

أُجريت عملية جراحية.

«١١-٢١» استكشاف بطني وترقيع تمزق.

«١١-٢٢» تحجيم جراحي مفتوح وتثبيت داخلي، كسر بمنتصف
الترقوة اليمنى وخياطة جراحية، تثبيت مسمار نخاعي، كسر بقصبة
الساق اليمنى، تحجيم جراحي مفتوح وتثبيت داخلي، كسر بالحوض.
كان على قيد الحياة، ربما لأن حقيقة ظهره حالت بينه وبين السيارة.
ذلك أنه، تأثراً بالكسور، سيصبح مقعداً أو متعكراً للشتاء بطوله. أكد
الأطباء للين أنه سيتعافى. كانوا قد جبروا كسره وخاطوا لحمه المهترئ.
وللزمان أن يداويه. كانت لين متقبلةً لذلك. لكن الأمر الآخر هو ما كان
يؤرقها. إذ سألها چارد في اليوم الثالث في المشفى:

- لم وضعوا تلفازين هنا؟

نظرت لين نحو التلفاز الوحيد بالغرفة المعلق على الحائط وقالت:

- ماذا؟

- هذان التلفازان، أيهما يُفترض أن أشاهد؟ والآن يوجد اثنتان

منك.

حدقت لين إلى الممرضة. فقالت الممرضة:

- يعاني البُحران.

فلم تفهم لين.

- يعاني من أعراض انسحاب السموم.

فلم تنبس لين بكلمة. فقالت الممرضة:

- أعراض انسحاب؛ انسحاب الكحول.

كانت حاله هي الهذيان الارتعاشي، وفي عالم مدمني الكحول يطلقون عليه اسم «ارتعاش الرعب». يحدث ذلك عندما يُحرم مدمن الكحول منه. لكن رغم خبرة لين، كنديم للخمرة وشاربة له، لم تشهد قَطَّ أيَّ أحد يعاني من ذلك الهذيان. ولم يكن هو بأي أحد: كان ذلك جارد، فلذة كبدها. جاست، وهي جواره، في ظلام حياته. ذلك أن ما رآته لم تكن تعلمه بعد: إدمانه. كان صغيرها مدمناً للكحول.

أخرجه مشفى توسن في الساعة ٥٢ دقيقة يوم السابع والعشرين من نوفمبر. فجاء في تعليمات وخطة ما بعد الخروج ما يلي:

يتم التواصل مع طبيب الرعاية الأولية أو خدمة الإسعاف ٩١١ في حال حدوث آلام صدرية أو ضيق تنفس. وفي حال حدوث تغير للعوارض يتم التواصل مع الطبيب المعالج أو التوجه إلى قسم الطوارئ. بالإمكان استخدام عقار تايلانول حسب الحاجة. ابحث عن الخدمة الطبية في حال تدهور العوارض، وتناول الأدوية حسب المشار إليه.

أخرجه المشفى، على نحو غير عقلاني، بعد خمسة أيام من الجراحات العديدة في مختلف أنحاء جسده. ذلك أن أقصى تفسيرات إخراجه هو أن المشفى احتاج إلى سريره لإيواء آخر حامل لخطة تأمين صحي أفضل. في تلك الحال، قراءة تعليمات الخروج بنبرة ساخرة لمدير المشفى، كقول لسان حاله: «اكتفينا منك يا فتى. عد أدراجك حتى وإن كنت تتألم حتى النخاع ولا تقوى حتى على الجلوس على كرسي متحرك. عد إلى البيت بحظ وفير ولا تنسَ إن تألمت أن تأتي إلى قسم الطوارئ، فهو لا يبعد عنك سوى ما تقطعه الطائرة عبرًا للقارات».

قالت لين:

- لم يكن ينبغي عليه السفر على متن أي طائرة، فقد أمطروه بالمسكنات، بالمورفين بشكل أساسي

ثم إلى طبيب الخروج:

- سأقتلك إن حدث أي شيء لصغيري على متن تلك الرحلة.

فتشه أمن مطار توسن. فتقول لين:

- تألم مع كل حركة، فاستمر في قول: «لا تلمسوني». وأسرع موظفو المطار في أتلانتا بجر كرسيه المتحرك في المطار كي يلحق بالرحلة التي تم إيقافها لأجله. كانت صالة الطائرة الخاصة بالركاب ساكنة حين دخوله من المدخل حتى الطائرة. دفع الاهتزاز المفاجئ چارد لقول: «تبًا». صَفَّق الركاب له، ثم الأمر على نحو جيد - وإن كان قد تم بالألفاظ النابية.

أن تصدمك سيارة تسير بسرعة خمسة وستين ميلاً في الساعة ليس أمراً جيداً أبداً، إلا أن تجربة چارد كانت حالة استثنائية. فقد يحتاج إلى شهرين أو ثلاثة للتعافي من جراحه، لكن بمقدوره في ذلك الوقت أن يهجر الخمر. كان لم يزل في الواحدة والعشرين من عمره. منحه ذلك الحادث فرصة ثانية على الرغم من أنه كاد يودي بحياته المستقبلية.

هاتفني لين ذلك الشتاء لتقول:

- يقول لي محام من أريزونا إن بإمكان چارد رفع دعوى قضائية بتعويض يصل إلى ٦٠٠,٠٠٠ دولار.

اقترح المحامي رفع دعوى ضد المشفى. واحتاج إلى أن يظل چارد في ميرتل بيتش ليكون جاهزاً للفحوصات والإدلاء بشهادته. لم ينجح اقتراحه لأن چارد أصر على ألا يبقى - بل ليس باستطاعته أن يبقى.

فتقول لين:

- منذ البداية لم يتحدث إلا عن التعافي ليعود إلى نيو أورلينز، فحينما كنا نحادثه عن الدعوى القضائية كان يرفض، لم يُرد أن يقيمها. كان الحادث خطأ لا خطأ الفتى الذي قاد سيارته متجاوزاً حد السرعة. أوضحت أنها ستكون ضد المشفى الذي أخرجته مبكراً. طرده، ولم يكن مستعداً للذهاب إلى أي مكان. لم تكن شركة الطيران حتى لتسمح له بالصعود على متن الطائرة. بدا محطماً، إلا أنه كان عنيداً. فجعل يقول: «كلا، كان ذلك خطئي، واعتنى المشفى بي».

لم يعارض چارد الدعوى القضائية فحسب، بل عاد لمعاقرة

الشراب. وكان عزاؤه الوحيد أنه لم يقرب الثودكا، فلم يشرب سوى الجعة.

تقول لين:

- أخبرته: «جسدك لا يعرف الفرق بين الثودكا والجعة يا عزيزي، كلها كحولات». لكنه كان مقتنعاً بأن شُرب الجعة كان أفضل مائة مرة لنفسه من شرب الثودكا. لم يكن بمقدور أحد أن يحدث ذلك الفتى العنيد بشأن هذا.

كان چارد، حين رأى التلفاز تلفازين ورأى أمه صورتين في مشفى أريزونا، قد أظهر علامات لا تخطئها العين على إدمان الكحول. لكن لين لم تفهم هذا آنذاك، ولم أفهمه أنا كذلك. والآن فإنها لم تنبه إلى إشارة أخرى أقوى: فلم يكن عناد ذلك الفتى هو ما حثه لرفض الدعوى القضائية، بل كان رفضه عَرَضاً آخر للكيفية التي عدّل بها الكحول دماغه.

لاحظت لين علامات إدمانه جلية عليه، بالتحديد في ليلة عيد الميلاد للعام ٢٠١٠، بعد شهرين من رؤيته التلفاز تلفازين، وفي ظل سيطرة أعراض الهذيان الارتعاشي عليه. لم يكن چارد قد تناول الشراب منذ الحادثة. ووافقت لين على أن تجلب له الجعة. جلبت له نصف دزينة لكنها سمعته يصرخ فيها: «لن يكفي هذا». ألم تكن نصف دزينة كافية؟

عام واحد بعيداً عن التشرد كان كفيلاً لأن يسمح لچارد بالتعافي الكامل من جراحه. كان بمقدوره اللحاق بچيکب والانضمام إلى

الجامعة الأهلية، وكان بمقدوره أن يبني حياةً قرب أخيه وأصدقائه الذين اختبرت فترة النقاهة في ميرتل بيتش ولأهم، فقادوا المسافة من فيرجينيا للاحتفال بنجاته، وأخذوه مقعدًا في كرسيه المتحرك إلى أحد نوادي التعري.

يحكي چيکب القصة:

- كان چارد مستاءً من اضطراره للبقاء في مكان واحد أكثر من استيائه من جراحه. لم يُرَق له البقاء في مكان واحد طويلاً، فلهذا ذهبت أنا وكوري بين وليشي كي نراه. نفذت نقوده في نادي التعري، فأعطاه ليشي حزمةً من فئة عشرة دولارات، فلم يمر سوى عشر دقائق قبل أن يخبره چارد: «أحتاج إلى مزيد من المال يا ليشي»، فأجابه: «ماذا حدث للمال الذي أعطيتك إياه؟»، فقال: «أعطيتهم للراقصات». قال ليبي: «أهدرت مائة دولار بالفعل؟». كان قد أعطى چارد حزمة من فئة عشرة دولارات لا من فئة الدولار. حصل، چارد بالطبع، على مختلف أشكال رقصات الإثارة المجانية كونه وسيماً ومقعداً. فكانت النساء تقول: «ما بك يا عزيزي؟».

لربما كان چارد قد قدّر، برفقة چيکب وأصدقائه من فيرجينيا بعيداً عن قطارات البضائع والثودكا الرخيصة فئة ١٢ دولارًا للجالون، الثروة الوفيرة لأن تدهسك سيارة مسرعة في أريزونا. إلا أن الإدمان كان أقوى من أي بديل آخر. فعلى الرغم من مكوثه مقعداً لقراءة الشهرين، وعلى الرغم من سماعه نبأ مقتل ثمانية فتية في حريق نشب في مخزن في نيو أورلينز في ٢٨ من ديسمبر عام ٢٠١٠، وعلى الرغم من إدراكه

للمبنى وبعض القتلى، وعلى الرغم من علمه بأن ثلثه «بينك هاوس» كارثة وشيكة، قال چارد لأمه بمجرد تمكنه من المشي إنه عائد إلى نيو أورلينز.

تطلب إدمانه أن يُلبى، أمر بالذهاب إلى نيو أورلينز، آخذًا چارد معه.

لم تعلم لين سوى القليل عن حياته متشردًا في الطرقات، لكنها علمت أنها لا تحب نيو أورلينز أو نيويورك. فتقول عنهما: «أراعاني». إذ ربطت بين هاتين المدينتين وتناول المخدرات، والهيوين بخاصة. فتقول: «أخبرني چارد بأنه تعاطى الهيوين مرة واحدة لأنه لم يرق له. فقال: «عافر الخمر يا أمي، وتناولت الكوكايين إن حمل أحدهم بعضًا منه، لكنني لا أتعاطى الهيوين»».

كم كنا مغيبين! أبقتني مهاتفات لين مطلعًا على توغل چارد بعد إجرائه للعمليات الجراحية في أريزونا. بقي بجانب أمه لشهر ثم شهرين ثم ثلاثة في ميرتل بيتش. كان ذلك أطول ما قضياه معًا منذ أربع سنين مضت. فكرت بجسده مشخن الجراح إلا أنني لم أفكر بالإدمان. كم كنت ساذجًا! أنا كاتب العمود الرياضي الشهير؛ الرجل المخضرم المتسكع مع كُتّاب الرياضة الذين كانوا يشربون حتى الثمالة فلا يقدرّون على تلمس طريقهم إلى البيت من الحانة. لم أفكر، ولو مرة واحدة، بالسبب وراء رغبة چارد في ترك ميرتل بيتش. لم أفكر مرة في الذهاب إلى هناك جواً لأحادثه عن مرضه.

إلا أنني، عوضًا عن ذلك، أعجبت بقصة لين حول عشاء تناولته مع

چارد في فبراير في مطعم هارولدز المطل على المحيط. فتقول: «أخبرته بأن ليس بإمكانه أن يرحلنا، إلا إن قدر على المشي ميلاً على الشاطئ». فقالت له: «إن استطعت المشي من هنا وحتى الرصيف البحري، فإنك مستعدٌّ للرحيل».

كان لينتهي أمره إن لم يفعلها. تعكز چارد قیامًا من كرسية المتحرك في ميرتل بيتش لمدة أسبوعين. ومن ثم تعكز فور تخلصه من العكازين على العصا فقدر على مشي ميل. احتاج الأمر إلى ساعة لكنه قام به.

كانت لين مصورةً فوتوجرافية هاوية وفي رأسها فكرة كتاب. طلبت من الناس أن يدونوا كلمةً عند طرف شاطئ المحيط الأطلنطي. طلبت منهم كتابة كلمة عما يودون تغييره في حياتهم. والتقطت الصور عند فيض المد على الكلمات وهو يمحوها:

«الشراب»

ما لم يَقُلْه؛ ما رفض قوله، كتبه على الرمال.

قالت أمه:

– حقًا؟

فقال:

– بلى.

ما قد رآته لين لأول مرة في غرفة المشفى في أريزونا من دون أن تسبر غوره، رآته الآن على الشاطئ، فأدركت الأمر برمته. رأت سلطة

الإدمان القوية، فعلى الرغم من رغبة چارد في التخلص من الشراب، لم يقوَ على مقاومته. وفي السابع عشر من فبراير للعام ٢٠١١ كتبت لين منشورًا لأصدقائها على فيسبوك:

ذهب إلى المرفأ في الأسبوع الماضي وهو مستعد للرحيل. احتاج مشيه من دون العكازين إلى بضعة أيام لكنه يبلي بلاءً حسنًا الآن. يخطط حاليًا للهروب! يبدو أن قضاءه ثلاثة أشهر طريح الفراش عند أمه هو كل ما بمقدوره تحمله. أود أن أبقيه، إلا أنني ليس بمقدوري أن أرغم شابًا في الثانية والعشرين على أي شيء. كل ما يمكن أن أفعله هو أن أكون بجانبه حين يحتاج إليّ. أشكر الجميع لدعمهم وطبتهم ودعائهم. لم نكن لنقدر، أنا وچارد، على خوض الأمر من دونكم.

هاتفنتي لين يوم أعلن أنه مستعد للرحيل عن ميرتل بيتش إلى نيو أورلينز. قالت:

- ليس ثمة ما يمكنني فعله لأثنيه عن رأيه، ذلك العنيد.

فقلت:

- ادعي له.

وفي الرابع من مارس، رحل چارد إلى نيو أورلينز. كان قد مكث في ميرتل بيتش ١٠٣ أيام.



إن الاختيار بين ميرتل بيتش ونيو أورلينز لم يكن اختيارًا أصلاً. قضى چارد ١٠٣ أيام في منزل أمه ساعدته على الشفاء، وكشفت له عن مدى اشتياقه لنيو أورلينز. وبالطبع كان يود أن يكون هناك، فهو نجم يسطع في سماء مجتمع الرخالة بالمدينة. هذا ما قاله عنه صديقه وحارسه الشخصي ناكلز^(١٨). كان ناكلز رجلاً ذا كتفين عريضتين، اكتسب لقبه من استخدامه لقبضته كي يُخلّص السكارى من حسهم العدائي. قال: «عندما يتكلم جوبلن، الكل يسمع».

في نيو أورلينز، لويزيانا، كان جوبلن يطوف في أرجاء الحي الفرنسي، وهو عالم منفرد يمتد بمحاذاة نهر الميسيسيبي، قلبه ينبض على أنغام موسيقى الجاز التي تنبعث من شارع بوربون. هناك يعلم الجميع كل شيء عن بعضهم: مَنْ يُضاجع مَنْ، وَمَنْ خرج من السجن، وَمَنْ على وشك الموت بجرعة زائدة. أسماه الأوغاد الحقراء هناك «الأميرال»، لكنني لم أعرف چارد، حفيدي، إلا باسمه. فتى خجول، دائماً ما يُحب المرح، ودائماً أيضاً ما يؤثر الوجود في خلفية الصورة. لكن ذلك تغيّر في نيو أورلينز. تغيّر بعد أن صار رخالة لسنوات. وبعدما عاد من ميرتل بيتش، صار زعيماً. صار جوبلن الأمر النَّاهي.

(١٨) مفاصل الأصابع، التي تبرز حينما يقبض الإنسان يده.

حدث أن رَحَّب جوبلن بفتى يُدعى «إدو» في مجتمعه. حكى لي الفتى ذو السبعة عشر عامًا قصته، قائلاً:

كنتُ جديداً في نيو أورلينز، وانتهى بي المطاف بأن فقدتُ وعيي في شارع بوربون، واستيقظتُ على الرصيف. لم أكن أعلم أين أنا، وأين ذهب أصدقائي، وأين اختفت أغراضي. كنتُ في أسوأ حالاتي. وما زاد الطين بلةً أنني كنتُ أعاني من أعراض الانسحاب. وذلك كله مزيج مزعج. تجولتُ في الحي إلى أن قابلتُ جوبلن في أثناء جلوسه مع فتاة تُدعى «أليكس تالنت».

أخذني تحت جناحه. طلب مني أن أجلس معهما وأنتظر. فجلستُ وشربنا معاً. في النهاية وجدني أصدقائي. معظم الفتيان في نيو أورلينز متعجرفون للغاية، لذلك تفاجأتُ عندما عرض عليَّ جوبلن أن أجلس معهما وأنتظر. كان تصرفاً لطيفاً للغاية، فقد كنتُ تائهة في مدينة لم تطأها قدمي من قبل، ومُفعمًا بالحيوية. وكما قلتُ سابقاً، حالتي كانت خطيرة للغاية، خصوصاً في مكانٍ خطير مثل نيو أورلينز.

لكن ذلك كان طبع جوبلن: دائماً ما كان يساعد أي رحالة.

شعار الأوغاد: «المساعدة دائماً في طريقك!».

بجانب مساعدته للجميع دائماً، قام جوبلن بتعميد جماعي.

أتى فتى يُدعى «أوستن هول»، يحمل جيتاراً، بعدما أوقف سيارة على الطريق كانت قادمةً من إلينوي. سمع أحدهم في شارع بوربون

يصيح: «تعال هنا يا هذا! مرحبًا بك، سنمرح معًا!». هذا ما قاله هول بنفسه، ثم أردف: «جلب ذلك العكاز معه إلى الحافلة من ميرتل بيتش، وبات يمشي به في الشارع كأنه عازف درامز كبير. ويومًا ما قُدنا مجموعة من السياح إلى ضفة المسيسيبي. كان جوبلن يرتدي تلك القبعة الغربية، وأخبرهم أنه واعظ متجول، وأنه سيعمدهم جميعًا في النهر. أجل، في مياه النهر الفظيعة تلك! سألوه إذا كان بإمكانهم الاكتفاء بوضع أقدامهم فيها فقط، لكن جوبلن قال: «كلا، يقول الرب إن عليَّ صب الماء على رؤوسكم». فسمحوا له بذلك، وكان عددهم نحو خمسة عشر شخصًا». كما أنه أقام حفل زفاف.

كان جوبلن يعرف العروس «سارافينا سكارليت». كانت تلعب الجيتار وتُغني أمام باب منزل كريستين مينارد، الواقع فوق متجر الخمر في شارع ديكاتور. طُبِعَت صورة لوجهها على علبة حليب لأنها هربت من منزل للفتيات في كاليفورنيا^(١٩). كانت سارافينا تحمل جيتارها إلى ممشى نهر المسيسيبي، وحانة تشيكوبونت تشارلي، والبقعة التي تجلس فيها القرفصاء بالحي الثامن. قالت كريستين: «صوت سارافينا ناعم وطروب، تُوظفه جيدًا بعزيمة وإصرار».

عرفها چارد، وربما وقع في حبها أيضًا، لأنه كان مهتمًا بالتعرّف على كل الفتيات الفاتنات. وإذا صح قول إننا نقع في حب النسخ المتشابهة مع نفوسنا، فهذا ينطبق على سارافينا، فهي فتاة تشبه دميةً مُنِحَت الحياة،

(١٩) في بدايات الثمانينيات في أمريكا، وحتى مطلع القرن العشرين، كانت شركات الألبان تطبع صورًا للأشخاص المفقودين (سواء من اختفوا ومن اختطفوا) على جانب علب الألبان.

ذات وجه ذهبي ناعم. لكن علاقتهما لم تكن علاقة رومانسية، بل ربما كانت أكبر من ذلك.

قالت: «أنا وجوبلن لم نتبادل القبلات، على الرغم من أن علاقتنا كانت قوية جدًا، حدّد أنها فاقت مجرد التفاهم. كان أكثر الفتيان لطفًا، من بين جميع من قابلتهم على الطريق، لم يكن سيئ السلوك، ولم يكن يُسبّب المتاعب. كان يحب فقط أن يكون محاطًا بالأصدقاء، ويستمتع بوقته، ويكون لطيفًا مع الناس. دائمًا ما كان يقابلني بحضن كبير، وكنا نضحك معًا طوال الوقت. وحتى بعدما صدمته السيارة، صار يطوف في الأرجاء بعكازه بحثًا عن مغامرة جديدة مع أصدقائنا. ومن ثم أطلقت عليه لقب «الشبح الطوّاف». ولو كان يكن لي مشاعر، فإنه لم يُصرّح بها مباشرةً، ولهذا كنت أواعد فتى آخر».

ذلك الفتى كان باتريزيو. شاب طويل، داكن البشرة، وغريب الأطوار. فجَمَعَ چارد الناس لزفاف سارافينا وپاتريزيو، وحدّد الموعد السابعة، والمكان في ميدان چاكسون، على الممشى المقابل لكاتدرائية سانت لويس.

أراد چارد موسيقى للزفاف، فدعا فتى إينوي الذي يُدعى هول. جمعا بعض المال في الشارع، وعزف هول على الجيتار، وغنى چارد أغنية «عابر السبيل الغريب»^(٢٠):

إنني محض عابر سبيل غريب

(٢٠) أغنية مشهورة لچوني كاش.

يجوب هذا العالم

لا مرض، ولا كدح، ولا خطر

في الأرض المشرقة التي أنا إليها ذاهب

تذكّر چارد ليلة الهالوين في رصيف الميناء، وتذكّر فتاة الماندولين؛
الفتاة التي تسافر مع ليندزي.

قال للحشد حينها: «أعلموا الجميع. أريد ماجي وماندولينها
الأخضر».

في ذلك المساء أتت ماجي إلى الكاتدرائية. احتضنها جوبلن
ورقصا معاً، وسرعان ما نسي أمر الماندولين كلياً. كانت ستراي محقة
حينما قالت له أن ينسى الهاربة في سان دييجو، لأنه سيجد مَنْ هي أفضل
في نيو أورلينز. والأفضل كانت ماجي. ستكون ثمّة أخريات، وسيظهرن
فيما بعد، لكن ماجي كانت الأمثل. رقصا تلك الليلة، وأخبرته أنها
ستغادر نيو أورلينز في اليوم التالي، لكنهما يجب أن يتقابلا مجدداً في
وقت آخر، ومكان آخر.

حضر الزفاف كل مَنْ لديه ولاء للأوغاد الحقراء. كان متعهّد الحفلة
رجلاً أنيقاً يرتدي زياً أبيض. بدا من بعيد كأنه يلبس بذلة توكسيدو
ثمينة، لكنه حينما اقترب اتّضح أن ملابسه البيضاء كانت محض قميص
طبّاخ ومريلة.

حضرت كريستين مينارد الحفل لكونها مؤرّخة لحياة أطفال
الشوارع، وأيضاً لأنها عطوف حنون، وهذا ما يهم. كادت تلقى حتفها

في حادث سير قبل سنوات. ومنذ ذلك الحين، صارت الحياة بالنسبة إليها مغامرة، كلما تجرأت على خوضها استمتعت. حضرت الزفاف كأم، وإلهة، ومحاربة، وأميرة ستنقذ العالم. كانت ترى جمالاً وجاذبية في حياة أطفال الشوارع الحرّة، كما رأت أن تلك الجاذبية تنبع من المخاطر الخفية التي تحفهم. لذلك، جعلت من بيتها بيتاً لهم حينما يحتاجون. أقامت سارا فينا مع باتريزيو هناك لبعض الوقت، وعاش معها بازلز المثير للمتاعب. وفي وقت الحاجة، كان چارد يمر أيضاً ببيتها.

في يوم الزفاف، لم تكن كريستين تعرف چارد إلا لأنه صديق بازلز؛ رحّل آخر تراه بين الحين والآخر. بدا چارد منهكاً في الصور الفوتوجرافية التي التقطتها في ميدان چاكسون. كان الأطباء في ميرتل بيتش قد أعطوه الإذن بالسفر، لكنهم ظنوا أن سفره مريح. لم يعلموا أنه يسافر بحافلة تقفز على الطريق. لم يمر على حادث چارد، الذي كاد يودي بحياته، سوى ثلاثة أشهر فقط. لكنه ظهر في جميع صور مينارد، على الرغم من إرهابه واتكائه على عكازه، أميراً ضحوكاً وفي أبهى صور سلطته.

لقد خلق چارد حياته الخاصة، حياة الرّحّال، سواء في البيت، أو في كل مكان، أو في اللا مكان. اختار أن يعيش في شوارع العاصمة، ثم تبع رياح النزوة أينما ذهب به. وبرفضه دعوى قضائية كادت تربحه ٦٠٠,٠٠٠ دولار، أضاع فرصة لإخراج نفسه من حياة محفوفة بمخاطر خفية ومميتة، مثل ظهور سيارة من العدم.

في أسبوع عودته إلى نيو أورلينز، هاتفته وقلتُ له ما سيقوله أي

شخص يحب مدمن: «أحبك يا چارد، لكن عليك أن تقلع عن الشراب،
وعليك أن تنتبه لنفسك». فردَّ بما سيقوله أي مدمن: «سأفعل ذلك يا
جدي. سأفعل ذلك. لا تقلق عليَّ».

كان يكذب، وكلانا عرف ذلك. لقد تحدث بتلك الطريقة فقط لكي
يخبرني بأنه يسمع صوتي. كان يعلم أنه إذا قال لي: «لا تقلق عليَّ» بعد
بضع دقائق، لكنتُ أدركتُ أن المكالمة انتهت.

أكثر شيء فعله چارد في أسفاره السُّكر، وكثيرًا أيضًا ما كان يوقع
بنفسه في مشاجرات مع أناس يوسعونه ضربًا. قال مايكل ستيشن، مرشد
چارد في فيرجينيا، إن الأخير «كان بمقدوره أن يوسعك ضربًا حريفًا إذا
عبثت مع أصدقائه»، على الرغم من نحافته وضآلة جسده. لكن قدراته
لم تطعَ على عيبٍ خطير: لم يكن يتصرف بدكاء في تلك المواقف،
وكان يقع في شجار مع أضخم الفتيان.

في صباح الخامس عشر من مايو، عام ٢٠١١، هاتفتني لين لتُعلمني
بنتيجة أحد تلك الشجارات.

قالت: لقد عاد چارد إلى المستشفى.

وكان قد غادر ميرتل بيتش قبل ذلك بثلاثة وسبعين يومًا.

- تلقَّى لكمة على وجهه، فسقط، واصطدم رأسه ببلاطة. يعاني
الآن من نزيف في المخ. قال الطبيب إن حالته خطيرة لكن مستقرة.
أتني ممرضة وسألني إذا كان لدى أي شخص توكيل رسمي من چارد.

وعندما سألتها عن السبب قالت: «إنها مسألة حياة أو موت، وعلينا أن نعرف ما يجب علينا فعله حيال ذلك». فقلتُ لها: «فقط أصلحي ابني، ما يهم الآن أن تصلحي ابني».

كان لا بد أن يذهب أبوه وأمه وجدته الذي تهمة صحة حفيده إلى نيو أورلينز، لأنها كانت «مسألة حياة أو موت». لا أدري لماذا لم نذهب، لكن ربما لأن الشجار ليس أمرًا خطيرًا كمثّل أن تضربك سيارة. أدركنا فيما بعد أن عدم ذهابنا إلى نيو أورلينز كان قرارًا خاطئًا. اقرأوا تقارير المستشفى هذه وابكوا.

مركز تولين الطبي

الاسم: چارد كندرد

تاريخ الميلاد: ٨ ديسمبر ١٩٨٨

تاريخ الدخول: ١٥ مايو ٢٠١١

وصف الحالة: هذا رجل يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، أتى بعدما تعرّض «للضرب». جاء عن طريق قسم الطوارئ. يذكر أنه كان في شجار وتعرّض لضربٍ عنيف، وأنه لم يُضرب بأي شيء إلا بقبضة اليد. كما يذكر أنه لم يغيب عن الوعي على الرغم من أنه سقط على الأرض عدة مرات. يعترف المريض بأنه شرب الكحول الليلة، وينفي تعاطي أي مخدرات.

بعد خروجه في السادس والعشرين من مايو:

أُدخل السيد كندرد وحدة العناية المركزة بعد تعرّضه للاعتداء وإصابته بكدمات ثنائية في الجزء الأمامي من المخ. إنه معروف بشربه للكحول، لكنه قاوم جيدًا أعراض انسحابه. أُعطي جرعات يومية من الـ«أثيان»، لعلاج الهذيان الارتعاشي، بالإضافة إلى فيتامين ب ١٢. أراد السيد كندرد في البدء أن يخالف المشورة الطبية ويغادر المستشفى، لكن الطبيب النفسي ألزمه بالبقاء. لم يواجه المريض أي مضاعفات، وصار سلوكه تحت السيطرة، ولم يتعرّض لاضطرابات عصبية. كما أظهرت الأشعة المقطعية أن ٩٥٪ من الكدمات قد تلاشت من دون حدوث مضاعفات.

تحسّن سلوك المريض كثيرًا، وذكر أكثر من مرة أنه يود الذهاب إلى باتون روج كي يضع حدًا لشربه للكحول^(٢١).

تعليمات الخروج:

يُمنع عنه الآتي: القيادة، ورفع الأثقال، والأنشطة الرياضية، والكحول لمدة لا تقل عن أسبوعين. أُخبر المريض بأنه سيخاطر بحياته إذا لم يتخلّص من سلوكياته المتعلقة بالشراب.

وكانت حياته بالفعل في خطر؛ قطارات وشجارات وفودكا! لو كان بإمكانه أن يفعل شيئًا حيال أول اثنين، فلن يستطيع أن يفعل شيئًا حيال إدمانه للكحول. كان يومئذ برأسه للأطباء ويقول ما يتوقعونه منه،

(٢١) باتون روج هي عاصمة ولاية لويزيانا الأمريكية، معروفة بقوانينها التي تمنع شرب الكحول في الأماكن العامة، حيث إن من يُقبض عليه حاملاً زجاجة خمر مفتوحة في الشارع يتعرّض للمساءلة القانونية.

بأنه -أجل- يخطط للذهاب إلى باتون روج، وسيقطع الشراب. لكنه بعد أسبوع من مغادرته المستشفى لم يذهب إلى باتون روج، بل كان يطوف في شارع ديكاتور، متكئاً على عكازه، في قيظ يوم صيفي بنيو أورلينز.

قالت كريستين مينارد: «أجل، ضربه أحدهم، فاصطدم رأسه بصخرة بجانب نهر الميسيسيبي، حيث يتجمّع مع أصدقائه لشرب الخمر. ربما سبب الشجار له علاقة بذلك. يحدث كل عام أن يظهر عدد كبير من المشردين الخطيرين للغاية، رجال ونساء، يحملون سكاكين ويعترضون طريقك ليطلبوا المال. إنهم مخيفون. كان جوبلن مذنباً وفي حالة من عدم الاتزان من أثر إصابة رأسه، كما أن مظهره كان بشعاً. طلبتُ منه أن يأتي إلى منزلي، لكنه كان ثملاً قليلاً وفتيان الشارع ضايقوه. ظل يقول شيئاً من قبيل: «المنازل للجبنة، وأنا لن أذهب إلى أي منزل».

بحث پازلز عن صديقه الذي كان يصفه بـ«أخيه الصغير» بمساعدة مينارد، ثم عندما وجده لفّ ذراعه حوله، ورفع في الهواء، وأدناه منه، ومشى حاملاً إياه إلى الباب الأحمر الواقع في ٩٠٧ شارع ديكاتور، وصعد به السلم إلى شقة مينارد، ثم ألقاه فوق أريكة جلدية ثمينة لن يبرحها لخمسة أيام بعد ذلك.

حكاية كريستين

في تلك الأيام الخمسة، حدثت لجارد تغييرات جذرية؛ مثل أنه اهتم بغذائه ونظافته، ونامَ كثيرًا. كان يقضي وقته فوق أريكة مريحة جدًا، وكان يُسمع، ويُقدَّم له الحب والاعتناء. كانت تلك مساحته المقدسة، ولم أكن أدري ما السبب حينها، ولم أسأله. فقط تركتُ الأمور تسير في مجراها الطبيعي.

ثم لم يعد ينام طوال الوقت، وتحسَّن لون وجهه. حينئذ بدأ يتكلم. وعندما تكلم، أدركتُ كم أحبَّ الحياة. كانت حكاياته مشكالية مليئة بالتفاصيل، وتنم عن خبراته، وجميعها مهمة بالنسبة إليه. كل ما حكاه وشى بحُبِّه للناس، وبعدد الاحتمالات المذهلة التي وضعها دائمًا، وبعدم رغبته في التوقف عن المضي قدمًا. لم يكن يريد المشكال أن يتوقف عن الدوران قط، بل أراد أن تظل الحياة مثل الأحجار المحترقة، تُشع للأبد.

كان يستيقظ يوميًا في الثامنة صباحًا تقريبًا، ويتجه مباشرةً إلى الحمام، حيث يتهوَّع، أو يتقيأ، ثم يتحسن. كان يقول: «أريد فقط قليلًا من الفودكا، وسأكون بخير». فأبتاع له نصف لتر من الناكا، وأحيانًا لترًا، فتكلفة ذلك في النهاية ٩ دولارات فقط. كان يشرب قليلًا، ثم أجبره على أكل الأومليت الذي صنعه پارلز، بالإضافة إلى جبن الماعز وغيرها من الأطعمة الشهية. كنتُ أتأكد من أنه يأكل جيدًا، وأراقب الشوكة وهي تدخل فمه كاملة. وعندما يقول له پارلز: «جوبلن الصغير يُطعم الآن»، يرد قائلًا: «تبًا لك يا پارلز»،

ثم يضحكان.

تحدثت معه كثيرًا عن الاحتمالات المستقبلية لعيش حياة مستقيمة. أعرب لي عن رغبته في العمل بيديه. فأخبرته أنني أريده أن يكتب قصصًا عن حياته ومغامرات أسفاره. كان خفيف الظل، ولطيفًا، وسهل الإرضاء، ومختلفًا. لقد أحببته كثيرًا.

كان يتحدث عن طفولته بتفاصيل دقيقة يتذكرها كلها جيدًا، مثل: الزمان والمكان، والطقس، والتلال والأشجار، وما قاله شخص وما ردَّ عليه به آخر. حكى لي عن قيادته للدراجة في الحي وكيف كان يحب إحساس الرياح على جسده، الذي أظن أنه يُماثل ما كان يشعر به على متن القطارات.

في ذلك الوقت، كان بيتر بان العظيم بالنسبة إليّ. كان قد صنع لنفسه عالمًا أحبه ولم يُرد مغادرته قط. أما العالم الآخر فكان باردًا وقاسيًا. لقد أراد أن يمكث في مكانٍ يكون فيه نفسه، وليس ذلك الشخص الذي ينتظر الجميع منه أن يكونه. قال لي إن في ذلك العالم الآخر، يجدر بالمرء أن يحظى بوظيفة، وسيارة، ومنزل، وإلا سيراها الناس بلا قيمة. إننا بحاجة إلى مزيد من الأطفال الذين يملكون الجرأة الكافية لأن يقولوا لذلك العالم الآخر: «نحن لا نحتاج إليك، ونستطيع أن نكون سعداء من دونك».

نحن بحاجة إلى مزيد ممن يشبهون جوبلن، لا أقل.

كانت كريستين انتقائية في اختيار اهتماماتها، وكان لديها شغف تجاه مشاهدة الرجال الذين يضربون بعضهم بعضاً من أجل لقمة العيش، أو بمعنى آخر، الملاكمين المحترفين الشباب، الذين صوّرتهم في صالة ملاكمة بنيو أورلينز. قالت: «عندما عرف چارد ذلك، أخبرني بحماس أنني يجب أن أتحدث مع جده عن محمد علي»^(٢٢).

قابلتُ علي لأول مرة عام ١٩٦٦، وغطيتُ عشرًا من مبارياته في بطولات الوزن الثقيل. وفي عام ٢٠٠٦، كتبتُ سيرة ثنائية عنه وعن هوارد كوسيل. لكن ما يهم أنني اعتدتُ أن أحكي للصبي قصصًا قبل النوم، عن صبي آخر يُدعى «كاسيوس مارسيلوس كلاي الابن»، الذي كبر ليصبح علي.

هاتفني چارد في صيف عام ٢٠١١، وقال لي: «كريستين تود رؤية صورتك مع محمد». في تلك الصورة، كنتُ ممسكًا بمفكرتي وأشاهد علي في أثناء تأديته لتمارين الإحماء قبل مباراة. أرسلتها لچارد، وبعد مرور ثلاث سنوات بكل ما وقع فيها من أحداث، وجدتُ أنه كان يحتفظ بها.

كنتُ أنظر إلى زجاجة الفودكا الخاصة به، وأشاهده قبل أن يذهب إلى الخارج، قبيل الحادية عشرة صباحًا، وهو يأخذ منها رشفتين ليس إلا. لم أكن خبيرة، لكن ما استنبطته أن أعراض الهذيان الارتعاشي

(٢٢) الإشارة هنا إلى محمد علي كلاي، أشهر ملاكمي العالم. لكن المؤلف سيكتفي بذكر «محمد علي» فقط، أو «علي»، وسأحتفظ بنفس الأسلوب.

كادت تقتله، ولذلك أراد أن يترك في جسده قليلاً من الكحول. جعلته يأكل، حتى لو قضمات طائر رضيع. وصار أكثر نظافة، ممّا جعل پازلز يقول إنه لم يره هكذا من قبل. كان جوبلن النظيف حُلُو المظهر، له ملامح وسيمة هادئة وعينان زرقاوان. لذلك أحبّته جميع الفتيات.

وأصبحت تصرفاته مثالية، فإن دق أحدهم الباب، وكنتُ مشغولة، كان يجيبه، ويُعرِّفه بنفسه، ويطلب منه الانتظار لحين أن أحضر. كان مهذباً للغاية، ويحب الناس. ومن دون ذلك الوشم الأزرق في وجهه، والوسخ الذي يغطيه، لكان له شأن آخر. ربما أصبح رئيس جمعية ما، أو قائد أسرة جامعية، أو مسؤول أحد القطاعات. لقد كان دائم التحمُّس والتفاؤل لأي حدث قادم.

تحدثنا أيضاً عن القفز على القطارات. أخبرني أنه كان يفعل ذلك من أجل المرح، ولكي يذهب إلى وجهةٍ ما. كان يحب القيام بذلك، وأخبرني عن «دليل المشرّدين» الذي ترد فيه مسارات جميع القطارات، ومدى تعقيدها، والأماكن المناسبة لوضع الحقائق، وجميع المعلومات الكافية التي ستساعدك على القفز من القطار. حكى لي أيضاً عن الشعور الذي يراوده حيال الذهاب في عطلة، وأي طعام وشراب وأدوات إشعال نيران التدفئة التي يصطحبها، والخوف من الشاحنات التي تُطاردك، وروعة المغامرة، والمظاهر الطبيعية، والتحديات، والاعتناء بالآخرين، والاختباء من الثيران.

كان الاستعداد للقفز على قطارٍ مصدر نشوة لجوبلن، على الرغم من علمه بمدى خطورة الأمر. فقد جرّ قطارٌ سارافينا سكارليت بعدما

تعلّقت ساقها به حينما لم تستطع القفز على متنه، لكنها عاشت، لأن الحظ حالفها وتحرّرت ساقها قبل أن تسقط تحت القطار. وكانت ثمّة أخطار أخرى أيضًا، مثل: تعاطي المخدرات والكحول، والإصابة بأمراض الكبد، ولكّما الأشرار. إن الخطر بالنسبة إليّ هو شيء يوازن عشق هؤلاء الفتيان لحياة التشرد والقفز على متن القطارات.

وبعدما غادر جوبلن شقتي، وانضم مجددًا إلى عرابدة الشارع، كان كلما يراني يُلوّح لي بحماس، ويهرول بضع خطوات ثم يقفز ويعرج. فكنتُ أركض إليه، فيحتضني كأنه لم يرني منذ عشرين عامًا. وإذا انضم شخص جديد إلى الفتيان، كان يُقدّمني إليه، أو إليها، قائلاً: «هذه كريستين، السيدة التي أخبرتك عنها».

كان يجلب الفرح معه دائمًا أينما ذهب، بجماله الأخاذ، الأنثوي إلى حدّ ما، وملامحه المثالية: من شفّتين وأنفٍ وعينين. عندما حلّ الصيف، تبدّل لونه من الذهبي المتوهج المائل للبيّني، إلى الوردي. وكانت له بنية عضلية قوية، لا يبدو عليها الضعف، مثل ديك البانتام.

إنه صغيري جوبلن، الذي اعتاد أن يجعل قلبي يقفز من فرط الضحك، والحب.



تنمو القصص ببطء، بتفصيلة هنا وأخرى هنالك. فيجد الراوي، في بحثه عن شيء آخر، صورةً فوتوجرافية ووثيقة وبضعة سطور من يوميات منسية. ولا يرى، فيما ليس يعترف به، من الوهلة الأولى ما انفرد أمامه. بل يرى قصته فيما بعد حين يكون قد حكى أجزاء منها مرارًا وتكرارًا، حتى يصغي أخيرًا للطريقة التي تترابط بها تلك الأجزاء. فلم يأت ذلك إلا متأخرًا في الحكى حينما أدركت أن الأوقات العصيبة التي قضاها جارد في الطرقات تزامنت مع أيام أُمي الأخيرة فيدار المسنين، لذا يجب عليّ أن أحكي قصتها.

ابنتي والدي منزلًا صغيرًا من طابقين بحذاء سكك حديد إلينوي المركزية. وحين أقول حذاء السكك الحديدية أعني أنه لم يفصل بين البيت والقضبان سوى مدق ترابي. كانت غرفة نومي في الأعلى. كنت أتسلق إلى سقف المدخل عبر النافذة منسلًا، إذ أحمل منظرًا صغيرًا في جيب الخلفي في حين تحتك ركبتاي وكوعي بالحائط الخشن، عبر السقف المنحدر متكئًا على المدخنة أبحث عبر منظاري عن الأماكن البعيدة. أردت معرفة ما كان هنالك. فكان بمقدوري رؤية ماكلين، وهي قرية تبعد ثلاثة أميال شمالًا. يقع مسقط رأسي أتلانتا في ولاية إلينوي، بتعداد ١٦٠٠ نسمة بحذاء الطريق ٦٦ الشهير، الممتد في الجانب

الآخر لخطوط السكك الحديدية. كان قطار العاشرة وعشر دقائق يرج غرقتي. في أحيان كنت أتخيل نفسي رجلاً خارقاً أسرع من جرار القطار المسرع. وليلاً ترج القطارات المارة سريري كالرعد المباغت. إذ يمر القطار بنافذتي ثم يختفي في الظلام، فكان بإمكانني سماع صافرته من مرأب القطارات، حيث يقطع حدود المدينة متجهاً إلى وجهات لست أعرفها. قال أبي إن تلك القطارات تعبر إلينا من شيكاغو.

فقلت:

- أين هي شيكاغو؟

قال:

- يلعب فريق كابز هنالك.

ظننت أن الأمر سيكون مرحاً إن قفزت على متن إحدى القاطرات المصفحة كما كان رعاة البقر يفعلون في الأفلام. لم يكن الأمر أنني أردت الذهاب إلى شيكاغو، أينما تقع. بل أردت أن أكون في مكان آخر في مكان ناءٍ، أبعد حتى مما يدركه منظاري. أردت أن أكون كممثل چارد قبل چارد بذاته بكثير.

تتوقف القطارات بالنهار عند المرأب في أتلاتتا، حيث يقفز الرجال من مؤخرة القاطرات المصفحة. علم العمال المهاجرون، في الأربعينيات، أنهم إن تسللوا إلى السكك الحديدية عبر المدق الترابي وصولاً إلى ذلك المنزل الأبيض ذي الطابقين الذي تصطف أشجار التفاح في باحته الخلفية، فستكون ثمة امرأة محبة بانتظارهم بشطائر

الجبن ملفوفة بورق الشمع، أو ملفوفة، إن كان قد نفذ منها الورق، بكيس الخُبّ ذاته. وتناولهم المرأة، قبل الرحيل، كيسًا بنيًا ليحملوا التفاح رجوعًا إلى القطار. وربما كان هذا ما حدث على طول طريق إلينوي الحديدي الرئيس. أفضّل أن أعتقد أن أمي هي فقط من كانت محبةً للاعتناء بالعمال المهاجرين، لإعطائهم ما يأكلونه حين سلكوا الطريق الحديدي بحثًا عن العمل اليومي.

تذكرت بعض ذلك، وأخبرتني أمي ببعض الآخر في أحد الأيام من مايو للعام ٢٠١١- حين حُمل جارد إلى مشفى أورلينز، حيث قيل عنه إنه في حالٍ خطيرة لكنها مستقرة إثر تعرضه لإصابة في الرأس في خضم عراك في الشارع.

كانت أمي في الرابعة والتسعين من عمرها وتعيش في بيت للمُسنين في مورتون، إلينوي. عدت أنا وشيرل، بعد غياب خمسة وأربعين عامًا، إلى البيت. ليس بوسعي القول بأن قرار الانتقال من فيرجينيا إلى إلينوي قد أذهل أصدقاءنا فحسب، لأنني شعرت أيضًا بالشفقة من جانبهم.

قالت چين واينجاردن، الحاصلة على جائزة بولتزر مرتين، لصحيفة واشنطن بوست: ستذهبون نحو شيكاغو الأمريكية، أمل ذلك، لا إلى إحدى القرى الكريهة. فتساءل حتى طبيبنا البيطري للخيل، المولود في نيوزيلندا، لمَ قد يختار أحدٌ طوعًا ترك السهول الياقة لفيرجينيا لصالح المناخ القطبي المداري لولاية مفلسة مهجورة اعتاد حاكموها على أن يُزج بهم في السجن. قالت: فيمَ أخطأت؟

كانت كل مرة من انتقالاتنا -من إلينوي إلى كنتاكي ثم واشنطن؛

العاصمة ثم جورجيا ثم فيرجينيا- انتقلاً للعمل. إلا هذه المرة فقد كانت لسبب أفضل. كانت أُمي تحتضر، فشعرت برغبة بقلبي في أن أكون بجوارها. كانت أختي ساندي هناك بعائلتها الكبيرة الرائعة، من الأبناء والأحفاد وأبناء الأحفاد. كان الوقت قد حان للتلاحم. كان أبي قد مات قبل ثمانية وأربعين عامًا مضى في الواحدة والخمسين من عمره. وحين حان وقت أُمي لترحل عنا، أردت أن أكون بجانبها.

كانت قاسية وذكية. لسنين كانت تقول: «إني مثابرة»، وقد أثبتت قولها يومًا بيوم. إذ كانت قد بلغت الرشد في وقت الكساد العظيم، فأمنت أن العمل هو الحل لكل شيء. فلم يكن ثمة سواها، في الخمسينيات، في موقف حافلات ديكسي في ماكلين - إذ كنت أقدر على رؤية سطحها من سطح منزلنا - يُقدّم العشاء للأمريكيين الأفارقة. فقد كانت تعمل نادلّة حين قدمت الطعام إلى لويس أرمسترونج وفرفته للجاز، حين قادوا السيارات من سانت لويس حتى شيكاغو على طريق ٦٦. فتقول أُمي: «أنقذني لويس خمسة دولارات بقشيشًا، وأخبرني أن أحرص على أن أوجد في العمل في الأسبوع التالي، لأنه سيكون عائدًا من الاتجاه الآخر». وقامت، بعد خمسة وعشرين عامًا في منشأة حكومية لغير القادرين ذهنيًا، بدور بطولي مع الأطفال والبالغين الذين احتاجوا إلى بطة مثلها كل يوم. أسمتهم «أطفالي».

قال عنها طبيبٌ، قبل أن أجلس معها بشهر فيدار المسنين، إنها بعيدة كل البعد عن الاحتضار. عانت من الحمى أو الالتهاب الرئوي أو البرد السيئ أو ما شابه، مما تركها ضعيفة. وبمرور يومين في المشفى

أصبحت شديدة الهزال، وتحجر وجهها وفغرت فاهها ومثلت للموت. سألت الطبيب: «ما بها؟ لم تكن على ذلك السوء حينما جاءت». لست أذكر مما قاله الطبيب سوى: «إنها تحتضر».

بشكل ما أو بآخر تركت أُمي المشفى لكي تنتقل إلبدار المسنين التابع للكنيسة الرسولية. كانت قد عاشت مع ساندي السنين الثماني السابقة لذلك، إذ مقتنا فكرة إلحاقها بدار المسنين. أعطوها غرفة مشتركة مع امرأة لم تلقها من قبل تُدعى «لينا فينيري»، بالغة من العمر ستاً وتسعين سنة. وكانت لينا كذلك هزيلة في خلال إقامتها في المشفى حد الموت.

ومن حسن الحظ أن فاقت أُمي ولينا كل التوقعات. إذ ظهرت المرأتان التسعينتان، في صورة فوتوجرافية التُقطت في عيد الأم، مرتديتين القبعات الحمراء وتتفجران ضحكاً، وأُمي في يسار الصورة: «ماري ماجدلينا مالوني كندرد تشيك». ضاقت أجفانها إلا أن السعادة أشرقت ساحتها. وفي يمين الصورة «لينا سكاردلو فينيري»، وتقف خلفهما بنتاهما «ساندي ليتفلر» و«روز ماري ديتويلر».

ظننا في الثاني عشر من أبريل للعام ٢٠١١ أن أُمي ستموت قريباً. إلا أنها مشت، بعد ستة عشر يوماً، فبدار المسنين منفردةً لخمس دقائق. لم تكن تخطو نحو نهاية حياتها، بل كانت على مشارف بداية جديدة. دَوَّنتُ الملاحظات، كدأب المراسلين، عن عودة أُمي إلبدار المسنين:

تقول أُمي الآن إنها تتسكع حولدار المسنين كثيراً، حد أنهم «دوماً ما يبحثون» عنها! تحرك الكرسي المتحرك برجليها.

فتقول بصوت ليس يعد حاداً: «أقدر أن أفعل أي شيء من كرسي المتحرك هذا، مثلما يقدر أي أحد على فعله».

فحص معالجٌ قدرة أُمي على مضغ الطعام وبلعه. سألها المعالج: «أبمقدورك السعال؟»، إلا أن سمعها الضعيف لم يسمعها، فقالت: «بالتأكيد، إنني أتكلم دائماً».

تقول أُمي عن أبي: «لم يَزُر طبيب الأسنان أو الطبيب يوماً، قال إن الله قد خلقه هكذا، وهكذا ظلّ، هذا الرجل المسكين».

قالت: «عليّ الذهاب حيثما تقودني الحياة»، حركت يديها كسمكة تسبح في جدول، «لأي مكان».

«ليس العمر على شيء، الحياة هي الأهم».

«ما زلت هنا، صدّق أو لا تصدّق!».

كانت أُمي ولينا قويتي الشكيمة. فكلتاها كانت ابنة عامل منجم فحم. فعملت أُمي في حانة أمها، وكذا أدارت لينا وزوجها حانتهما. وعاشت المرأتان كلتاها حياةً لم تتخيلا عيشها. خاضتا الكساد العظيم، ونجتا من الحربين العالميتين الأولى والثانية. شهدتا مشي رجل على القمر، وأنجبنا أربعة أبناء أنجبوا ستة عشر حفيداً، واثنين وثلاثين ابنَ حفيدٍ.

ولم تقدر أيُّ منهما على سماع شيء. إذ رفضت أُمي استعمال أجهزة السمع، فأعتقد أن تلك لم تكن مشكلتها، «يحتاج الناس فقط إلى أن يرفعوا من أصواتهم!». واستخدمت لينا أجهزة السمع لكنها لم تشغلها إلا لماماً. ذلك أن كلاهما استطاعت، كفعل السحر، معرفة

ما تقوله الأخرى. فتواصلتا عبر توارد الخواطر الروحي، من الغمزات والهمسات والضحكات والابتسامات ومسك الأيدي والقبلات على الجبين. لم يفهم أحد كنههما، فلم نأبه كثيرًا حين شاهدناهما بذهول حين تبادلتا، تلكما المرأتان الهزيلتان المحتضرتان، القوة. فأضحكت لينا أُمي، وأخذت أُمي الأمر على عاتقها؛ أن تعتني بلينا وأن تكون بطلة لكل مَنْ في المكان، إذ كان بعضهم أكبر منها، لكنهم لم يكونوا أكبر من أن تعتبرهم أبناء لها في حاجة إليها.

فأخبرت امرأةً على العشاء تلك الليلة فيدار المسنين:

- عليك أن تجدي طريقة لتناول الطعام، ليس بالإمكان النظر إليه فحسب.

وأوضحت أُمي:

- هكذا.

بيدها اليمنى إذ أسقطت الملعقة في طبق من حساء كريمة الذرة، ومن ثم تقربت منها وأخذت بيدها اليسرى يدها اليمنى. وبيدها اليسرى رفعت يد المرأة اليمنى لتوجّه الملعقة إلى فمها.

قالت:

- أرايتِ؟

كانت سنوات أُمي فيدار المسنين في رستمور تأكيدًا منها على الحياة.

فضحكت يومًا حين قالت:

- يسألني الجميع عن عمري، ولست أعلم.

إلا أنها ضربت على جبينها وقالت:

- دماغي لا يسع هذا.

علمت أن المشكلة لم تكن حول عمرها، بل حول بلوغه النهاية.

فقال بقوة:

- حين أكون عجوزًا كفاية حد الموت، سأموت.

لم ترَ داعيًا للقلق، عرفت كيف تتعامل مع الأمر. كانت لتعيش حياتها، إلى حين تقدمها في السن كفاية للموت، طولاً وعرضاً. إذ يتأتى الموت لبعضهم على جناح من الصمت والخوف والأسى، لكن ليس لأمي. إذ كانت، حين احتضارها، تضحك وتعلم الأطفال كيف يأكلون الذرة.

لم أكن متأكدًا إن كانت تذكر ابن حفيدها چارد. إذ لم تره إلا مرة واحدة حين كان طفلًا. وفي الخامس عشر من مايو للعام ٢٠١١، أخبرتها أنه كان في المشفى في نيو أورلينز.

سألت:

- ما الذي يفعله هناك؟

- يعيش متشردًا في الطرقات، هو ممن يُطلق عليهم «القافزين فوق

القطارات».

فاستوت أمي في كرسيها المتحرك وقالت:

- أتعني كمثّل العمال المهاجرين؟

ومن ثم شرعت تحكي قصة شطيرة الجبن.

إن بعض الصدف عصيةٌ على الشرح. فقال أحدهم منذ زمن بعيد إذ خانه التفسير: «إن الصدفة هي طريق الله للعمل المجهول». إن صح ذلك - ولم لا يصح؟ - فإن حديثي مع أمي قد جلبنا إلى مجال الصدفة. لربما لأنني وددت أن يكون الأمر كذلك، فقد قررت أن تكون قصة أمي قد أوصلتنا بعضنا ببعض. ابتنى أبي منزلنا حذاء السكك الحديدية المؤدية إلى نيو أورلينز. وكانت تحضر شطائر الجبنة للعمال المهاجرين، وكنت أتسلق سطح المنزل لأن فطرة الرحالة تجري في دمي. وكانت القطارات تهددني حتى النوم مثلما فعلت مع چارد. إذ وعدتنا بأخذنا بعيداً من حيث كنا إلى حيث نود أن نكون - ليتنا كنا نعرف أين يكمن هذا المكان.



قضى چارد شهرًا في شقة كريستين قبل أن يأتيه نداء التحرك. في ذلك الوقت، كان پازلز في السجن لأنه قفز في نهر الميسيسيبي ليسبح في الصباح. كتبت كريستين: «عندما خلق پازلز الفوضى، كان بذلك قد استدعى آلهة الفساد، وأرواح الخداع، وأقام حفلات عريضة باخوسية، وسعى بكل الطرق الشرعية وغير الشرعية للوصول إلى أهدافه. كان يشمل علناً، ويُخرّب المرافق العامة التي تتناثر على الخريطة الأمريكية. في حانة يجتمع فيها المثلثيون، اعتاد پازلز التردد عليها، هزَّ عجوز يُدعى «كورنر بوك» رأسه عندما رأيته معه، وابتسم قائلاً: «إنه فتى شرير، حقاً شرير».

وبعد خروجه من السجن، اجتمع ذلك الفتى الشرير بجوبلن ليصطحبه في رحلة. أوفقاً سيارة متجهة إلى نيويورك، ثم قضى چارد صيف عام ٢٠١١ نومًا في شرفة المراقبة بممر في منطقة كوني آيلاند. كانت ثمة فتاة، بالطبع فتاة أخرى، فهذه هي الحال دائماً مع جوبلن، الذي يبحث باستمرار عن الحب كأنه لم يعرفه من قبل. كانت تبلغ من العمر التاسعة عشرة، أصولها تجمع بين فرنسا وپورتوريكو، طويلة القامة، وداكنة البشرة، وحسنة الملامح. أسمت نفسها «سولزي تويتش لبيوي»، والحق أنها كلمات عذبة الوقع على نفسي، حدّ أنني لم أسأل

لماذا اختارتها لنفسها. أو ربما لم أكن أهتم، لأنها زادت الفتاة التي عرفها جوبلن غموضًا، لمّا كانت معرفته بالفتيات تجعله يشعر بالسعادة.

قضّت الفتاة عامًا بالجامعة، قبل أن يُنهي ذلك العام تعاطيها للمخدرات. قالت: «بدلاً من أن أعود إلى المنزل، ثملتُ حتى تكوّرتُ فوق الرصيف المقابل لمتجر كي مارت في شارع أستور پليس. ومنذ ذلك الحين عاشت في الشارع. وعندما قابلت اثنين من الفتيان الرحّالة القادمين من نيو أورلينز، وهما جوبلن وپازلز، كانت في مانهاتن.

قالت سولزي: «سألني جوبلن إذا كنتُ أرغب في الذهاب معهما إلى كوني آيلاند. فأجبتُه بنعم لأنني وجدته جذابًا».

كانت لها وجهة نظر أخرى بخصوص وشم وجهه الذي أصاب أمه بالحزن. قالت: «كان رائعًا بالطبع، ودائم الانجذاب للجميع، لأنه خاطب كل الفتيات اللاتي مررن به. أحببتُ عينيه، وابتسامته، وذلك الوشم المبهر الذي رسمه على وجهه. كان أيضًا خفيف الظل، ودائمًا ما ينجح في إضحاك الناس. ولم يكن يشعر بالإحراج من أن يُغني أغنيات قد تدفع الآخرين لأن يسخروا منه، مثلاً فقد غنّى لي بضع أغنيات سخيفة لفرقة بليנק-١٨٢. لم يكن أيضًا يخشى الرقص في أي مكان، أو أن يقوم بتعبيرات مضحكة، أو يصدر أصواتًا بلهاء. كانت السعادة جزءًا أصيلًا منه».

ولأنها كانت مهتمة -ولو قليلاً- بما يدور حولها، وأيضًا لكي تتذكّر ما حدث في أيام كوني آيلاند البعيدة، اشترت سولزي مفكرة، وكانت تستخدمها كلما أرادت أن تكتب شيئًا، مثلما ذكرته عن چارد/

جوبلن: «في أول ليلة قضيناها معاً، مارسنا الجنس في ملعب رملي. أخبرني حينها بأنه يشعر بألم في الجزء السفلي من بطنه. مرّت حينذاك تسعة أشهر على العمليات التي أجراها في أريزونا». أردفت: «لمحتُ ندبة كبيرة أسفل سُرّة بطنه، فقَبَلْتُها بحنان. ومنذ ذلك الحين، صرنا معاً في كل لحظة».

أضحّت المقصورة بيتاً لهما. كان السياح يتوقفون ليلتقوا صوراً للجماليات النائمت، ليس فقط چارد وسولزي، فأحياناً ما كان يتكوم عشرات الفتيان والفتيات هناك. كانت تشبه معرض سلع، مليئة بالأغراض المعلقة في الأركان، معظمها آثار التَّقَطّت من حول الجزيرة، وُحِمِلَتْ إلى هناك على أنها نصب تذكارية لعصرٍ ما. قالت سولزي: «كنا نزيّنها ونحن ثملان بأي شيء نعثر عليه. لهذا السبب كان ثَمّة حصان من الملاهي معلق على إفريز المقصورة».

في وقتٍ متأخر من إحدى الليالي، جالت بذهنهم فكرة اقتحام ملهى لونا پارک، وهو أحد الملاهي الثلاثة بالجزيرة.

قالت سولزي: «عندما مشينا على الرصيف، لم نكن نبحث عن طريقة للدخول، لمّا قابلنا سوراً صغيراً كان سهلاً علينا تسلقه».

كان پازلز وصديقه كيتلن متواطئين.

تُكْمِل سولزي: «پازلز كان أطولنا، ولذلك تسلّق أولاً من دون أن يواجه أدنى مشكلة. ضحكْتُ أنا وجوبلن عندما حاولت كيتلن الانضمام إليه، لكنها كانت ثملة حدّ أنها لم تستطع الارتفاع لأكثر من قدمين عن مستوى الأرض».

وفورَ أن وطئت قدمي سولزي أرض الملهي، طلبت من چارد أن يقفز. لم يزل كما هو «جوبلن الطواف»، ولذا... «نظر إليّ كأنني مجنونة، وهزّ رأسه، ثم أطلق ضحكته الجميلة تلك. فتفحّصتُ أنا وپازلز اللعبة التي تلف العربات بسرعة فائقة في دوائر مع أنغام الموسيقى الصاخبة. وعبرتُ الحواجز راكبةً إحدى العربات، ثم انتظرتُ أن يعرف پازلز كيفية تشغيلها».

وإذا بها تسمع جوبلن يقول: «وكيف ستخرجان منها؟ هل قفزت من قطار يمشي بمثل سرعة هذه اللعبة عندما تبدأ في الدوران؟».

عندما تكلم بلغة يفهمها من يقفزون من القطارات، اختار پازلز أن يتعقّل، ومن ثم عاد الثلاثة إلى المقصورة، آمنين، ومن دون أن يتأذى أحد منهم. وباتوا يضحكون مما قد يفعله الصبية تحت تأثير أي مخدر يتعاطونه في أي وقت.

حكاية سولزي

لم يكن جوبلن ذلك الشخص الذي يدفعك لأن تهابه، بل كان سكّيراً بإمكانك اللهو معه. كان هادئاً، ولا تخيفه شخصيته التي كانها. ولم يزعجه العرج في مشيته الذي تسبّب فيه الحادثة، بل إنه صار يرتدي سراويل واسعة جداً. فصار يعرج، ويقع سرواله عن خصره، فيرفعه. كان مظهره مضحكاً، لكنه جذاب.

كانت ثمّة طبقات كثيرة بداخله. دار بيننا نقاش مفصّل عن

الأطفال، فقد كاد يُنجب طفلاً في نيو أورلينز، أو هذا ما سمعه، رغم أنني لا أعتقد أنه صدّق ذلك. ثمّة أمر أثار إعجابي به، وهو أنه مدمّن لا يُفضّل مصدر نشوته عليك. لقد كان سكيراً عريداً، يعشق شرب الكحول، ودائم الحاجة إلى القودكا، ذلك السم الذي اختاره من بين جميع السموم. لكنه لم يُفضّل مزاجه على أصدقائه، ومن بين المدمنين لن تجد مَنْ يفعل ذلك إلا القليل.

كنا نشرب طوال الوقت، حتى صرنا مريضين من دون أن نعلم. قالت لي صديقتي المقربة كيتلن ذات يوم: «إنكما تنامان كثيراً»، فوجدتني أقول في نفسي: إنني لا أريد أن أفعل شيئاً، باستثناء السُّكر والنوم. العديد من الناس يربطون بين النوم الكثير وتعاطي الهيروين. لكن من خلال معرفتي بچارل، فإنه لم يكن يتعاطى المخدرات، إطلاقاً، فقط التزم بشرب الكحول.

هذا ما في الأمر؛ تصبح مدمناً وتظن أنك ممسك بزمام الأمور. عندما كنتُ أسكر، كنتُ أشعر أنني ملكة هذا العالم. أجل، تظن أنك تُمسك بزمام الأمور، لكن الحقيقة هي أن الإدمان هو مَنْ يمسك بزمامك، أو بمعنى آخر: ستعيش فقط لتحظى بكأسٍ أخرى.

يستيقظ چارد، يتقيأ، يبصق دمّاً أحياناً، ينتابه شعور سيئ، ويذهب لإحضار المال كي يبتاع زجاجةً جديدة من متجر الخمر. لم أسمعه من قبل يقول إنه يودُّ الإقلاع عن الشراب. إنه فقط لم يكن مهتماً، فهذا كان مصدر سعادته.

لقد قلتُ سابقاً إنك لا يجب أن تخاف من جوبلن، وهذا صحيح،

لأنه كان لطيفاً، لكنه -مثلنا جميعاً- كانت له لحظات غضب،
مثلما حدث في ذلك اليوم الذي تشاجر فيه مع كيتلن.

كانا يتشاجران بين الحين والآخر منذ أن صرنا معاً. وأحياناً ما يصعب تهدئة كيتلن. ذهبْتُ لأتحوّل برفقة بازلز، وعندما كنا في طريقنا للعودة سمعنا جوبلن وكيثلن يصيحان. كان يدعوها بالمرعجة، فهددته بأن تلكمه في وجهه. قفزْتُ أمامه عندما انقَضَّ عليها. طلبْتُ منه أن يهدأ، وأخبرته أنه من الأفضل أن يُبعد يديه عنها. تجمّد مكانه لبضع دقائق، فبدأ أنه لن يؤذيها. عندئذ اصطحبتُ كيتلن إلى الجانب الآخر من الممر.

وفي صباح اليوم التالي، اعتلّت ملامح الحزن وجه جوبلن. احتضنني وأخبرني أنه مشتاق إليّ. وددتُ لو أذوب بين ذراعيه وأن أبقى هكذا، لكنني وقفتُ صامدةً، فعلى الرغم من جماله وجاذبيته، فإنه كان على وشك أن يضرب فتاة.

استيقظتُ صباح اليوم التالي لأجد ركبتي ممتلئتين بخدوش بشعة. لم أذكر شيئاً، لكن كيتلن أخبرتني أنني تشاجرتُ مع جوبلن، وأن أناساً آخرين قد تدخلوا في الأمر. لكنني أعتقد أن كل شيء انتهى على نحو جيد، لأننا عدنا معاً إلى مقصورتنا الصغيرة الدافئة، حيث نام جوبلن بجانبي، وبات يشخر بهدوء.

ثم جاء الإعصار؛ إعصار آيرين الذي ضرب بروكلين في التاسع والعشرين من أغسطس عام ٢٠١١. حينئذ تخلّى الجميع عنا. كانت الرياح عاتية، وكان جوبلن يكره المطر، لذلك صار يتذمر لَمَّا حاولت كيتلن إيقاظنا. أما أنا فكنْتُ ثملة جداً ولم أقدر على

التحدث معها، فانزلتُ إلى صدر جوبلن واستكملتُ نومي، إلى أن أراحونا عن كوني آيلاند وأعطونا رحلة قطار مجانية إلى المدينة.

لم نخطط لأن نمكث في مأوى للمشردين، لكن -تباً- تلك الليلة كانت حقاً عصيبة. الكثير من الناس، من بينهم خمسة عشر شخصاً من كوني آيلاند، ناموا على سُلّم مبنى سكني في الحي الثاني. وكان ثمة أيضاً عشرون من الهيبيز الحمقى، ينامون بعضهم فوق بعض، ومعهم ثلاثة كلاب، يحاولون الابتعاد عن المياه المرتفعة لبوصتين، التي تندقق تحت درجة السُلّم الثانية.

أعلم أنها ليست حياةً يرجو الجميع عيشها، لكنني أحببتها، فقد منحني حرية لا مثيل لها. كان العالم بيتي، وفي الوقت ذاته، لم يكن ثمة شيء مرهق ذهنياً سوى تلك الحياة. إنها كالفوضى الخلّاقة، التي وصلت بي إلى مرحلة فاقت الرغبة في الانتحار، حدّ أنني لم أعد أهتم إذا كنتُ حية أو ميتة. لذلك اخترتُ أن أغادر تلك الحياة.

أما جوبلن، فقد خلّقتُ روحه لتكون حرّة.

انتهى وقتنا معاً ذات يوم حينما أخبرني أن عليه العودة إلى نيو أورلينز. رأيته بعد ذلك في نيويورك، لكنني لم أحيّه. في ذلك الوقت كنتُ برفقة خطيبي الحالي، وكان جوبلن يجوب الشوارع مع فتاتين على يمينه وشماله. اضطررتُ حينها إلى أن أضحك على ذلك المغازل اللطيف.

بدا چارد وچيگب، كونهما توأماً غير متماثل، متشابهين بما يكفي كي يُظن أنهما أخوان، فكان كلاهما أشقر، أزرق العينين، صغير البنية، رشيقاً؛ إن لم تخطئ العين هويتهما. كان چارد المحبب طفولي المحيا، مستدير السحنة ناعمها، أما چيگب فكان منقبض المحيا، لا يبنى منظره بشيء، تشع عيناه بالشك. فكان چارد مبتسماً دائماً وچيگب متجهماً، يستقبلك چارد في رحابة ويطردك چيگب. عمل چيگب بالأعمال اليدوية وإعداد البرجر، تلك الأعمال التي يؤديها المرء وهو غائب العقل. في حين تكسب چارد ١٨, ١٩٤ دولاراً في أسبوعه الأول لدى متجر البوظة بن آند چيريز، قبل أن يُطرد منه لسكبه الفودكا في بوظة الحليب الخاصة به. لم يعيش الأخوان معاً بعد الدراسة الثانوية قط.

قابل چارد مايكل ستيفن في ثلة أليكسندريا ومن ثم تسكعا، تحت تأثير الفودكا الرخيصة، عبر الخريطة غير عابئين بموضع وقوف القطارات ما دامت تنقلهم إلى أماكن مختلفة في كل مرة. لم يستمر چيگب في الجامعة الأهلية سوى فصل دراسي واحد. فكان موزعاً بين بيتنا في فيرجينيا وبيت خاله في كاليفورنيا وبيت أحد أصدقائه في بنسلفانيا. عمل في إحدى صالات حمامات السباحة وفي حانة، حيث

لم يتقاضَ سوى البقشيش وأكواب الشراب وبعض الدولارات أحياناً من ماكينة الألعاب. فكانت تلك طريقته، في سن الثانية والعشرين، في مشاركة أخيه الضال. تساءلنا ما إن كانا يقدران على إيجاد طريقتهما إلى النور.

لم أكن أعرف سوى أنهما شجعا بعضهما بعضاً.

في أواخر العام ٢٠١١، بعد مغادرة چارد لكوني آيلاند بوقت قصير، انتهت جولاته بذهابه إلى بيت أمه في ميرتل بيتش. قدم إليها بصيص طموح، إذ أراد الالتحاق بالجامعة، ظنَّ أن الأمر سيكون رائعاً إن أصبح مهندساً للصوت. ذلك أن علمت لين لتوَّها عن معهد بيتسبرغ للملاحة الجوية، وهو المعهد الذي يدرب ميكانيكي الملاحة الجوية. كان المعهد بصدد إنشاء فرع له في ميرتل بيتش على مبعده نصف ساعة من منزلها.

راقت الفكرة لچيکب، فتخيل نفسه بارعاً في الميكانيكا. كان قد عمل فيها برفقة أبيه حين أعادا تركيب سيارة «بي. إم. دابلو. كوب» عمرها عشرون عاماً، ليقودها لعشرة أعوام أخرى. كان ما رجع كفة المعهد، بالنسبة إلى چيکب، هو ما سمعه عن أن خريجي برنامج العاميين بها يحصلون على وظائف تتراوح رواتبها ما بين ٤٠,٠٠٠ - ٦٠,٠٠٠ دولارًا. كان لچيکب خليلة في فيرجينيا، فمثَّل مثل ذلك المبلغ من المال أملَ الزواج وتكوين أسرة.

بُهر، لذلك، چارد. فقال چارد، حين أعلن چيکب عن خطته لأن يصبح ميكانيكياً معتمداً لدى إدارة الطيران الفيدرالية:

- واه! سيكون بمقدورك أن تسكن في بيت فسيح إذن، وستجد متسعًا لي ولأصدقائنا.

فهم چيگب أن التوأم غير المتماثل ليس يختلف كثيرًا عن الإخوة المولودين في سنين مغايرة، إلا أنه شعر برابط غامض فلم يفصح قط عن فكرة الانفصال. يقول چيگب:

- ستلحق بي المتاعب في المعهد، كمثل أن يأمرنا المعلم أن ندوّن ما فعلناه خلال عطلة نهاية الأسبوع، فسأكتب دومًا: تسكعنا ومشينا في الغابة واصطدنا. فلطالما كان الأمر بالضمير «نحن» لا «أنا»، إذ فعلنا كل شيء معًا.

قابل رجلًا متشردًا في محطة الوقود.

- حادثته وأعطيته بعض الفكة وأخبرته أن اسمي چيگب، تحدثنا طويلًا ومن ثم تركته أخيرًا، وحين رحيلي قال: «شكرًا يا چارد»، أهذا ما قاله؟ چارد؟ لم أذكره قط، لم يدرِ الكثيرون أن لديّ أخًا حتى، كانوا يقابلونني ويدعونني چارد. فيمَ كان ذلك؟

في فسحة رياض الأطفال رأى چيگب چارد يتأرجح من متتصف في لعبة التسلق فتوقف. وفي حينها أتى طفل آخر من الاتجاه المعاكس، في الصف الثاني، إذ كان أكبر حجمًا. ركل الفتى چارد في صدره فأوقعه أرضًا فكسر ذراعه.

يقول چيگب:

- كنت أخاف المرتفعات آنذاك، لكن أول ما فعلته كان الركض وتسلق اللعبة، ومن ثم التأرجح حتى ركلت ذلك الفتى في صدره فأوقفته أرضاً. ثم قفزت فهبطت عليه وأخذت ألكم وجهه ولم أنفك عن هذا. اضطر المعلمون إلى نزعي عنه، لست أذكر هذا، لكن أُمي تقول إنني أبرحت الفتى ضرباً حتى إنه احتاج إلى خمس دقائق ليغسلوا عنه دمه قبل أن يتعرفوا عليه.

كان ذلك حباً أخوياً بتلك الطريقة التي تجري بها الأمور بين الإخوة.

- أجل، كنا نتعارك كثيراً، أتذكر تلك المرة حين علّقت چارد على الإفريز من عقبه.

فقلت:

- احكِ لنا، سمعت نسخة من أحدهم عن الأمر.

بدأ الأمر الخلق بالفتية، طبقاً لرواية چيگب، في غرفة نومه في الطابق الأعلى، في مدخل العلية حيث علّق چارد على الإفريز وهو يتطوح في الهواء مقلوباً رأساً على عقب، على ارتفاع ستة أقدام من أرض غرفة المعيشة. كان هذا الارتفاع عالياً كفاية - أعلى من ارتفاع لعبة التسلق - لأن يتأذى طفل على نحو لم يقصده الأطفال. فيقول چيگب:

- فزع أبي وليزا، ماذا كان يحدث؟ وما الذي كان بإمكانهما فعله؟
بئساً، لم أكن لأسقطه. وفي أي حال كان أبي أسفلنا، كان ليلتقطه.

كانت تلك هي الصيفية التي قرر فيها جف وليزا فصل الفتيين، فأرسل جارد للعيش مع أمه على مبعدة ثمانين ميلاً. وهو الصيف نفسه الذي تلقيت فيه المهاتفة حين كنت في إجازة في مونتانا إذ أخبرني جف بأن الفتيين يتعاركان وأخبرني عن حادثة العلية. قال لي حينها: «أنا الأب هنا».

قال جيكب:

- أجل، تلك هي القصة، لهذا أجبر جارد على الانتقال مع أمي حتى لا نكرر ما فعلناه لكن ذلك كان هراء لا غير. كان السبب هو خوف ليزا من أن يؤذى كالب فلم تُرد وجود جارد هنالك. وكانت القشة التي قسمت ظهر البعير هي حينما لم يُرد جارد الذهاب إلى المدرسة في أحد الأيام، فأخبرته ليزا بأن عليه الذهاب. فقال لها: «كلا، لن أذهب. سأبقى هنا». لم تستطع ليزا أن ترحزه عن سريره، فقالت: «طفح كيلى منك، ابقَ هنا إذن. اكتفيت منك، ستذهب لتعيش مع أمك فيما بعد». وكان ذلك الأسبوع الذي انتقل فيه للعيش مع أمي.

قال جيكب إنه كان لديه الخيار أن يذهب مع جارد أو أن يبقى في لوكست جروث:

- أسفت أسفاً شديداً لانتقال جارد هنالك من دوني. لكننا تقابلنا كل بضعة أسابيع فيما بين بيت أمي وبيت أبي. كان ذلك أمراً مضطرباً. تشتت حياتنا برمتها بين جورجيا وفيرجينيا وألكسندريا وفيرفاكس ولوكست جروث، لم لم نبق بحق الجحيم في مكان واحد؟ كنا نذهب إلى إحدى المدارس ونصادق فيها لنتركها في العام التالي، ولذا أردت البقاء في لوكست جروث.

وقال، في مجمل الأمر، إن كان ثمة أمر ثابت فهو أننا أخوان.
- عمومًا، سواء عشنا معًا أو لم نعيش فهذا لا يهم كثيرًا. ما يهم حقًا
أن أحدنا وقف بجوار الآخر.
لكن چيگب أخبرني بقصة.

توقف، في أحد أيام سنته الأولى في مدرسة ميرتل بيتش لميكانيكا
الملاحة الجوية، عند ماكينة بيع ليشتري فطوره من التاكو، فوجد أنها
نفدت كلها، فصاح:

- أأكلت التاكو يا چارد؟

- نعم، كنت جوعان.

- تَبًّا لك، اشترِ طعامك.

ذهب چارد وليندزي إلى ميرتل بيتش، ومكثا فيها أسبوعين، فذهل
چيگب مما لاحظته من تصرفاتهما. فيقول چيگب:

- لم يُردا الذهاب إلى أي مكان أو فعل أي شيء، بقيا بالمنزل
فقط يلعبان ألعاب الفيديو ويحتسيان الشراب. وكانا، في بعض الأحيان
عندما كنت في الجامعة، يتسولان لشراء زجاجة كبيرة من الفودكا. كانا
ثملين الأسبوع بأكمله، ولم يفيقا قط.

فقلت:

- وماذا ظننت بذلك؟

- لم أعجب بالأمر كثيرًا، وعلم چارد بذلك.

- وهل حدّثته بالأمر؟

- نعم، وقال لي: «لست أقدر على التوقف يا صاح، إن توقفت فستتأنيبني الرعشات وتصيبني النوبات. عليّ أن أتناول الشراب». فقلت له: «حسنًا، أقلع عنه تدريجيًّا. ولا تشمل في كل مرة تتناول الشراب، فقط اشربه لتحسن. حاول أن تقلع عنه».

ثم توقف ههنا.

- لكنه لم يستطع. لم يُصغِ إلى أحد، لم يكن يصغي إلى أمي، فعل ما برأسه. ناما في غرفة المعيشة ببتي على المراتب الهوائية. كان يصيح في جوف الليل لأنه يعاني من الهذيان الارتعاشي. كانا ينامان وبجوارهما زجاجة فودكا، فكان يعب منها بضع مرات ويمكث هناك حتى يغشاه النعاس.

ربما لن يعرف ما شعر به چيکب حينها إلا أخ، وربما توجب على المرء العيش مع چارد في رحمٍ واحد، وربما توجب على المرء حمايته من المتنمرين قرب لعبة التسلق، أو كنت قد تشاركت معه كل يوم من حياتك حتى الحادية عشرة ثم فرّق بينكما أمر والديكما لتتقابلا فقط في عطلات نهاية الأسبوع في بيت أحد أبويكما، لتعلم حينها ويكون بمقدورك الشعور بما قال چيکب أنه شعر به في ذلك الأسبوع في ميرتل بيتش. وربما احتجت إلى أن تعلم، عبر الأخطاء، المشكلات التي يخلفها الكحول.

قال چيکب:

- ما كنته لچارد كان شيئاً فطرياً؛ شعوراً قليباً، بأني فاقده.

قلت:

- ماذا تعني بأنك فاقده؟

فقال ردّاً تقشعر له الأبدان.

- أحببت أن أكون، طوال ذلك الأسبوع في ميرتل بيتش، قادراً على رؤيته وما شابه. لكن عندما انتهت الحال إلى تناوله الشراب، لم يكن هو الذي أعرفه. كان شيئاً ما آخر له سمت چارد، إذ تقدر بين الحين والآخر أن تلمحه؛ لكن بدا كأنه چارد وتحدث مثله لكنه لم يكن چارد.

* * *

إنها قصة حياة جوبلن، وأنا جده الذي يرويه، ما يعني أن حكيها يتخلله الحب. ومع ذلك، فعندما يكون الجد صحفياً، ينتقل إلى عالم يجهله، فعليه العثور على سبب جيد ليقتنع بأن القصة حقيقية وصادقة. فبدأ تحقيقه باسم ولا شيء سوى اسم. علمت أم جوبلن اسم فتاة رافقته في رحلته الأولى عبر القطارات. قالت إن اسمها ستراي، وهكذا بدا اسمها على فيسبوك. ومن خلال قصصها، ارتحل الجد إلى نيو مكسيكو ليلاً على متن قطار الشحن السريع، برفقة ذلك الولد الراقص. ربما رقص جارد، وربما لم يرقص، لكنها الحقيقة كما يتذكرها رفاق طريقه، مثلما يتذكرون ماندولين ماجي، وتسلق حاجر الطريق السريع، الذي كان خالياً حتى ظهرت سيارة تركت الصبي مهشماً. إذن، فإن الجد (أو الصحفي) يحكي قصة جوبلن بأفضل طريقة ممكنة، وإلا لن تُشرّفه، ولن تُشرّف الصبي. هل كان جوبلن يعيش حرّاً أم محبوساً في سجن الحياة؟ هل كان شجاعاً أم جبائناً؟ قوياً أم ضعيفاً؟ كان هذا كله. كان يجمع كل تلك الصفات المتناقضة التي جعلت من حياته رقصة باهرة، وخطرة، ومرعبة.

ثم في صيف عام ٢٠١٢، جاءته فرصة للرقص بطريقةٍ مختلفة.

بعد تركهما لـجيكب في ميرتل بيتش، قضى چارد وليندزي أسبوعين في منزل چف في لوكوست جروف بشيرچينا. خيما في المدخل الأمامي، وناما في ظل الفناء الخلفي. كان السبب وراء بقائهما لتلك المدة الطويلة أن حالة چارد ساءت للغاية، حدّ أنه كان يستيقظ كل صباح يسعل دما، إلى أن أقنعتة ليزا، زوجة چف، التي تعمل ممرضة، بالذهاب إلى المستشفى لتلقّي العلاج اللازم. وهناك تحمّل لأسبوع أعراض الانسحاب التي أصابته بالهذيان الارتعاشي.

أما فترة الشتاء التي قضاها في منزل أمه، حيث تعافى من حادث أريزونا، فمنحته فرصة لتغيير حياته. حينئذ أتته فرصة ثانية، لكنه شعر بأن شيئا ما ينقصه عندما كان في المستشفى الذي عملت به زوجة أبيه. شيء ظل يطارده طوال فترة الشتاء في ميرتل بيتش. أراد أن يعود إلى الطريق. في إحدى الليالي، تحرّك بجسده إلى حافة السرير، ونزع عنه الأنابيب والأسلاك، قائلا: «عليّ الخروج من هنا. عليّ الذهاب إلى محطة القطار». لكنه ما لبث أن لامست قدماه الأرض، حتى أوقفه الممرض تشارلز هاريسون، الذي كان يوما ما جندي مدفعية في البحرية الأمريكية، قائلا: «إنك لن تذهب إلى أي مكان يا صاح، حتى أسمح لك بذلك».

لطالما تجاهل چارد التحذيرات المتكررة، لكن ذلك لم يحدث هذه المرة، لأن أسبوعا من الألم غير المحتمل قد قضى عليه. وبفضل تشجيع ليزا وليندزي له، قال إنه سيحاول أن يبقى رزينا. ثم قام آلاف وليندزي بالإجراءات الأولى اللازمة لنقله إلى مركز بوكسوود لإعادة

التأهيل بـكولـيـبـير، فـيرـچـينـيا. وـحـان مـوعـد الـذـهـاب إـلـى بـوكـسوود، الـذي يـبـعـد عـن المـشـفـى الـذي تـعـمـل بـه لـيزا بـسـتـة وـثـلاثـين مـيـلاً.

قادت السيارة صامتةً، وبجانبيها جارد.

قطعا عشرة أميال، ثم خمسة عشر، ثم عشرين.

قرر جارد بعد ذلك أن يكسر حاجز الصمت، قائلاً: «أين ليندزي؟».

لم تُرد ليزا أن تُجيبه.

- قلتُ أين هي! لقد أردتني أن أذهب إلى هناك. أين هي؟

كانت ليندزي قد غادرت منزل جف في الليلة الماضية، قائلةً إنها لا تستطيع تحمّل تلك الصباحات الدموية لأكثر من ذلك. كما قالت إنها لن تقدر على انتظار جارد إلى حين عودته من إعادة التأهيل، وإن عليها الذهاب إلى مدينة فريديريكسبورج لتقابل صديقاً.

قالت ليزا:

- لقد ذهبت لتبحث عن پاتشز.

- پاتشز؟ ماذا تقولين بحق الجحيم؟ ما علاقته بهذا؟ انعطفي

بالسيارة يا ليزا! انعطفي!

- لقد وصلنا عملياً.

- إذن سأخرج أنا.

لقد قال جارد إنه ذاهب إلى هناك، وكان يعلم أن هذا ما يجب فعله. والحق أن حياة المدمن مليئة بمثل تلك التخطيطات والوعود والآمال

التي يقذفها في أوجه جميع مَنْ حوله كي يطمئنون، ويزرع بداخلهم الأمل، وبداخله أيضًا. لكن حينما يتعلّق الأمر بالوقت، يقول المدمن في ذهنه: «لا»، خوفًا من الألم الذي يصحب أعراض الهذيان الارتعاشي، من أثر الانسحاب. لذلك، قبل أن تصطحبه ليزا إلى بوكسوود -بدافع الحب- وجد چارد سببًا ليقول لا. سمع اسم پاتشز، فقال لا، لن يذهب إلى هناك.

قال چف: كان الغضب يتملك منه. لم يكن في حالته العادية المبتهجة لأن ليندزي هجرته لتذهب إلى پاتشز، وذلك أمر لم يتحمله. كان يغار من ذلك الشاب ولا يودها أن تبتعد. لكن ماذا لو بقيت؟ لا أحد يعلم ما كان سيحدث. لقد كنا على بُعد قدم من بوكسوود، لكن فور علمه بأنها رحلت، لم يتحمّل. كان عليّ أن أقيده وأجبره على الرحيل. لكن الحقيقة المُرّة هي أن إقناع چارد أمر مستحيل، فإنه لم يكن يتخذ قراراته بنفسه، بل كان الإدمان هو من يحدد مساره. كان -حرفيًا- خارج وعيه. وتلك ليست نظرية وضعها جد يحب حفيده، بل إنها نتائج جهود علماء الأعصاب، وخبراء علم النفس، والباحثين، الذين يؤمنون بأن الإدمان يُدَمِّر الأجزاء المسؤولة عن اتخاذ القرارات في الدماغ. يقولون إن آخر شخص يعلم أن دماغه خرب هو الشخص صاحب الدماغ الخرب.

من بين الخبراء في حقل بحوث الإدمان، صحفي نجم يُدعى «ديفيد شف». وضعت مجلة تايم اسمه في قائمة أكثر الشخصيات تأثيرًا لعام ٢٠١٣. يشرح شف في كتابه «التغلّب على الإدمان وإنهاء كبرى

مأساويات أمريكا» تأثير الكحول على الدماغ، قائلاً:

عندما تُمنَع المخدرات عن الجسم، يدخل الدماغ في حالة من الصدمة. يتعطش الجسم للدوبامين ولنواقل عصبية أخرى. الأمر ليس بخطورة الحرمان من الأكسجين، لكنه يشبهه من حيث الشعور، كأن الموت وشيك. في تلك المحنة، يكون للجسد كله غرض واحد يودُّ الوصول إليه: أن يعود لآثرانه من خلال البحث عن مزيد من المخدرات لتحفيز تدفق الدوبامين. يشعر المدمنون حينذاك بأنهم يحاربون من أجل حياتهم، وربما يكون هذا حقيقياً، فخلاياهم تموت، وكذلك تختل خلاياهم العصبية، مما قد يؤدي إلى إصابتهم بالارتعاش، والغثيان، والقلق، والهلوسة، والارتباك، والحمى. وليس ذلك فحسب، بل إن نبض القلب قد يزداد على نحوٍ خطير، حد أن المدمن يصبح عرضة للإصابة بنوبات صرع قد تكون مميتة. لذلك فإن أعراض انسحاب الكحول خطيرة على نحوٍ خاص.

الكحول أخطر مخدر، فهو يقتل بخبث. يُحوّله الجسد إلى سُم، أسيتالدهيد، ينتقل من الكبد إلى مجرى الدم، ثم يتلف كل عضو يلمسه. يصل السم إلى الدماغ خلال ثلاثين ثانية. حينها يكون الأمر شبيهاً بأن تقطع السلك عن مصباح، فلا تصله الكهرباء ويعم الظلام. لا تتواصل مناطق من الدماغ بعضها مع بعض، فتحل الربكة. كل ذلك يحدث بهدوء.

أهم شيء في الحفل هو الضوضاء، فعلى الرغم من أن السم يتغذى على المادة البيضاء، فإنه يُطلق فيضاً من الدوبامين؛ المادة

الكيميائية للانتشاء. وكل شيء يحبه الشخص، كالطعام والجنس والقمار والقوقا، قد يبدأ فيضان الدوبامين. وكلما ازداد السم في دماغ مدمن الكحول، أحبه وتعلق به. وحينما يحصل على كفايته، يشعر بتحسُّن، وثقة بالنفس، وقوة، وجاذبية. أما عندما يحصل على نسبة أكبر مما يحتاج إليها، فإنه يصبح إلهاً منيعاً. وما يزيد على ذلك يُحوّله إلى سكران فاقد للوعي وفي طريقه إلى الغيبوبة.

ثم تُصدر الكبد، التي غمرها الكحول، الأسيتالدهيد سريعاً، والأسيتات ببطء. والأسيتات حمض يبعث في أنفسنا شعوراً سيئاً، فيجعل معظمنا يبحث عن مكانٍ ليتقيأ فيه. لذلك علينا الإقلاع عن شرب الكحول عندما يكون المدمن بداخلنا يستعد للظهور.

يواجه مدمن الكحول كبرى أزماته عندما يتكيّف دماغه مع السم. ولكي يصل إلى تلك الحالة المنيعّة، فإنه يحتاج إلى مزيد من الكحول أكثر من أي وقتٍ سابق. وكلما تصاعد الوضع، ازدادت حاجته. يصير الدماغ مُخدّراً حد أنه لا يشعر بشيء وقت الشراب، وفي الوقت ذاته لا يحس بأنه طبيعي حينما لا يشرب. حينئذ يصير شرب الكحول أكبر من مجرد شيء يبعث السرور في النفس؛ تصير مسألة حياة أو موت. يصبح الدماغ معتمداً بشكلٍ أساسي على الكحول، ومن دونه لا يعمل. لهذا يعاني المدمن من الهذيان الارتعاشي، وأعراض الانسحاب، والإغماءات، والانقباضات.

حينئذٍ تصير مدمناً. حينئذٍ تصير غير متحكم في مقدار شراك. يعطيك عقلك أوامر ليس بوسعك تجاهلها، مثل أن يقول: انهض وائت

لنا بنصف جالون آخر وإلا ستموت. يجب أن يمر الكحول بلسانك، وحلقك، ومعدتك، وكبدك، ودماغك، وإلا لن يصمت عقلك.

لذلك حينما تذهب إلى متجر الخمر، فإنك لا تكون وحيداً؛ بل تكون برفقة عقلك.

يموت ثمانية وثمانون ألف شخص سنوياً في الولايات المتحدة، والسبب الرئيسي هو الكحول. تشير تقارير مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها إلى أن الوفيات المرتبطة بالكحول تؤدي إلى خسارة مليوني سنة ونصف من أعمار الأفراد، بمعدل ثلاثين عاماً للشخص الواحد. كل عام يُنعى ثمانية وثمانون ألف شخص. كل عام، ملايين الناجين يُعذبون بسبب فقدان أحبابهم.

صحيح أن چارد اختار أن يشرب الخمر، لكنه لم يختر أن يكون مدمناً. وعلى الرغم من كل ما توصل إليه العلم من معلومات عن الدماغ ووظائفه، فإنه يظل كأحجية إلهية معقدة. يخبرنا العلم أن ثمة أدمغة باستطاعتها مقاومة الإدمان، وأخرى تقع في شباكه منذ اللحظة الأولى. ولأن إدمان الكحول وراثي في العائلة، فقد كانت حياتا چارد وچيگب مهتدتين منذ مولدهما. كان الإدمان جزءاً من تاريخ عائلتهما، تحديداً من جهتي الأب والأم.

قال لي چف ذات يوم: «أظن أنني ينطبق عليّ الآن ما يسميه الناس «مدمن كحول قوياً»، فلم يحدث أن شربت الخمر في أثناء العمل، ولا في مكان العمل. لكنني حينما أشرب، فإنني أشرب حد الثمالة. ولين أيضاً كانت تشرب، لكنها لم تكن مثلي قط».

وفي وقتٍ آخر قال: «كان الفتيان يشاهدانني حينما أشرب، لذلك أحمل نفسي جزءاً من الذنب لأن چارد صار يسكر. والمشكلة الرئيسة تكمن في عدم إقلاعه، لأن چيگب كان يتعامل بطريقةٍ أفضل». إن فكرة چف عن «تعامل» چيگب «بطريقةٍ أفضل» مخيفةٌ إلى حدٍّ يضاهي سوء تصرُّف چارد؛ وهذا لأن: چيگب كان يمرض ثم يقلع.

مات والد لين، الذي كان مدمن كحول، في سن الستين.

قالت من قبل: «لم أكن أشرب باستمرار مثل چف، لكنني حين أشرب، دائماً ما أبالغ. إنني ألوم نفسي على ما حدث لچارد أيضاً، لكن ليس فقط لأنه كان يشرب، فلو لم أنتقل إلى كارولينا الجنوبية، لكان من المستحيل أن يقطن چارد الشارع، ويصبح سكيراً. قلتُ له من قبل: دخن الحشيش. دخن أي شيء تريده. كُن سعيداً. لكن لا تكن أحمق فتدمر كبدك».

قد أبالغ إن قلتُ إنني تربيْتُ داخل حانة. لكنني بين السادسة والخامسة عشرة من عمري مكثتُ مع جدتي في لنكن، إلينوي، كي تتسنى لي فرصة للمشاركة في دوري الناشئين للبيسبول، ما يعني أنني قضيتُ ليالي الصيف في حانة فورهند التي تقع في الجانب الغربي، تحديداً في شارع سانجامون، بمحاذاة قطارات السكة الحديدية المركزية التي كانت تمر بجانب منزلنا في أتلانتا، على بُعد عشرة أميال شمالاً. كانت جدتي لنا تدير المكان، بمساعدة زوجها تومي فورهند، الذي بنى مشربه والدي. أتذكر أن كان ثمة ناقوس زجاجي، مملوء بأرجل خنازير مُخلَّلة، موضوع في آخر ركنٍ بالحانة، مُعد خصوَصاً للزبائن

ذوي المَعِدِ القوية، والأذواق الغريبة. يقف الرجال عند الطاولة النحاسية (التي عليها أربع مباحق، بها أعقاب سجائر عائمة في عصيرٍ من التبغ)، يشربون بابست بلو ريبون، وفالستاف، وستاج، وشيلتز. أذكر أنني في ليلة رأس السنة، من عام ١٩٤٩، وحينها كنتُ في الثامنة من عمري، قد رقصتُ مع امرأة تُدعى «فلو». وضعتُ رأسي على معطفها الوردي المصنوع من الفرو، تحديداً بين نهديها المتوسطي الحجم. كم كانت فخمة تلك الحانة!

لم أشرب الخمر، حتى بلغتُ الثامنة عشرة وسافرتُ مع فريق البيسبول مع زملائي في الجامعة، متجهين إلى نيو أورلينز. وكما قد يقول بوز كوپ، فإن الشاب لا يجب أن يبلغ الواحد والعشرين من عمره من دون أن يذهب إلى شارع بوربون. لذلك ذهبتُ وأنا مراهق إلى حانة بات أوبراين. أشهر مشروب هناك هو «الإعصار»، الذي يتكوّن من أربع أونصات من الروم المُنكّه، مع أربع أونصات من خليط أوبراين الخاص، صُبّت فوق ثلج مجروش داخل كأس الإعصار ذات الست والعشرين أونصة، المزينة بشريحة من البرتقال وحبة كرز. إنه شراب لطيف، ومنعش، وحلو المذاق، ولا يمكن لأحد أن يكتفي بكأسٍ واحدة فقط. قضيتُ تلك الليلة منحنيًا على حافة سريري، ثم شققتُ طريقي -دائخًا- إلى مباراة اليوم التالي، ضاربًا الكرة ثلاث مرات متتالية في ملعب ترقص فيه أشكال غير واضحة.

أما البيرة فقد قلبت عالمي في الصحافة الرياضية رأسًا على عقب. كانت راعيًا مهمًا في جميع الأحداث المهمة، وموجودة على لوائح

الإعلانات في كل الملاعب الأمريكية. ظهر اثنان من نجوم مجلة سپورتس إلستريتد، هما فرانك ديفورد وريك رايلي، في إعلانات لشركات إنتاج البيرة التي تضيف «مذاقاً رائعاً، ورغوة أقل» إلى نموذج أوسكار ماديسون^(٢٣) في الصحافة الرياضية.

في مدينة لويفيل، عملتُ مع كلارنس رويالتي المعروف بلقب «سليك». كان مشهوراً في مكتبنا، على الرغم من أنه لم يكن يستطيع كتابة ملاحظة لبائع الحليب، في الغالب لأنه أنقذ العظيم جرانتلاند رايس^(٢٤) من الموت، عندما كان يقف بالقرب من خط النهاية في ديربي كنتاكي^(٢٥). وفقاً لسليك، فقد أخذ جراني رشفتين أو ثلاثاً من شراب البراندي بالنعناع، مما كان أكثر من اللازم. ثم أصبح سليك الكاتب الشبح لجراني، يكتب تحت اسمه المشهور، ويشحن نتاج كتابته إلى نيويورك. لم يصدق أحد قصة سليك، لكن الكل يعلم أن ذلك يحدث آلاف المرات.

وكان ويلز تومبلي، الصحفي في جريدة سان فرنسيسكو إكزامينار، يشرع في الكتابة بعدما يصبُّ مقدار إصبعين من شراب السكوتش في قدح يضعه بجانب آلة الكتابة.

في أحد الأيام، نظَّم صحفي من نيويورك يُدعى «چاك لانج» رحلةً

(٢٣) شخصية رئيسة في مسرحية «الثنائي الغريب» أو «The odd couple» لنيل سايمن والتي تحولت فيما بعد إلى مسلسل وفيلم. وأوسكار صحفي رياضي مطلق ويعيش حياة بوهيمية لا تخلو من الإهمال.

(٢٤) صحفي رياضي أمريكي، اشتهر في أوائل القرن العشرين ببراعته في كتابة النثر.

(٢٥) أكبر مهرجان لسباقات الخيل في الولايات المتحدة.

بالطائرة عبر البلاد، خصصها للصحفيين الرياضيين خلال فترة بطولة العالم للييسبول. سُمِّيت الطائرة فيما بعد بـ«خزان الخمر» للطائر للكابتن جاك».

عندما قيل لبيت أكستيلم، الصحفي في مجلة نيوزويك، إنه سيموت إذا ظلَّ يشرب الخمر، قال: «إذن أنا سأموت، لأنني لن أتوقف عن الشرب». فمات في سن السابعة والأربعين.

كان ريد سميث يُفضِّل «حساء شفرة الحلاقة»، الذي يُعرَف عند البعض بمشروب المارتيني. أعدَّت چين ليفي، التي صارت زميلتي في صحيفة واشنطن پوست لاحقًا، ملفًا تعريفياً عنه عندما كانت في الجامعة. ولأن «القاعدة العامة تفي بأن الصحفيين الرياضيين يسكرون ولكن لا يفوتون مواعيد التسليم»، فقد كانت ليفي تُقدِّم الفودكا لريد -بدافع الواجب- بينما يعمل، مُتَّبَعَةً وصِيَّةً وحيدة من ذلك الرجل العظيم: ألاَّ تجلب الفاكهة. أي من دون الليمون، أو عصيره. كانت تتشاجر معه باستمرار، حتى في المطار، عندما كانا مسافرين إلى نيويورك. لم يجد ريد سيارته حينما وصلا، ولم يعثر أيضًا على الموقف. سأل أحد العاملين: «أين الموقف رقم ١؟»، فأجابه: «ليس ثمة موقف بهذا الرقم، فجميع المواقع مقسمة بالحروف: أ ب ت وهكذا». ثم حُلَّت المشكلة عندما أدركت ليفي أنهما قد هبطا في نيوارك، فقالت: «لقد سافرنا إلى المدينة الخطأ».

كنتُ أنا وليفي ضمن بعثة الصحافة الأمريكية إلى سرايشو لتغطية أولمبيات الشتاء لعام ١٩٨٤. أمَدَّنَا مضيفونا بأحد الفنادق في زغرب

بُسْم شرق أوروبى شنيع يُسمَّى «سليشوفيتز». وهو براندى مصنوع من البرقوق، يقارنونه بسائل الإشعال، ومُخَفَّف الطلاء، ووقود الطائرات. رشفة واحدة منه أشعلت حلقي. أخذنا رحلةً ليلية بالقطار لنشاهد جبال يوجوسلافيا، ولكي أحاول إطفاء النار المشتعلة في حلقي، صرْتُ أشرب البيرة لسبع ساعات متواصلة. تعلَّمتُ اسم البيرة باللغتين الصربية والكرواتية، وأيضًا عرفتُ اسم مضيف القطار اللطيف الذي كان متحمسًا لخدمتنا. فوجدتني كل نصف ساعة أنادي قائلاً: «بيشا، بيهركا».

ثمَّة قصة أخرى: بعدما قضينا يومًا في أولمبيات ١٩٧٢ بميونخ، شربْتُ برميل جعة مع زوجتي في أثناء تناولنا العشاء. ثم عدنا إلى منزل تشاركناه مع أمريكيين آخرين. صبَّ الرجال لكل منا نصف كأس من ويسكي ساذرن كومفورت، الذي أعده سُمًّا عذبًا. تَبَّأ. لقد تجرعتُه بسهولة، فأحدث نتائج كان سيتوقعها أي رجل حكيم. على الرغم من أنني بذلتُ قصارى جهدي لكي أحافظ على توازني طوال الليل، فإن سريري ظل يلتف بي على مستوى أفقي. انتقلتُ إلى مكانٍ أكثر أمانًا: الأرض، لكنها التفت أيضًا بي. تقيأت زوجتي مرات عديدة، لكنني لم أفعل. بقي السُّم في جسدي إلى اليوم التالي في الأولمبيات. وللأسف قد عشت.

ثم اتخذتُ على نفسي عهدًا بآلا أشرب «الإعصار»، ولا «سليشوفيتز»، ولا «بيشا، بيهركا»، ولا «ساذرن كومفورت».

أظنُّ أن چارد قد أدمن الكحول بسرعة، ربما منذ يوم «كي ويست»

الذي تشارك فيه البجعة مع چيگب، عندما كان الأول في سن الثالثة عشرة. هكذا كانت الحال مع چاي ديشيدسون، مدمن الكحول الذي تعافى والآن يترأس مكان التعافي، وهو مركز إعادة تأهيل في لويشيل، كنتاكي.

يقول ديشيدسون: «كنتُ في الثالثة عشرة من عمري حينما تذوقتُ البيرة لأول مرة. أعجبتني، فشربتُ ثلاث زجاجات حينذاك. وإذا بعقلي يقول: رائع! إنها جميلة جدًا». يخبرنا ديشيدسون بأن معظم الرجال الذين انتهى بهم المطاف في مكان التعافي قد تعرضوا، في مرحلة المراهقة، لنوعٍ من الألم الجسدي، أو العاطفي، أو النفسي، أو الروحاني. وبأنهم فقدوا الثقة بأنفسهم، وانتابهم شعور بالخزي، والذل، واليأس. وهكذا عاشوا معظم حياتهم برفقة تلك المشاعر، فصاروا يسكرون. إن مدمني الكحول يسكرون لسببٍ واحد: «ليغيروا الشعور القابع بداخلهم». لقد منحني السُّكَّر عزة وقوة، وعزَّز اتصالي بالجنس الآخر. كنتُ حينما أسكر لا أتوقف إلا عندما يُغشى عليَّ. وفي تلك المرحلة تتحوَّل من مدمن للمادة الكيميائية إلى معتمد عليها.

إن التدخل المبكر أداة فعالة لإيقاف إدمان الكحول، مثلما يقول ديشيدسون، حتى وإن كان في سن الثالثة عشرة. يكمل قائلاً: «على العائلة، والأصدقاء، وجميع من يحبون المدمن أن يتدخلوا فور ظهور علامات الإدمان. ويجب في أثناء التدخل أن يُوضَعَ أمام المدمن الشيء الوحيد الذي لا يرغب في خسارته، فبلا شك ثَمَّة شيء لا يودُّ أن يخسره. كزوجة، أو وظيفة، أو صديق مقرب. يجب أن تبعث بداخله

الخوف من فقدان ذلك الشيء. كما يجب على جميع من سيدخلون أن يتحلوا بالثبات والجلد، فإذا قال أحد: «لا بأس، لقد شرب مرة واحدة، وسيكون بخير»، فعليك أن تتخيل إلى من سيستمع المدمن بعد ذلك». فور أن يصير الشخص معتمداً على الكحول، لن يكون له مخرج -على حد قول ديثيدسون- سوى إزالة السموم، وإعادة التأهيل، والامتناع. وجميعها خطوات مخيفة في طريق التعافي. والخطوة الأولى، التخلص من السموم، خطوة مخيفة على وجه الخصوص. لذلك، يُفضّل كثير من المدمنين استكمال طريق الإدمان على أن يتعرضوا -يقيناً- للذهيان الارتعاشي، ولكي يتفادوا احتمالية، مجرد احتمالية، الانتكاس بعد التعافي، فيضطروا حينذاك إلى أن يشقوا الطريق من جديد.

لقد قضى چارد أسبوعاً مرعباً في المستشفى الذي تعمل به زوجة أبيه. ولأن المزيد كان ينتظره في بوكسوود، قال لا.

بعد رفضه الذهاب إلى بوكسوود، ارتحل چارد مجدداً، بادئاً بمدينة سيراكيز في نيويورك، حيث قابل واعظاً متجولاً يُدعى «چون تومينو»، في صيف عام ٢٠١٢.

ذات يوم، كان تومينو يملك مطعمًا، ثم ترك عالم الأعمال ليؤسس منظمة خيرية أسماها «في مطبخ أبي». أدرك من خلال عمله أن الناس يمرون بالمشردين من دون أن يروهم، كأنهم مختفون. يقول الكاتب پيتر ماتيسن متحدثاً عن جولاته في الشارع: «سمعتُ امرأة مشردة تقول:

«أتدري مَنْ نحن بالنسبة إليكم؟ نحن كمنديلٍ قذف فيه شخص ما بأنفه ثم ألقاه على رصيفٍ بلّله المطر. تُرى، مَنْ ذا الذي سيود التقاطه؟».

لذا أصبح شعار تومينو الموجه للمشردين: «أنتم لستم مخفّفين!». وذلك تأكيد لهم، ولجميع مَنْ يتجولون على هامش المجتمع، أن ثَمّة عيّنين تراقبانهما، وهما أهم عيّنين على الإطلاق؛ عينا الرب.

قابل تومينو كلّاً من چارد وصدیقٍ له يُدعى «آش دوجسکین» في أثناء وقوفهما أسفل جسر. قال: «كانا شابَّين لطيفين، ذَوَي روحين حريّتين، يحبّان الحياة، واجتماعيّين. التمسْتُ فيهما الخلق الحسن، لا الحقارة».

صار تومينو يذهب إليهما بمعدل مرتين في الأسبوع، لمدة شهرين.

قال لي: «أطعمناهما وكسوناهما، وزوّدناهما أيضاً بالأشياء التي يحتاجان إليها لينجوا من بطش المعيشة في الخلاء، كحقائب النوم، والمناديل المبلّلة وغيرها من مستلزمات النظافة. لكنني اخترتُ ألاّ أعظهما عن تلك الحياة الخطرة، فكان هدفي أن أتشارك مع حفيدك أجزاء من إنجيل يسوع المسيح. أردته أن يسمع عن حب المسيح. والحق أنه كان يستمع إليّ. لكن هل كان يتقبل ما أقوله؟ أظن أن الإجابة نعم، فأنا أثق بقوة يسوع المسيح».

وفي عام ٢٠١٨، مات واحد وعشرون مشرداً ممن كان تورينو يعتني بهم، من بينهم امرأة تعرضت لضربٍ أفضى لموتها، على بُعد ربع ميل من البقعة التي قطنها چارد.

من سيراكيوز، اتجه چارد غرباً إلى مدينة آن آربر في ولاية ميشيجان، حيث انتهى به المطاف من جديد في المستشفى. لم تكن تلك المرة الأولى بالطبع، لكن طبيباً أخبره، بأكثر الطرق جديةً، أن الشُّكر سيودي بحياته.

كان چارد ممدداً على مقعد بإحدى الحدائق يصارع أعراض الانسحاب. ورد في تقرير المركز الطبي بجامعة ميشيجان أنه رجل يبلغ الثالثة والعشرين من عمره، له تاريخ مع أعراض انسحاب الكحول:

كان المريض مسافراً (عن طريق القفز من وإلى قطارات الشحن) إلى بيتسبرغ، برفقة صديقين له. يقر بأن ثلاثتهم يستهلكون نصف جالون من الشودكا، أو صندوق نبيذ، يومياً... أظهرت الفحوصات الأولية الآتي: التهاب البنكرياس، وارتفاع إنزيم ناقلة الأمين، وإصابة حادة في الكلى... بالإضافة إلى أعراض الارتعاش، والقلق، والهلوسة، والتعرق، وعدم انتظام ضربات القلب، وارتفاع ضغط الدم.

أبرزت الأشعة المقطعية أيضاً أن مخه «به نسبة ضمور تفوق ما قد يصاب به مريض في سنه»، وكذلك «تليّن يشمل الفص الأمامي من جهة اليسار». قد يرتبط الضمور بإدمان الكحول، لكن تليّن الدماغ، الذي يصيب الأنسجة، فعادةً ما يحدث نتيجة إصابة. لذا، فإن إبراز تلك الإصابة الدماغية قد دعم ما ورد في تقرير مستشفى نيو أورلينز بأن ثمة عيباً تجويفياً في الفص الأيسر، الذي يُعد موطن الرجاحة والحكم والعاطفة. وربما يكون ذلك العيب سبباً في مغادرة چارد للمستشفى «خلاقاً للإرشادات الطبية».

طوال فترة وجوده في المستشفى، هدد المريض غير مرة بالمغادرة خلافاً للإرشادات الطبية، إلى أن غادر بالفعل في النهاية بعدما دارت معه نقاشات مطولة حول المخاطر التي قد يواجهها (من بينها، وذلك ليس حصراً، الموت، وأعراض انسحاب عنيفة، وتلف في الدماغ، وتنعفن الدم، أو الاختلال العضوي). وقد وقَّع المريض الأوراق اللازمة التي تفيد بمغادرته على مسؤوليته الشخصية.

لكن يوسي هولوشيتز، الطبيب المسؤول عن چارد، كان يتعامل مع حالته على أنها حالة شخصية. قال لي: «لقد سجَّلتُ كل شيء في عقلي، فهو كان في مثل عُمر ابنتي». تذكَّر هولوشيتز الأسباب المختلفة لدخول چارد المستشفى: صِغَر سنه، والنوبات العديدة التي تصيبه، ورفيقي أسفاره آش دوجسكين وچيرسي جاي اللذين لَزِمَا سريره.

قال له هولوشيتز: «هذان الشابان كانا هنا، ومَرَّاً بحياةٍ صعبةٍ مثلك».

أراد هولوشيتز أن يُبقي چارد في المستشفى.

«أخبرته أنه يُعرَّض حياته للخطر، وأنه لم يزل صغيراً، وسيعيش لسنواتٍ طويلةٍ إذا اعتنى بنفسه».

لكن چارد لم يكن متعاوناً.

«لم يكن يرغب في التحدث طوال الوقت».

كان هولوشيتز متأثراً بظروف چارد للحد الذي جعله يقوم بشيء غير عادي، فإنه لأول مرة في حياته، على حد تذكُّره، اتصل بوالدة مريض عنده. حينذاك هاتفني لين، وكان صوتها خافتاً. من بين جميع

محادثاتنا، بدءًا ببكائها عند إخباري عن الوشم الذي رسمه چارد في وجهه، كانت تلك أكثر المرات حزنًا.

قالت لي: «لقد أخبرني الدكتور هولوشيتز أن چارد إذا لم يقلع عن الشراب فسيموت».

حذر مستشفى نيو أورلينز چارد، بلغة الطب، من مخاطر شرب الكحول. والآن، بعد سبعة عشر شهرًا، أخبره طبيبٌ بالحقيقة المرة بنفسه. وقد حملت كلمات هولوشيتز في طياتها مغزى يفى بحتمية الوضع.

ماذا كان علينا أن نفعل إذن؟

لقد رفض چارد باستمرار جميع نصائحنا، حدّ أننا ظننا أن حياته لن تتغيّر إلّا حينما «يسقط إلى القاع»، ويا لبشاعة ذلك! لكن إذا أُخبرت بأنك ستموت إن لم تقلع عن الشراب، ولم تعتبر ذلك سقوطًا إلى القاع، فما السقوط بالنسبة إليك إذن؟

صدمته سيارة، ولم يتغيّر شيء. تعرّض لضربٍ مُبرح أدى لإصابته بنزيفٍ في المخ، ولم يتغيّر شيء. قضى أسبوعًا في مستشفى بشيرلينا ليتعافى، ولم يتغيّر شيء. وإن لم يتغيّر شيء حقًا، فستخرج كلمات الدكتور هولوشيتز المفزعة، المرعبة، من حيّز التحذير، لتتحول إلى حقيقة.

من السهل أن نقول إننا كان علينا العثور على چارد، لنقله إلى مركز تعافٍ وإعادة تأهيل. لكن أباه لم يستطع إتمام المهمة، رغم أنه كان

على بُعد «بضعة أقدام» من إتمامها. ربما كان علينا الترسُّد به، لنكبِّله، ونكمِّمه، ونختطفه من بين كلاب الشوارع، لنذهب به في النهاية إلى مصحَّةٍ لعلاج إدمان الكحول. وماذا أيضًا؟ أنرغمه على الالتزام قانونًا، ونتسبَّب في سجنه؟ لكن الحقيقة المُرَّة، التي تعلَّمتها بعد ذلك بسنواتٍ من ديشيد شِف وچاي ديشيدسون، أن المدمن إذا لم يُسلَّم نفسه للعذاب طويل الأمد لاستعادة رزاقته، فلن تكون للمؤثرات الخارجية أي فائدة تُذكر.

فما كان منا حينذاك، سوى أن نتَّبِع الأسلوب القديم عديم الفائدة بالتوسُّل إليه للإقلاع عن الشراب. وقد قال لنا إنه سيقلع، لكننا كنا نعلم الحقيقة. كنا نعلم أنه يقطع على نفسه عهدًا لا يوفِّيها. كنا نعلم أنه يكذب. فلزنا الصمت. ولعلمنا بأن التزامه بالقانون أمرٌ مستحيل التحقيق، فلم يكن بوسعنا فعل شيءٍ من أجل شاب نحبه جميعنا.

ارتحل چارد جنوبًا، إلى بحيرة ساوث هولستون، شمال شرق تينيسي، ليحضر حدثًا سنويًا يُسمَّى «تجمُّع قوس قزح».

من بين عشرات التجمُّعات في الولايات المتحدة، استقطب ذلك التجمُّع بالتحديد نحو عشرين ألفًا من الهيبيز، والمشردين، والمتحولين. هناك، بعد مرور أربعة أشهر على تنظيم حفل زفاف سارا فينا سكارليت، رأى چارد صاحبة الماندولين؛ ماجي.

حينذاك، كانت ماجي قد أتمت خمس سنوات من السفر. وجهها الصغير الجميل مائل وجه چارد. ونغمة رنين هاتفها كانت صافرة قطار

ليلي حزين. وعلى صفحتها على الفيسبوك، تشاركت مع الزوّار خبر «بدء عملها كمشرّدة محترفة منذ عام ٢٠٠٨». كانت قد أوقفت سيارة على الطريق لتوصلها من بيتها في كارولينا الشمالية إلى كاليفورنيا. علمتُ أيضًا أنها عملت موظفة جرد بشركة شحن إلى أن كسبت ما يكفي من المال لتسافر مجددًا على متن طائرة إلى تشارلستون في كارولينا الجنوبية. وفور وصولها إلى هناك، قفزت على متن أول قطار من تشارلستون إلى وايكروس، جورجيا.

نادرًا ما كانت تمكث طويلًا في أي مكان.

هذا رصد لتحركات ماجي وجدته على الفيسبوك:

نوكسفل. إنديانا اللعينة. في بيتسبرغ أبيع الهامبرجر. ويسكونسنننن. مينيسوتا. لوس أنجلوس يا أعزائييي. نيو مكسيكو! تكساس! سان أنطونيو. أوستن! ذاهبةٌ إلى لويزيانا، وداعًا دالاس. داكوتا الشمالية. أوجوستا، جورجيا. في ماريلاند.

ملحوظة:

مشاركة البيرة مع شخص ما تشبه مشاهدة راقصة تعرّ تخلع حذاءها؛ كلاهما إهدار لا طائل منه للمال.

ملحوظة أخرى:

ماذا كنت تتوقع مني أن أكون؟ قديسة تستيقظ صباح الأحد مبكرًا؟ شاعرة متجولة متفائلة ولدت من رحم الفساد؟ بالطبع إنني أتغيّر للأسوأ، ولن أعود كما كنتُ يا حبيبي.

في «تجمُّع قوس قزح»، لَمَحَتْ چارد على الفور، وكانت ذكرى
حفل الزفاف لم تزل ناضرةً في عقلها. فيا تُرى، كيف كانت ستشتاق
إليه؟

«كان يتصرَّف كالبله، ويتحدث بطريقةٍ سخيفة. يرقص طوال
الوقت، ويقفز ويترنح، ويقوم بإيماءات ساذجة، ويصدر أصواتاً
مزعجة، لكنه كان سعيداً، كان أسعد إنسان رأيته في حياتي».



كانا ثنائياً استثنائياً في عالمهما الذي من تراب ووسخ: ماجي بضفائرها السوداء، وعينيها البُنيتين، وخطوط الوشم الباهتة على وجنتيها، وجوبلن الضئيل الأشقر، أزرق العينين، يغازل صاحبة وشم الوجه الشرسة. كانا مثل تمثالين صغيرين تزدان بهما كعكة زفاف مشردين: عريس وعروس يعيشان أبد الدهر في هناء، يرفلان في المبدل المرقع الدبق ذي السخام. بالنسبة إلى ماجي كان الحب كما توقعته أن يكون، فتقول: «أضحكني، وأشعرني بالأمان».

وحينما هاتف چارد منزله، أحست أمه بتغير في صوته. فتقول لين: «كان متحمساً للغاية، أكثر مما عهدته، كان مغرماً بماجي حد الثمالة».

كانت للين نظرية تقول بأن چارد سيعود للعالم الحقيقي عندما يجد فتاة أحلامه. فيكون بإمكانه، وهو برفقتها كما ظنت أمه، الاستقرار وهجر التسكع في الطرقات ليحظى بحياته.

تقول ماجي: «كنا كمثلي صديقين يحبان بعضهما بعضاً ويسافران عبر البلاد معاً. عشنا تحت القناطر وفي المروج وفي الفنادق وعند الأصدقاء وعلى متن القطارات. تناولنا طعام محطات الوقود بقسائم

المعونة ومن صناديق القمامة حيث يلقون بالطعام الجيد. ذهبنا في إحدى المرات إلى مطعم فرايديز حين أقاموا طاولة مفتوحة، فكان كل ما أمكننا أكله بخمسة دولارات، لم نكن معتادين على التخمة».

يسافر جُل الشباب المتسكعين أزواجًا طلبًا للصحة والأمان. فعادةً ما يصطحبون، كما فعلت ماجي مع ديكسي، كلابهم معهم زيادةً في الأمان الذي يوفره ذلك الصديق خفيف النوم حين يفيق نابعًا لوطء دخيل في الليل. يتشاركون، لكونهم يعيشون اللحظة بلحظتها ويعتمدون على طيبة القلب، الضرورات الأساسية للحياة في الطرقات؛ أي المأوى والنوم والطعام والشراب والجنس.

تشارك چارد وماجي في العبّ من الفودكا. إذ تقول: «هي كالماء بالنسبة إلينا».

كنوع تاكا ومكومرك وسكول وپوپوٹ ونيكولاي.

«يتناول الأذكاء الفودكا فهي أرخص من الويسكي. إذ تبلغ الرخيصة منها ١١,٤٩ دولار قبل الضرائب المضافة و١٢,٥٠ دولار بعدها. نأتي على جالون ونصف الجالون إن لم يكن ثمة سواي وچارد. تنفد في عشر ساعات إن كنا نحتسيها على مهل. لم نكن نسكر حتى الثمالة. نضيف فقط تدفقًا ثابتًا من الكحول في أبداننا لتفادي الارتعاش الهذيانى. كانت النوعية الأرخص، أيما كانت، فهي المفضلة لدى چارد. يعب منها مباشرةً ومن ثم يلحقها بالبرتقال أو شراب باورريد الأزرق».

«كثيرون لا يعاقرون الخمر هنالك، هم إما لا يتناولون الشراب أو لا يعرفون ما هم قادرون على فعله أو هم أذكى من ذلك أو يتخطون

إدمان الكحول. أحب چارد تناول الشراب مع أصدقائه، إذ يصبح أكثر اجتماعية وأطلق لساناً، يعيش بحال أفضل بالقليل من الكحول».

استخدما، في أكتوبر من العام ٢٠١٢، فيسبوك كي يعلما أصدقاءهما المتسكعين في الطرقات هذا الخبر:

«بدأ چارد وماجي آن ديكسي علاقة».

أحبت طرائفه، والطريقة التي يقول بها: «سأحمي ظهركِ، كمؤخرتك»، كان ذلك من أمثلة ولعه بالقافية. تلت نسختها الخاصة بالفتية المتسكعين من نذور الزواج: «سيزور أحدنا الآخر في المشفى، إن كان لك أو لي. سنكون هنالك أحدنا للآخر في البأساء والضراء». وأضافت: «أتريد سماع نكته المفضلة؟ تخطو بطة بداخل حانة وتساءل: أليكم أي من العنب؟ فيجيبها النادل أن لا. فتخطو البطة في اليوم التالي وتساءل مجدداً: أليكم أي من العنب؟ فيجيب النادل: كلا، ليس لدينا عنب قط، إن سألت عن العنب مجدداً فسأدق منقارك الأبله في الحائط. تتفكر البطة في ذلك ومن ثم تقول: أليكم مسامير؟ فيجيبها النادل أن لا، ليس لدي مسامير، فتقول البطة: حسناً، أليكم أي من العنب؟».

تقول ماجي: «كنت لأقول له، إن أراد الزواج والاستقرار والتوظيف: بالطبع موافقة، وإن قال: سأترك هذا، كل ما أريده هو أن يكون لي بيت، فستكون تلك الإجابة، كنت لأتوجه في لمح البصر».

كانت ماجي العروس المثالية. إذ يقدر چارد، برفقتها، أن يهتدي إلى طريقه.

كان چارد قد خاض طريقه في إعصار أيرين في العام الذي مضى .
فوصل، الآن في أعقاب أكتوبر من العام ٢٠١٢، هو وماجي إلى
فيلاديلفيا حين اقترب إعصار ساندي من شواطئ نيو جيرسي . احتميا،
في إحدى الليالي، بحائط أسمتي متداعٍ، فسرى چارد عن ماجي بسر
حكايات عن الحرب العالمية الثانية. فتقول:

«جعل يثرثر أربع ساعات دونما توقف كمثل قنوات الأفلام
الوثائقية! يستطرد عن النازيين ودبابات بانزر وأيزنهاور وإنزال
نورماندي! ظننت أن تلك الحرب لن تنتهي».

كان يخوض حربه الخاصة. هاتفني لاحقاً ليحك لي تلك القصة:
«توقفنا عند محطة الوقود إذ أردت شراء شراب الطاقة جاتوريد،
ظننت أنه سيساعدني. كان صدري يوجعني وجعاً شديداً، وجعاً لم
أعرف مصدره، كاد يودي بي حقاً. لكن كانت هناك سيارة إسعاف،
على سبيل الحظ. طرقت على نافذتها وطلبت منهم أن يأخذوني إلى
المشفى».

أكانت ذبحة صدرية؟ كان لعائلته تاريخ من الذبحات. إذ مات
جدي لأبي بأمراض القلب وأعاني أنا من مرض بالشریان التاجي
ويعاني ابني من الرجفان الأذيني. شُخِّصَ چارد بتسارع ضربات القلب
وهي الحال التي تسبب في توالي ضربات القلب وصولاً أحياناً إلى
مائي ضربة في الدقيقة، بنحو أبطأ إيقاعاً من الخفقان الحاد. أكان ذلك
ذبحة صدرية أم كان چارد بصدد أن تعتريه نوبة؟ كانت ماجي قد رآته
يعاني تلك النوبات، فتقول:

«يحدق، لا يرى شيئاً، كان يعلم أن نوبةً قادمة، لم يفعل شيئاً سوى التحديق. صرخت به: يا جوبلن! فلم يرمش له جفن، كأنه لم يسمع شيئاً، فطفق يرتعش بتلك الرجفات التي تعتري الجسد برمته، وأصدر تلك الأصوات الغريبة ومن ثم يسقط أرضاً ويُغشى عليه. حينها طلبنا الإسعاف».

وحين تواترت تلك النوبات هاتفني چارد. أخبرني أن الأطباء بمشفى نازرث أعطوه حبة بيضاء، باسطاً للعضلات أو ما شابه. «لست أعلم ما أعطوني بحق السماء. قالوا ينبغي عليّ البقاء لثلاثة أو أربعة أيام لتخلص من السموم وإعادة التأهيل».

فسألت:

- ألا تزال في المشفى؟

- بالطبع لا، سجلت خروجي منه.

قال ذلك بحدة وسرعة فكأنما كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لقول ذلك، وكأنما قد قاده ذلك الإسعاف السحري إلى أرض الأعداء ليهرب منها بجلده. قلت:

- بم تفكر يا چارد؟ عليك الرجوع إلى ذلك المشفى، ليس بإمكانك البقاء في الطرقات الآن.

فقال:

- لست أكف عن الشراب يا جدي.

كففت عن ذكر المشفى، ليس ثمة فائدة من إقناع مدمن، وإن كان حفيدك. وحين قر قراره لأن يستمر في الإدمان قلت له:

- هاتفني حينما تصل إلى مكان آمن.

ترك مشفى نازرث تمامًا كما فعل مع سابقه في آن هاربر رغم نصائح الطبيب. فأعطاه المشفى، من جديد، ما يحتاج إليه: الإراحة الفورية من آثار انسحاب الكحول، لكنه رفض تلك المرة ترك الخمر وإعادة التأهيل بعناد، حد أنه غادره من دون ملابسه التي صادرها الفريق الطبي لوجود القمل بها. غادره بلباس المشفى الطبي الرقيق والجوارب. غادر المشفى، على غير المنطق في حين هبوب الإعصار، ورغم نصائح الطبيب، باللباس الطبي القطني والجوارب.

كانت ماجي برفقته. هاتفنت، طلبًا للمساعدة، الشخص الوحيد الذي تعرفه في فيلاديلفيا، وهو أمريكي من أصول صينية، في الثانية والستين، والذي كان قد صادقهما باكرًا ذلك الأسبوع. قال چون ونج إن وشم وجه چارد أثاره. كان أيضًا فضوليًّا لأن يعرف الحياة التي أَلقت بأولئك الفتية في الطرقات. «عرفت أنهم كانوا فتية مولعين باستقلال القطارات، كانوا فتية متسكعين، كانوا طيبي القلب».

مدَّ ونج چارد بالثياب وبزوج من الأحذية الذي كان، رغم كبره بقياسين، أفضل حالًا من الجوارب. قضى چارد ليله قرب ماجي خلف مبنى للتضامن الاجتماعي. ومن ثَم اختفى. كان قد استيقظ وتسكع تاركًا ماجي وراءه. لم تستطع ماجي إيجادَه بين الساعة السادسة صباحًا والحادية عشرة يوم ضرب إعصار ساندي فيلاديلفيا. وبحلول هذا الوقت أهالت العاصفة ٨٢, ١ بوصة من الأمطار. وبلغت سرعة الرياح اثنين وستين ميلًا في الساعة. وكانت الحرارة الدنيا واحدًا وخمسين درجة فهرنهايت.

وكان من بين صفوف المذهولين باختفائه چارد بنفسه. فجاء أول ذكر عن مظانه في مهاتفة مع أمه، إلا أنه لم يستطع أن يخبرها الكثير. فارتاعت لين على الفور ومن ثم استراحت حينما هاتفني ليلاً مخبراً بنياً مربع: «قال چارد إنه عند إحدى الصيدليات في مكانٍ ما في جنوب فيلاديلفيا. ليس يعلم كيف وصل إلى هناك أو كم من الوقت كان يمشي، لا بد أنها كانت تمشية طويلة للغاية من حيث مبنى التضامن الاجتماعي في الجانب الآخر من البلدة».

خاض عبر وابل الأمطار الذي خلفه الإعصار وعبر الريح الزمهرير. فكان، من حسن حظه، أن غيّبته القودكا الرخيصة الممزوجة بالعقاقير التي صرفها المشفى له. تقطعت به السبل حد أن قال لأمه: «أبحث عن ماجي».

فهاتفت لين ماجي والتي بدورها هاتفت ونج الذي مرّ عليها بسيارته عبر فيلاديلفيا بحثاً عن تلك الصيدلية وعن چارد.

فيقول ونج: «رحل ببساطة من حيث كانا. سمعنا أن توجه إلى غرب فيلاديلفيا عبر حي خطر للسود لا يأمن المرء فيه. ولكي يصل إلى تلك الصيدلية، اضطر إلى استقلال القطار المعلق أو المشي لساعات. وصلنا إلى هناك فذرعنا الشارع لبضع ساعات. ومن ثم ظهر».

أخبرني چارد تلك الليلة عبر الهاتف:

- لست أذكر تركي لماجي، كنت مرتبكاً للغاية.

- أتذكر أي شيء على الإطلاق؟

- أتذكر حديثي مع أناس وهميين.

- چارد!

- أعلم يا جدي.

- أنت بخير الآن؟

- أشعر بتحسن، لست أبله على أي حال.

كان حفيدي غارقاً في هلوساته مزهواً بأنه ليس أبله. أردت، حين سماعي إياه، أن أنوح، أن أصرخ وأدعو الله. أردت أن أغير ما يحدث. إلا أنني لم أفعل شيئاً، ففي ذلك الوقت علمت أن لا شيء يتغير، سقطنا في هوة ظلماء ليس ينفذ فيها النور أبداً. ضحكت.

- من الآن فصاعداً يا بني، اسد لي معروفين.

- أجل.

- اترك القودكا.

- أعلم هذا.

- وابتعد عن الأعاصير.

تذكر ملاحظاتي مهاتفة أخرى بعد شهرين، في الرابع من ديسمبر للعام ٢٠١٢. إذ كان چارد وماجي ذهبا من فيلاديلفيا إلى بيت أمها كايلا في ماونت أيري، عند سفح جبال الأبلاتش في شمال كارولينا. قال:

- أشعر بتحسن الآن، لست بسوء.

فقال جده متضرعاً:

- عليك ترك الخمر.

- توقفت أنا وماجي.

- توقفا تمامًا، لا تشربا قطرة واحدة، أتفهمني؟

- لن يُعشى علينا من الآن فصاعدًا، ولسنا نعاني النوبات.

- حسنًا، استمرا بذلك.

- أجل، النوبات ليست هينة.

يكذب مدمنو الكحول، يكذبون على أصدقائهم وعائلاتهم وعلى أنفسهم. يكذبون حفاظًا على فرصة معاقرتهم الخمر من جديد. كنت أعلم أن مدمني الخمر في حاجة إلى الكذب، علمت ذلك حين دونت ملاحظاتي في ذلك اليوم من ديسمبر للعام ٢٠١٢. لكن چارد كان حفيدي، فأحيانًا نصدق ما نود تصديقه لا ما هو قابل للتصديق، فزردت تصديق أن چارد استثناءً لتلك القاعدة؛ أن بمقدوره إخباري بالحقيقة، ولربما كان يخبرني بالحقيقة فعلاً. ذلك أن نما إلى علمي أنه لم يخبرني الحقيقة كاملةً.

كانت الحقيقة كاملةً لتتضمن ذكر رحلته من الجحيم.

حكاية ما جي

كان ذلك قرب منتصف نوفمبر للعام ٢٠١٢. احتاجت إحدى صديقتي المصابة بالشلل الدماغي إلى أن تصل من تشارلوت إلى هيوستن. بإمكانك توصيلي؟ كانت ستقضي أنا وچارلوت مائة دولار. كنا لننقلها إلى بيت خليلها ومن ثم تقود سيارتها إلى شمال كارولينا.

وعليه قدنا بها إلى هيوستن، إلا أن المشكلات نشبت في اليوم الثاني. فقد مرض چارد وتشاجرت تلك اللعينة مع خليلها، فأرادت منا أن نعيدها إلى تشارلوت في الحال.

كانت قد أنقذتنا خمسين دولارًا ونحن في طريقنا على أن تعطينا الخمسين الأخرى لاحقًا. لكننا أنفقنا الخمسين الأولى في طريقنا إلى هيوستن، والآن ليس لدينا نقود، ومرض چارد يعوقنا عن أن نشحذ. كان عليّ أن أخرج لأتحصل على المال للطعام قبل رحيلنا إلى شمال كارولينا، فهي تبعد ألف ميل!

وبمرور خمس ساعات من القيادة السريعة، بدأ چارد في تقيؤ الدم وكنا لا نزال في تكساس في الثانية صباحًا ولم نقم في فندق بعد. لم يسؤ تقيؤه بعد، ظننت هذا حتى رأيت بقعًا داكنة على الأرضية. قال چارد إنها كانت بصاقًا، فقلت له: «لا يترك البصاق بقعًا داكنة. إن هذا دم، إن ساء الأمر فستتوجه إلى المشفى»، فقال: «كلا، كلا. سأكون بخير حال».

ساءت حاله حين قدنا اليوم التالي، واستمرت في التدهور

بينما كنت أقود وتلك اللعينة بجواري تشكو من چارد لتلطixه سيارتها. بدا أن چارد، في المقعد الخلفي، يحتضر، كان يتقيأ الدم في كل مكان ملطخًا نفسه.

كنت أقود، بكل ما أوتيت من قوة، ويدي على المقود والأخرى تقيم رأس چارد وتتحسس نبضه، في حين كانت آنذاك تنذر من قيادتي السريعة. صرخت فيها: «ماذا تريدین؟ ماذا تريدین؟ استمري في فعلك وسألقي بك ههنا لتمشي إيابًا إلى تشارلوت». قالت: «اهدئي». فقلت: «تبًّا لك، لن أهدأ، إليك عني ودعيني أقود». ومن ثم جعلتني أتوقف كي أشتري لها شطيرة برجر بالجبين.

ثم هاتفت أمي من لويزيانا: «ماذا عليّ فعله؟». كانت تهاتفني كل ساعة لتدفع النوم عني حتى قرابة سبارتنبورج في جنوب كارولينا، فأخبرتها أن تقابلنا عند بيت تلك اللعينة في تشارلوت. كنت أقود، آنذاك، لثماني عشرة ساعة متصلة أو ما قارب، ومن ثم وصلنا إلى بيتها في تشارلوت. أتدري ما فعل أبوا الفتاة حينما رأيا دم چارد؟ لم يسمحا لنا بولوج منزلهما. كان چارد يغيب عن وعيه. «إني أصدر ضوضاء، آسفة»، قلت له «تقيأ بصوت أعلى».

كانت الساعة الرابعة صباحًا والحرارة ثلاثين فهرنهايت. فاضطررنا إلى البقاء في الظلام. أرادت أمي أن تأخذنا إلى قسم الطوارئ في تشارلوت، لكنني ظننت أننا سنبقى الليل برمته. أخذتنا بسيارتها فوجهنا إلى مشفى ماونت أيري على مبعدة تسعين ميلًا. صرخت في تلك اللعينة برحيلنا: «أعطيني الخمسين دولارًا!».

حكاية كايل

كانت الرحلة بين تشارلوت وماونت أيري أحد أسوأ أيام حياتي. كنت معجبة، طوال الطريق، بتفاني ماجي في رعاية جارد. كان غارقاً بالدماء، كان يتقيأ فتفوح منه تلك الرائحة الكريهة. كانت ماجي تحتوي دمه في أكواب نازعة القيء من فمه. فكان يقول: «آسف، آسف». وكنا نحاول تهدئته قدر استطاعتنا.

قدت بأسرع ما أمكنني من دون الاصطدام بشيء. حسبته سيموت في العربة، كانت ماجي متكئة على ركبتها في المقعد الأمامي لتقيم رأسه، تقول: «تنقصنا ساعة أخرى يا عزيزي، تماسك». انصب تركيزها بالكامل عليه، حتى بعد يومين ونصف اليوم من القيادة المتصلة. لم تكن لتسمح له بالموت، كانت تحبه. رباه كم كانت تحبه لتفعل كل هذا! رأيت ماجي أخرى آنذاك، واحدة لم أرها من قبل. لم تكن تلك الفتاة اللعينة الباردة التي لا تحدثني، كنا نخوض ذلك معاً.

وما إن وصلنا إلى المشفى، حتى ساعدته في ولوجه وبقيت هنالك كل يوم؛ النهار بأكمله، وللأيام التالية، حتى استرد عافيته وعاد إلى المنزل.



خططت ماجي في البدء أن تبقى مع چارد في بيت أمها لمدة قصيرة، ومن ثم يذهبان إلى أحضان الجو الدافئ، في الطريق. لكنهما، بعد مغادرة چارد للمستشفى، قد وضعا لنفسيهما حدًا. قضيا الشتاء في مدينة ماونت أيري، ولأول مرة منذ سنوات، لم يشملا طوال الأربع والعشرين ساعة كما كانا يفعلان من قبل، لأن كايل لم تكن تبيح شرب الخمر في منزلها. تلك الشهور السعيدة التي قضوها في كارولينا الشمالية سمحت لهذين المتجولين أن يتخيلا حياة بعيدة عن الطريق. أحيانًا ما نسمع ما نودُّ سماعه.

عندما هاتفني چارد من ماونت أيري وقال لي: «سنمكث هنا لبعض الوقت»، سمعتُ همسة أمل في تلك الجملة البسيطة العذبة. تمنيتُ أن يكون قد ملَّ الركض والشُّكر وتحملُّ الألم. تمنيتُ أن يكون قد استجاب لتحذيرات الدكتور هولوشيتز، واستوعب الحب في وعظون تومينو له.

أحيانًا ما نرى ما نودُّ رؤيته.

رأيتُ الأمل على شكل قطة. أخبرني چارد أنه ذات يوم، بعد خروجه من المستشفى، كان يجلس في شرفة منزل كايل الأمامية، حين جاءت قطة

صغيرة، ذهبية اللون، ووحيدة، كانت ترتعش فتسلقت فخذيه. كان الصبي قد تربى مع القطط لأن أمه آوت ستاً منها في آنٍ واحد. قالت لي لين ذات مرة: «كنت أدللها كثيراً حد أن چارد قال لي يوماً: «عندما أعود يا أمي، أودُّ أن أصير مثل «قططك»». أسمى چارد تلك القطعة الذهبية الصغير سڤد، واصطحبها معه إلى داخل المنزل. لذلك تمنيتُ أن تُذكره تلك القطعة ببيته وأمه. وتمنيتُ أن تكون سڤد سبباً في بقائه لمدة أطول في ماونت أيري.

استمتع چارد بوقته في منزل كايل. قال: «الأجواء لطيفة هنا. والدة ماجي لديها كلبان أسمتهما «فيونا» و«روبي». ستحبهما إن رأيتهما، فهما يشبهان هرقل وچاكسون». كان هرقل كلب أبيه، أسود وقوي البنية. أما چاكسون فهو كلبنا ذو الفراء الأحمر، الذي كان ضالاً، ثم خرج من الغابة وجاء إلى منزلنا واستقر فيه.

أحياناً ما نُصدّق ما نودُّ تصديقه.

ولذلك صدّقتُ، في اللحظة التي حكى لي فيها عن كلبين قذرين رآهما في فيرجينيا، أنه أراد أن يكون معنا، أراد العودة إلى بيته.

أخبرني چارد أيضاً في تقريره عن أهم حدث في ذلك اليوم: «أن ماجي لمّعت مندولينها».

سألته: هل كان متسخاً؟

فضحك وقال: «كانت تحمله معها في كل مكان، فهي تحب ذلك المندولين، وتحب لونه الأخضر. إنه حقاً أخضر! مندولين أخضر جداً! وكم تعشق هي ذلك اللون!».

لأول مرة، شعرت ماجي بالسعادة في ماونت أيري. فقد كانت تتحدث مع أمها عبر الهاتف فقط، مرتين أو ثلاث مرات ليس إلا، منذ مغادرتها سجن الأحداث قبل خمس سنوات. قضت ماجي جُلّ مراهقتها في التنقل والترحال. كانت تبلغ العاشرة من عمرها حينما غادر أبوها منزلهم إلى الأبد. تقول إنها سُرّت برحيله لأنه كان «رجلاً فقيراً من الجنوب الأمريكي، لا يفعل شيئاً سوى الشُّكر، ومشاهدة سباقات السيارات ومباريات المصارعة في التلفاز». وعلى الرغم من ذلك، فقد عاشت ماجي في لونج آيلاند مع أبيها، الذي صار بائع سيارات بعد انفصاله عن أمها. لم تجد ابنة الرجل الفقير راحتها في مدرسة كوينز الثانوية بكل مَنْ فيها من «الأميرات اليهوديات الأمريكيات وسيارات الليموزين الخاصة بهن». لكن ماجي أحبّت المدينة. قالت: «نيويورك! حيث يقطن جميع فاسقي العالم! احتفلتُ هناك أيما احتفال!». بعد عودتها إلى ماونت أيري لتُنهي السنة الثانوية الأخيرة («التي لم تنتهِ على نحوٍ جيد»)، رفضت الذهاب إلى المدرسة الأولى، ثم انتقلت من مدرسة إلى أخرى، لتنتهي بها الحال في سجن الأحداث، لكن بأي تهمة؟ «الوقوع في المتاعب».

خلال تلك السنوات، لم تُمثل ماونت أيري شيئاً لها. تلك البلدة الصغيرة، التي تقع بالقرب من سفوح جبال الأپلاش، مشهورة فقط بأنها مسقط رأس الممثل آندي جريفيث، وبها صُوّر برنامج التلفزيوني الأيقوني «ماييري». لم يحدث أن زارت ماجي متحف آندي جريفيث، الذي به تمثال لآندي وأوبي وهما ذاهبان للصيد، ولم تتناول الطعام في

مقهى بارنيز، ولم تشاهد قصّة شعر واحدة في صالون فلويد للحلاقة، بل كانت -غالبًا- تغادر ماونت أيري إلى أي مكانٍ آخر.

لكن تلك المرة كانت مختلفة، فقد كانت متحمسة لوجودها هناك. ولأسباب لم تستطع شرحها «حتى لنفسها»، كانت أمها تريد أن تقابل ذلك الشاب الذي يُدعى جوبلن.

في الثالث من يناير عام ٢٠١٣، تسلّق چارد وماجي السلم الخشبي الذي يؤدي إلى أكثر مكانٍ غير عادي يحبان النوم فيه: السندرة غير مكتملة البناء، التي تقع فوق غرفة نوم كايل.

كانت كايل في البدء تستخدم السندرة كغرفة تخزين، ثم حوّلتها إلى غرفة خياطة. أما الآن، فقد جعلتها غرفة نوم للمتجولين اللذين أتوا لقضاء الشتاء. وضعت ماجي، بمساعدة چارد، فراشًا على الأرض، ومنضدة، وخزانة صغيرة، وعلّقوا علم الولايات المتحدة على الحائط. تلك الغرفة الصغيرة في ماونت أيري كانت موطنًا لهما، أو بالأحرى كانت مهربًا من كل ما يهربان منه.

كان لماجي أحباء سابقون، لكن كايل لم تُعجّب بأي أحد منهم. أما چارد فلم تتوجس منه خيفة، فقد كان مهذبًا ولطيفًا، لكنها رأتَه هشًّا وضعيفًا في الوقت ذاته، وبحاجةٍ إلى الاعتناء كي يستعيد صحته.

قالت: «لقد ذهبنا إلى سينما إيرل معًا؛ أنا وچارد فقط».

وفي صالة السينما العتيقة تلك، التي تقع في شارع «مين»، شاهدنا فيلم لنكن.

قالت كايلا: «وبعد ذلك، حكى لي قصصًا عن الحرب الأهلية». وكان يغسل الصحون من دون أن يطلب منه أحد أن يفعل ذلك؛ أي أنه كان يغسلها بدافع شخصي.

كان يقول بعدما يتناول العشاء: «لن أغسلها الآن بل في الصباح»، ثم يُوفي بوعده كل يوم في الساعة السابعة والنصف صباحًا.

وحينما كانت كايلا تطلب منه القيام بشيء في المنزل، كان يستجيب: «كلما طلبتُ منه أن يُفرغ السماد في صندوق القمامة في أي وقتٍ يحبه، كان يقفز من فوق الطاولة لينفذ طلبي في التو واللحظة».

كما كان يُطعم سَيد وديكسي وفيونا وروبي كل صباح، ثم يغسل الصحون، ويصنع لنفسه وعاءً من رقائق الذرة، ثم آخر، وبعده آخر. قال لي ذات يوم: «كنتُ أكل الكثير من رقائق الذرة، وأشرب الكثير من الحليب، لأنني لم أملك شيئًا آخر لأقوم به».

وضعت كايلا قانونًا واحدًا لچاردي وماجي: «ألا يشربا الخمر في منزلها». فقد خاضت في ذلك البحر المظلم مع زوج لها من قبل، وكانت مع ابنتها وچاردي في السيارة، فأحاطت بهما الدماء من كل جانب. قالت لهما إن شرب الخمر ممنوع، وكانت تفتش يوميًا تحت فراش السندرة عن أي زجاجات، وكذلك صندوق القمامة في المطبخ، إلا أنها لم تجد شيئًا.

قالت ماجي لاحقًا: «خلال الأسبوعين اللذين قضاهما چارد في المستشفى ليتعافى، لم أشرب سوى ربع جالون من الفودكا، ثم حاولتُ

السيطرة على نفسي قبل عودته إلى المنزل. حينئذٍ أراد العودة للشرب، وكان بالفعل سيعود لو كنتُ شاركتَه، لكنها حماقة لم أود اقترافها. لذلك لم أشرب، ولم يشرب هو. وصِرنا في حالٍ حسنة».

ثم أكملتُ بعد ذلك قائلةً: «لكنه استغرق وقتًا، لأنه كان غاضبًا ويقول دائمًا: «أودُّ أن أستمِر في السُّكر». فقلتُ له ذات يوم: «لقد كنتَ متعبًا للغاية هذه المرة، لذلك سأساعدك على التحسُّن، لكنني لن أعينك على قتل نفسك!». لن أكذب عليك، كان الأمر صعبًا حقًّا. لم يستطع حينها التحكُّم في أعصابه، فتركته يصرخ في وجهي، ثم قلتُ له: «إنك لن تقوم بأي تصرُّف يجعلني أبتعد عن حياتك»».

إذن فالشودكا ممنوعة.

ثم في ليلة يوم الجمعة، ذهب چارد إلى كايلا، وسألها، ورجاها، إن كان من الممكن أن يشربا البيرة.

قالت:

- كلا. لا.

- واحدة فقط.

- قلتُ لا.

- أرجوكم، إنها ليلة الجمعة!

- لا.

فغادر المنزل، وحينها أخبرتُ ماجي أمها بالآ تقلق، ونصحتها بأن تتركه يهدأ لأنه سيعود حتمًا بعد نصف ساعة. وقد كان.

اتفقوا في النهاية على شرب زجاجة بيرة واحدة في الأسبوع، من حجم الأربعين أونصة. اشتروها من متجر بقالة ريد بارن، الذي يديره مهاجرون من المكسيك، حيث كانوا يتوقفون يوميًا في أثناء تمشيتهم للكلاب، أو بالأحرى حينما كان ديكسي يجرد جارد خلفه ليجوب الحي. قالوا إنهما تقاسما الزجاجة نفسها.

أحيانًا ما كان يتسلل العالم الذي تركاه خلفهما إلى مخبئهما بالسندرة. وصلتهما إشاعات من «كلاب الطريق» في مارس من العام ٢٠١٣ عن جريمة قتل حدثت في كاليفورنيا: «بعض الفتية الرحّالة أوسعوا مراهقًا ضربًا وتركوه ليموت». تعرّف جارد على اسم واحد من بين الأسماء: «إدو»، الفتى الذي قابله في نيو أورلينز. لكنه لم يعرف الاسمين الآخرين؛ چولز وآجرو.

قالت ماجي: «تَبًّا»، وقال جارد: «يا لهم من أندال حمقى».

كل أسبوعين، كان يُهاتف صديقه من فيرفاكس ومُعَلِّمه مايكل ستيفن.

قال ستيفن: «في بداية إقامته بماونت أيري، كان يشعر بالملل وعدم الراحة ولم يكن يعلم ما يجب عليه فعله. لكنه اتصل بي بعد فترة وأخبرني بمدى سعادته بالاستيقاظ عند شروق الشمس، وتحضيره لفطوره، وغسله للصبحون، ثم بحيرته تجاه ما عليه فعله بعد ذلك، فكان يُعد الفطور والقهوة للجميع، فتُصَيِّبه الحيرة من جديد، فيتولى مهام النظافة، وينظف المطبخ، ثم يخرج ليعمل في الحديقة، ثم يأخذ قسطًا من الراحة لمشاهدة التلفاز. وعندما يغادر الجميع، يعود لينظف المنزل».

يكمل قائلاً: «شعرتُ تجاهه بالفخر الشديد، فقلتُ له: «أترى؟ لقد برزتَ شخصيتك الحقيقية عندما تخليت عن الخمر يا چارد. إنك شخص متعاون، ومهذب، ولطيف. شخصٌ صالح إجمالاً». ففرح وصار فخوراً بنفسه».

يتذكر ستيفن عندما اتصل چارد به من خارج مطعم صيني. قال: «سمعتُ ماجي تقول شيئاً عن آلة طبع الصحف الصينية. فقال لها چارد: «إنها ليست صينية، بل كورية». ثم حدث نفسه وهو في حالة من الصدمة قائلاً: «كيف عرفتُ ذلك بحق السماء؟»، فأجبتُه أنا: «لقد عرفتَ ذلك يا چارد لأنك ذكي جداً، أذكى من الشخص العادي، وأذكى بكثير مما قد تظن عن نفسك. لو لم تكن ذكياً لتلك الدرجة لما صرتُ صديقك»».

عمل چارد أيضاً مع نجار اسمه بوتش، الذي كان صديقاً لكايلا ونفذ لها بعض الأشياء في المنزل.

يقول بوتش: «كنا في الشتاء، لكنه لم يرتد شيئاً سوى سروال من دون قميص. ولم يبدُ أن ذلك أزعجه قيد أنملة. كنتُ أدفع له عشرة دولارات في الساعة، وأمر عليه كل صباح في المنزل كي أصرطحه للعمل. دارت بيننا محادثات عظيمة في طريقنا للعمل، معظمها عن رحلاته. كان رجلاً طوّافاً».

في بلدة فريز بفيرجينيا، التي يفصل بينها وبين ماونت أيري في الجنوب نحو نصف ساعة، بنى بوتش وچارد شرفةً لأحد المنازل.

«كان يعمل بالمنشار ومضبّط الزاوية، واستطاع القيام بكل ما طلبته منه. في أحد الأيام، كنا نواجه مشكلة مع تصميم الشرفة، فاقترح طريقةً مختلفة وكان على حق! إنه شاب مشرق وعامل جيد».

قال لي چارد في إحدى المكالمات: «العمل مع بوتش لطيف. إنه رجل عجوز يريد تعليمي بعض الأشياء. عندما واجهنا مشكلة الشرفة تلك، قلتُ له: «لماذا لا نضع الروافد بتلك الطريقة؟». فنجح الأمر! كنا سعيدين في ذلك اليوم».

في ليالي ماونت أيري، عندما تكون في الرابعة والعشرين من عمرك وتحاول ادخار المال والابتعاد عن الشراب بعدما كنت تشرب يوميًا، ماذا عساک أن تفعل؟

- لقد رأيتُ جهاز إكس بوكس مستعملًا معروضًا للبيع يا جدي، ثمنه ٢٠٠ دولار فقط.

- سأرسل لك شيكًا.

- وأريد شراء بعض السراويل الصيفية أيضًا لأنني لا أملك سوى سراويل الشتاء المبطنة.

كانت تلك أخبارًا سعيدة، فإن چارد الذي أقام في ماونت أيري كان هو چارد الذي عرفناه.

والأهم أنه في الثامن والعشرين من فبراير عام ٢٠١٣، قال لي: «لقد ذهبتُ إلى الطبيب أمس، فأخبرني أن ضغط الدم مثالي، وأن كليتي في حالة جيدة. أخبرني إجمالاً أن صحتي جيدة جدًا».

تمنت كايلا أن يكون چارد قد وجد سبباً ليتوقف عن الترحال: «لقد تحسّن سلوكه كثيراً. كان من قبل شخصاً بلا هدف، لا أعرف لماذا، لكنه أدرك قيمته عندما شعر أن الكل معجب به. كان شخصاً لا يهتم بما قد يحدث في اليوم التالي، ثم تحوّل -في أثناء وجوده هنا- إلى مَنْ قال لماجي: «إذا صرْتُ عاجزاً، فسنبقى معاً. سأعمل مع بوتش، وستبحثين أنتِ عن عمل، وهكذا سنستقر معاً في مكانٍ ما»».

تحدث چارد وماجي في السندرة طوال الليل.

لم يكن الأمر يشبه ما قاله كير واك^(٢٦) عن اشتياقه لحياةٍ مختلفة حينما كتب: «أريد أن أتزوج فتاة يمكنني أن أريح روحي معها، إلى أن نشيخ معاً. لن يستمر ذلك طوال الوقت، أقصد الجنون والقفز من مكانٍ إلى آخر؛ علينا أن نذهب إلى مكانٍ ما، لنجد شيئاً ما»^(٢٧). لقد كان الأمر أفضل من ذلك، لأن ماجي وچارد كانا يبحثان عما هو أكثر من مجرد نهاية للجنون اللحظي، الذي قد يُرجعهما إلى حياةٍ عرفاها من قبل. تجرأ كلاهما على تخيل نفسيهما شخصين مختلفين، يعيشان حياةً لم يعرفاها قط.

قالت ماجي: «تحدثنا معاً من قبل عن رغبتنا في الاستقرار في بيتٍ لنا، والبعد عن الطريق، وأن نتعرف على أصدقاء جدد».

وقد حدث أن تغيّرت طريقة تفكير چارد تغييراً جذرياً، حد أنني سمعته للمرة الأولى يتحدث عن خطط تمتد لما هو أبعد من القفز من القطار.

(٢٦) شاعر وروائي أمريكي، اشتهر بتحطيمه للتقاليد الأدبية، وكتاباته عن موضوعات شتى مثل الروحانيات والجنس والمخدرات والسفر.

(٢٧) المقتطف من رواية «على الطريق» لكير واك.

قال: «أحاول أنا وماجي ادخار النقود لشكري شاحنة أو سيارة. أعتقد أنني سأبقى هنا لبعض الوقت لأتغلب على عجزتي أيضًا. رأيتُ إعلانًا عن وظيفة أثارت اهتمامي. لا أتذكر المسمى الوظيفي، لكن الأمر أشبه بأن أكون مسؤولًا عن بناية ما، وعليَّ أن أصلح أشياء. وسأعيش هناك مجانًا. كما أنني تقدمتُ لوظيفة بأحد مطاعم الوجبات السريعة. ماجي أيضًا حدثتني عن رغبتها في الذهاب إلى مدرسة تعليم لحام».

لحام؟

أجل، لحام.

ماجي تتحدث عن اللحام؟

لم يذكر أحد اللحام بمثل تلك الطريقة اللطيفة من قبل.

علمت لين ما قيل من موقعها في ميرتل بيتش. كان ولداها يبلغان الرابعة والعشرين في ذلك الوقت، ولم يبدُ لها أن أحدًا منهما قد يخطو خطوة في طريق الزواج. لكن چارد، المقيم حينذاك في ماونت أيري، تحدث عن مستقبله مع عاملة لحام جميلة تُدعى ماجي. وكان ذلك كافيًا بالنسبة إلى لين، كما كان كافيًا لي قبل ست وعشرين سنة عندما وقفتُ أمام مكتبي في چورچيا وسألتني إن كان يمكنها الزواج بابني.

جاء رد لين على الكلام اللطيف الذي أتاها من ماونت أيري مختلفًا عن ردي عليه، فقط لأنها لم تعلم نوع الأطفال وعددهم وموعد ولادتهم. اكتفت بقول: «سيكونون أحفادي! وسأدللهم أيما تدليل!».

استمتعت كمثل لين بفرح چارد وماجي كونهما في شمال كارولينا. لم يكننا ضغينة تجاه أُمي في إلينوي ذلك الشتاء. فدفعَت بكرسيها في أحد الأيام عبر رواقدار المسنين، واستدارت بنهاية الرواق ناظرةً إلى طرفه القصبي لتقول شيئًا غريبًا، كما تفعل الأمهات إن حالفهن الحظ والشجاعة الكافيان لبلوغ تلك السن المتقدمة. نظرت تجاه هذا الرواق الطويل الصقيل اللامع وقالت: «كم أتمنى لو كان لديَّ حذاء للترحلق».

استعادت أُمي، إثر هروبها من المشفى حيث أعلن طبيب عن حالتها بكونها محتضرة، عافيتها وحماستها. فكانت تحيتها الدائمة لزائريها فيدار المسنين: «ما زلت حية أرزق، صدِّق أو لا تصدِّق». وأطلق عليها طبيب العلاج الطبيعي «بطلتي الخارقة»، وذكر أن أُمي قادرةٌ، من كرسيها المتحرك، على رقص رقصة الكان-كان. وأعلن رجلٌ كان يمكث في الغرفة المجاورة لها حين شاع عن سمعة أُمي أنها أسعد قاطني البيت. فيقول عنها: «هي عصفورنا الضاحك».

وها هي ذي عصفورنا الضاحك في الخامسة والتسعين من عمرها تود لو ترتدي حذاء الترحلق لترحلق في الساحة كما كانت تفعل يومًا

ما على الأرضفة. كانت حماسها استثنائية في أي عمر وفي أي مكان. وكان ذلك استثنائياً في ذلك اليوم، إذ كانت على علم بأن تلك الكتلة في ثديها الأيسر هي على الأرجح سرطانية.

لم ترَ أُمي داعياً للقلق، إذ كانت قد عاشت لتشهد موت زوجها وعاشت برفقة المسنين الذين يخطفهم الموت في ثانية. أدركت أن الموت في طريقه إليها، فإن لم ترَحَّب به فليست تقدر على درئه. ما زلت أذكر ذلك اليوم في صالة دار المسنين حينما أعلنت عن اتفاقها مع القدر قائلة: «حين أصل إلى أرذل العمر، سأموت».

كلنا ذائقٌ للموت، لا محالة. يعيش أولئك الذين يتقبلون الأمر حتى الاحتضار، ويموت الآخرون الخائفون ممن ليسوا يقدرّون على الهرب منه في أثناء عيشهم. كتب مونتين أن احتقار الموت يخلف سكيئة هاجعة ويمنح المرء مذاقاً نقيّاً ولذيذاً للعيش.

وشملت السكيئة السابعة التي كانت فيها أُمي قرارها أن تنفض يدها من المشافي. اقترح الطبيب الزائر لدار المسنين أن يجري فحصاً للورم لتحديد ما إذا كانت تعاني أُمي من السرطان. رفضت أختي ساندرّا التي مكثت بجانب أُمي يومياً طوال عقد من الزمان على الفور. «كفانا فحوصاً، كفانا مشافي». قالت: «وعدت أُمي بذلك»، ومن ثم ضحكت قائلة: «أُمي طاعنة في السن حد أنها تنسى إصابتها بالسرطان».

لا حرج على امرأة وُلدت خلال الحرب العالمية الأولى من أن تنسى تفصيلاً هنا وأخرى هناك. ذلك أن شغلّتها فعاليات بيت المُسنين على أي حال، ففي أيام الاثنين: أنشطة يدوية، وفي أيام الثلاثاء: نادي

الطهو، وفي أيام الأربعاء: تصفيف الشعر، وفي أيام الخميس: طلاء الأظفار - لأول مرة في عمرها، وفي أيام الجمعة: نادي البستنة، وفي أيام السبت: القداس الكاثوليكي برفقة صديقتها من دار المسنين لينا فينيري، وفي أيام الأحد: شعائر الكنيسة طبقاً للطوائف. ذلك كله بالإضافة إلى الفواصل الموسيقية وزيارات الفنانين المحليين وطبيب العلاج الطبيعي وعرض الأفلام وتقديم الفشار ولعب البينجو والسكرابل -أي تكوين الكلمات- حفظها الرب، كم أحبت ألعاب الكلمات! وبحلول سبتمبر في مورتون، تلك القرية الكريهة التي أصرت على كونها أكبر مورد لليقطين في العالم، دفعت أمي ولينا بكرسيهما بجانب موكب احتفالية اليقطين، تقذفان جموع المشاهدين بالحلويات.

ارتدت أمي، كونها هاوية لرياضة البيسبول، قميص فرقة كابز القرمزي لمشاهدة مباراة الكابز ضد الكاردينالز في صالة ضيوفدار المسنين. كنت الحَكَم في تلك المباراة فلاحظت أمي ميلاً لصالح الكاردينالز. فقلت لها: «ذلك خطأك، تركتني أسهر تلك الليالي الطوال أستمع إلى هاري كاري».

أعتقد أن أمي تجاهلت السرطان المستشري في ثديها عوضاً عن أن تمنيه باضطرابها. تحملت المورفين في المراحل الأولى من الألم لتقبل الأدوية الأقوى فيما بعد. كانت تعلم، في كل يوم، إلى أين سيأخذها ذلك. إلا أنها لم تبكِ يوماً، ولم تُرد أن يشفق عليها أحد.

سمعتها، في سنيها الأخيرة، تخبر عن أمنيّة:

«أريد من الكابز، قبل مماتي، أن يشاركوا في بطولة العالم».

كانت، في احتضارها، عائشةً.

تعلمت تلك الخدعة في ١٩٦٣.

أراها أبي كيف تفعلها.

كانت ماري ماجدлина مالوني في الثانية والعشرين من عمرها حين تزوجت چون ديفيد كندر، سائق الشاحنة، والنجار صانع الأثاث البالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، من أتلانتا في إلينوي. كانا قد تقابلا في لينكون حين كانت تعمل طاهية في مطعم والدتها ميدواي، وهو إحدى استراحات طريق ٦٦. كنت بكريهما وتبعني ساندرا بعد عام. عشنا في بيت أتلانتا بحذاء الطرق الحديدية السائرة بموازية الطريق ٦٦. كنت، ولا أزال، أحب هذا البيت. سيظل، أبد الدهر، بيتنا وسنُقي عليه لأن أبانا أخبرنا بأنه يظل موطناً للعيش مهما طعنت بنا السن، ومهما تباينت الظروف؛ سيظل بيتاً يضمنا ويضمه وأمي. ولا أزال حتى الآن، عجوزاً، أجلس أسفل درجاته المؤدية نحو غرفة النوم حيث كان يمر، في أحد الأزمان الدافئة سابغة الأمان، قطار بضائع في العاشرة ليلاً مدوياً قرب منزلنا. ليت چارد كان نائماً في مثل هذا المكان!

امتلكنا مربعاً سكنياً كاملاً. واحتل منزلنا زاوية منه. لم أكن أشبع من لعب البيسبول، فابتنى والدي ملعباً في الجانب الجنوبي من أرضنا. اقتطع جذور الشجر وحمل عنها الأحجار ومهد الأرض بالشباك المعدنية المثقلة بالقراميد وسواها بعربته للنقل، الفورد السوداء طراز العام ١٩٥٠ ذات النفير العالي. وحينما رغبت في أن أكون لاعب

بيسپول، جعل أبي يساعدي، فثبَّت قواعدَ خشبية في الأرض ليمد الأوتار بينها، فيقع أحد الأوتار في مستوى الأكتاف والآخر في مستوى الركبة، ليكون وتران آخران مثبتين بفارق سبع عشرة بوصة وصلًا للوتر الأعلى بالأسفل. فكان تسجيل النقاط، إذن، بقذف الكرة عبر هذا المستطيل الذي تصنعه الأوتار. ولكي أحسِّن من رمي للكرة كان أبي يقذفني بأكواز الذرة، فكان الأمر، كما يعلم جيدًا كل من حاول تلقف كوز ذرة من قبل، بمثابة تلقف نحلة طنانة في خضم إعصار. فكانت كرات البيسبول، بعد ذلك، أمرًا هينًا. وماذا عن باقي المربع السكني؟ كنا نربي الخنازير وأحيانًا نربي معزة. كان ذلك هدرًا إن كنت تسألني عن رأيي.

أردت أن أصبح لاعب بيسبول من العيار الثقيل -حتى اليوم الذي تحداني أبي، وهو كهل في السادسة والأربعين، للتسابق حتى القاعدة الأولى. يا له من رجل ساذج! كنت أنتعل حذاء رولينجز فليتفوت ذا الزوائد كالأشواك، وكان يضع القلم الرصاص خلف أذنه ويتنعل حذاء عمل النجارين سميك النعل. كانت حقيقة أنه فاز عليَّ في السباق بخطوة داعية لأن يكذب المراهق على أبيه كذبة جلية: سأحاول في المرة القادمة، لكن لم تكن ثمرة مرة ثانية. كانت خسارة سباق جري لصالح كهل تُنبئ عن غرقي في أحلام لعب البيسبول. ومات ذلك الحلم فور رؤيتي لكرة تُقذف بسرعة تسعين ميلًا في الساعة للمرة الأولى. أصبحت كاتبًا عن الرياضة.

كانا دومًا معًا: أبي وأمي. كان قد رحل عن الحرب العالمية الثانية

في العام ١٩٤٥ . وبحلول العام ١٩٤٩ كان يدرّب فرق البيسبول. كان يقود سيارته نصف النقل تجاوره أُمّي حتى بلدات زراعة الذرة، عبر قلب إلينوي، ليريا ابنهما في معترك المباراة. سألني أحدهم، مرةً إثر مباراة وطنية:

- مَنْ مدرّبك؟

فقلت:

- السيد سميث.

فأخذتني أُمّي جانبًا وقالت:

- أبوك هو المدرّب المساعد يا ديثيد. لَمْ لَمْ تقل هذا؟

كان أبي من المسلمات. كان هنالك دومًا، ولم أعرف إلا مؤخرًا -بعد وقت طويل- أن ليس كل الآباء يمكنون بجانب أطفالهم.

حل الشتاء، فكان موسم كرة السلة. بنى أبي ملعبًا في الباحة الخلفية، عبارة عن قائم يبلغ طوله ستة أقدام، وعرضه أربعة أقدام، ثبّته بالمسامير كي يقيم فيه حلقة. وصنع، كذلك، دولابًا لحمل جائزة فريق المدرسة: أتلانتا ردوينجز، واستخدم منشاره لحفر الحرف «أ» المجنح بالطلاء الأحمر. ولا يزال ذلك الحرف، بعد نصف قرن من الزمان، في متحف البلدة.

عانى أبي، في خريف العام ١٩٦٣، من ألم بمعدته. وكان ذلك بعد مرور اثني عشر عامًا منذ استأصل الأطباء في شيكاغو ورمًا سرطانيًا من ذقنه. كان في التاسعة والثلاثين آنذاك، فطلب منه الأطباء أن يعاودهم

كل ستة أشهر للفحص، وأخبروه أيضًا أن يقلع عن التدخين لأنه يسبب السرطان. فأعلن الجراح العام ليروي إي. بيرني، بعد انصرام ستة أعوام، تحديدًا في الثاني عشر من يونيو للعام ١٩٥٧، أن قطاع الخدمات الطبية الأمريكي قد توصل رسميًا -وبالأدلة- إلى أن ثمة علاقة بين التدخين وسرطان الرئة. ولم يقلع أبي عن التدخين، وقد كان يدخن السجائر منذ طفولته، غالبًا لأن صانعي السجائر قد تعمدوا إضافة المزيد من النيكوتين. ولم يعاود أبي الذهاب إلى شيكاغو لإجراء فحص آخر.

أجرى الأطباء، في أكتوبر للعام ١٩٦٣، فحصًا للتكتل في معدته فكان ورمًا خبيثًا. أخبروه أنه قد يعيش ستة أسابيع. فجمعت أُمي العائلة؛ أي هي وأنا وساندرا. قالت:

- يظن أبو كما أن عليه الرحيل إلى مكان آخر.

مكان آخر يموت فيه، لا في بيتنا، ليس بيننا. قالت:

- سنقترع، ولن يُؤخذ بصوته.

كان ذلك الاقتراع ثلاثة ضد لا شيء، لأن يبقَى أبي في موطنه.

كان، في بيته، يحتضر من سرطان الرئة الذي استشرى في جسده حين قال: «كان عالمًا جيدًا». كان قد ترك الدراسة بعد الصف الثامن ليشارك أباه في عمله في مصنع تقطيع الخشب، والآن يزهو بتخرجي في الجامعة في ذلك الصيف. كان أبي متأثفًا في بزته المخصصة للجنازات وحفلات الزفاف حين احتر بقيظ الظهيرة في أثناء حفل تخرج جامعة إلينوي ويسليان. ومنحناه، أنا وشيرل كذلك، حفيدًا. وارتدى أبي من

جديد، حين تزوجت ساندرا بهجيم ليتويلر في يونيو، بزته ليحملها إلى عريسها عبر رواق المذبح. فقال: «كل ما تمنيته لكما قد حدث».

لم أعرف بماذا أجبته. لم نعتد قط الحديث طويلاً. كان أبي في الحادية والخمسين وكنت في الثانية والعشرين وكنا نعيش معاً من دون أن يعرف أحدهما الآخر. فقد انحدر من نسل جيل صموت، تركوا الدراسة ليكدوا في أثناء الكساد العظيم ولتركوا عائلاتهم خلفهم للمشاركة في الحرب العالمية. كنت فتى يعلم القراءة والكتابة لا الكلام. كنت ألهث وأنا أجري في طريقي من المدرسة إلى ملعب البيسبول وللعمل ولبيتي ولزوجتي وابني. والآن، كان أبي يحتضر فأردت أن أعاونه. أردته أن يعلم أنني أحبه، لم أعرف إن كان على علم بذلك.

جلس، في إحدى الليالي، على طاولة المطبخ صامتاً. فوضعت يداً تربت على كتفه وقلت: «سأعلم ابني كل ما علمتني عن البيسبول». لم أكن أعرف كيف أخبره بأني أحبه. كان ذلك أقرب ما بإمكانني قوله؛ تشاركنا في البيسبول.

قال: «كلا، علّمه كل ما تعرفه، فأنت تعلم أكثر مما أعلم». وكان هذا أقرب ما بمقدوره التصريح به.

شرع أبي، بعد الفحص، في مشروع نجارة. كان يصنع لسنوات البنادق الخشبية، وكان آخر ما جاد به مسدساً من خشب البندق. أراد أن يعلقه بإطار، فكان يغيب عن المنزل لسويعات إلى حيث سقيفة قديمة أبقى فيها على مناشيره وعدته. اختار خشب البندق للإطار كذلك أدكن

لونا كي يمنح المسدس التباين الخلق به. فقطع الأجزاء الأربعة للإطار
كي تتواشج بدقة فلا تُرى الفوارق.

لم يبقَ سوى شيء واحد.

خارت قواه قبل أن ينهي الإطار، إذ كان قد خطط ليضع في خلفيته
قماشًا مخمليًا أخضر، وأدخل المشفى. أخبرني: «بإمكانك أن تركب
الخلفية في يوم ما».

وفي العاشر من نوفمبر للعام ١٩٦٣، ترك أبي المشفى للذهاب
في رحلة لصيد الديوك الرومية، إذ كان قد كوّن فريقًا من الصيادين
المدججين بالبنادق التي ترجع إلى قرن من الزمان. اضطلع في عربة
الإسعاف، فكان بمقدورنا سماع الطلقات النارية تدوي حين عبرنا
التلال متوجهين إلى المراعي قرب الجدول حيث أقام أصدقائه عدة
الصيد. رسم الصوت ابتسامة على وجه أبي.

ارتدى قبعته السوداء الأليفة لرعاة البقر تعلوها ريشة طائر الذيال.
حين نقلوه خارج عربة الإسعاف محمولًا على النقالة، طلب أن يقيمه
أحدهم ليشاهد. فعلى الرغم من صمته طوال الطريق حتى ساحة
الصيد، انفجر ضاحكًا متسامرًا مع الصيادين. طلب أحدهم التقاط
صورة جماعية تضم الجميع من أفراد العائلة والأصدقاء. فالتف اثنان
وعشرون حوله في حين جلس على النقالة مبتسمًا.

كان الجميع في الصورة عداي؛ رفضت ذلك. طلبت أمي أن أقف
بجانبها، وطلبت ساندرا كذلك. لم أكن، لأسباب لم أكن أعرفها آنذاك
وباهتة الوضوح الآن، لأنضم إلى تلك الصورة الجماعية لأبي المحتضر.

سألت، بعد مر السنين، طبيباً نفسياً عن سبب رفضي. قال: «أكنت غاضباً؟». أعتقد ذلك، إلا أنني لم أستطع أن أقولها. لم أفهم إلا مؤخراً أنني ربما كنت غاضباً لتفويتي حياته. كان في السادسة عشرة حين مات أبوه بالذبحه الصدرية، فترك المدرسة للعمل مؤازرةً لأمه في تربيتها أخواته الثلاث، انضم إلى الجيش في سن التاسعة والعشرين ليطأ شاطئ أوماها بعد ثلاثة عشر يوماً من إنزال نورماندي، وكان على مبعدة خمسين ميلاً، في الشتاء التالي، عن معركة الثغرة، كونه رابضاً في ناكور في بلجيكا، فكانت كتيبته معرضةً للخطر إن اقتحم الألمان الباستون متجهين شمالاً نحو بحر الشمال. كان هَرماً كسيحاً وكنت مراهقاً أطلق للريح ساقِي حين تخطاني في ذلك السباق نحو القاعدة الأولى. لم أجد إلا مؤخراً شرائط أوسمته الزرقاء من العام ١٩٢٦ من ملعب مقاطعة لوجان. كم تمنيت أن أسأله: أخبرني عن الأمر برمته يا أبي، كيف قابلت أُمي في مطعم جدتي ميدواي؟ كيف كان الأمر في شاطئ أوماها؟ أخبرني!

أجل، كنت غاضباً. أردت أن أعرفه، كنت غاضباً. كرهت السجائر وكرهت السرطان وكرهت الله لسماحه لأبي أن يموت. امتنعت عن الصورة الجماعية حتى حين لَوَحَ أبي لي بذراعه. كان ذلك منذ أكثر من خمسين عاماً مضى، إلا أنني لست أندم على شيء مثل ندمي على تلك اللحظة، حين استولى شخصٌ ساذجٌ عدواني أناني على فرصتي لأكون بجانب أبي حين عنى الأمر كثيراً له.

يبدو أنني لم أفكر إلا في أمر واحد.

كانت صورة احتضاره، لم أظهر في صورة توثق مماته وتؤكدده
وتحتفي به حتى؟

فإن اجتنبت الصورة فسيصبح رفضي صوتًا يطالب به حيًا بيننا في
بيتنا.

أعلم، الآن، أن يوم صيد الديوك الرومية كان احتفاءً بحياة الرجل.
إلا أنني لم أعقل، في هذا اليوم، الاحتفاء. لم يكن أيُّ مقرب لي قد
مات. كنت مضطربًا. كنت، في أحد المروج قرب الجدول ذلك اليوم،
حزينًا وغاضبًا. لربما خفت من الانضمام إلى الصورة خوفًا من المشاعر
التي لم أجربها من قبل، من الخوف الذي لم أستطع قهره. لم أقدر، ذلك
اليوم، على أن أصرح بعدم انضمامي إلى الصورة، بل امتنعت فقط.
وقفت بعيدًا جامدًا أومئ برأسي رفضًا: «سأبقى هنالك، استمروا».

أنظر الآن إلى الصورة: أبي مضطجع على النقالة، تميل قبعته،
ويغطي رجله دثار، في حين تجلس في الظل قرب كتفه اليمنى ساندي،
وتلاصقه من خلفه أُمي. كان محاطًا بمن يحبونه، كان يحتضر ويتبسم.
مات بعد ثلاثة أيام مبتسمًا.

أبقيت على البندقية التي صنعها معلقة بشرائط الجلد في إطار
خشب البندق. مرت حتى الآن خمسون عامًا وما زلت لم أعلق ظهرًا
يكسوه القماش الأخضر المخملي. أود أن أعتقد بأن أبي سيأتي من
سقيفة عمله لينهيها بنفسه.

آن وقت رحيل أمي قرب الاثنين السابع من أبريل للعام ٢٠١٤. كنت في أوجستا في ولاية جورجيا أحضر المباريات. هاتفني ساندرًا لتقول لي إن أمي لم تستجب لعقار المورفين. قادت نحو البيت طويلاً لأصل إيلدار المسنين في مورتون قرب منتصف الليل.

جلست إلى حافة سريرها، كانت تغط في النوم متفوقةً على جانبها الأيسر. كان بمقدوري سماع هسيس الأكسجين في الأنابيب المركبة في أنفها. كان تنفسها بطيئاً ضعيفاً. فكرت فيما كانت قد قالت: «حين يحين وقت موتي، سأموت». قبّلت جبينها وهمست في أذنيها: «شكراً لك يا أمي، لكونك أمي. أحبك». ماتت في الصباح التالي.

جلست بجانب نعش أمي في جنازتها في أتلانتا أخبر أصدقاءها وعائلتها: «كنت آخر من رحل عن هذه الغرفة منذ خمسين عاماً مضت في جنازة أبي. كنت في ذلك اليوم، كمثّل يوم صيد الديوك الرومية، حاضرًا غائبًا ملاحظًا لا ابنًا. إلا أنني وقفت، بعد عمر مضى، لأنعي أمي».

قلت: «مات أبي حين كنت في الثانية والعشرين من عمري، فلم أكن أعرف شيئاً عن الحياة، لكنني أعرف الآن أهم شيء: أنهما أحبابني رغم كل شيء فكانا، أبي وأمي، أفضل هدية لي، هدية لا أزال أنعم أنا وأختي ساندرًا بها. لم أَسْمَ ما شعرت به خلال خمسين عاماً مضت، إلا أنني أعرف الآن أنه كان حباً غير مشروط».

أبقيت على دفتر ملحوظات عن أمي. فذلك سجل الأهداف في مباراة فريق إلينوي ويزليان في چاكسون في تنسي. نرى أن ديث أحرز ثمانية أهداف ذلك اليوم، إذ سار فأطاح به متلقف الكرة فأحرز هدفاً

آخر. لم يكن الأمر الاستثنائي حول دفتر الملحوظات أن أمي تعلمت تسجيل الأهداف - ذلك أنني أتساءل: أعلمتها ذلك أم علمتني هي؟ - ولم يكن الأمر الاستثنائي أنها في تنسي في مارس لحضور مباراة بيسبول، أو أنها وأبي قد قادا السيارة أربعمائة ميل لرؤية ابنهما يظهر ويقع في خطأ، بل كان الأمر الاستثنائي أن أبي وأمي فعلا كل هذا. استغرق الأمر مني سنينَ لأعلم أن هنالك آباء لا يفعلون شيئاً من هذا.

قرأت في أوراق حفيدة أختي، چيسي منولد، التي هي جزء من مشروع مدرسي حيث أجرت مقابلة مع أمي حين كانت في التسعين من عمرها. تقول أمي: «أستمتع بالحياة في سن التسعين لأن لديّ أبناء وأحفاداً وعائلة. ليس لكثيرين ذلك، لكني أنعم به. سأظل شاكراً دوماً، لست أود تغيير أي شيء».

قلت، هنالك، بجانب النعش: «ولسنا نغيّر نحن أيضاً شيئاً يا أمي، لن نفعل. نجبكِ يا أمي، طيّب الله ثراكِ».



بينما كانا يعملان في كارولينا الشمالية، خلال الشهور الباردة الأولى من عام ٢٠١٣، استمع النجار بوتش إلى حكايات چارد. أخبره الأخير عن ذلك الرجل من السلفادور الذي مشى في النهر، وعن شجر التين الشوكي المتناثر في الصحراء، وعن نومه لليالٍ على رصيف محاذٍ لنهر المسيسيبي. استمع النجار إلى قصص مساعده عالمًا - قبل أن يلحظ أحد ذلك - أن چارد لن يمكث طويلًا في ماونت أبري. قال بوتش: «من خلال القصص التي حكاها، وطريقته في حكيها، التمسْتُ في ذلك الشاب شهوة حب السفر. لم يكن يحب البقاء في مكانٍ واحد لمدة طويلة، وقد نال كفايته من ذلك بيننا».

علمت والدته ماجي ذلك أيضًا. قالت كايل: «عندما حل الربيع، بدأ صبر چارد ينفد. لكنها اعتقدت أن حالة الهياج تلك لم تكن لها علاقة ببقائه ساكنًا لوقتٍ طويل، بل لأنه علم الثمن الذي سيتعين عليه دفعه إذا هجر الطريق».

«أظن أن حادث اصطدامه بالسيارة في أريزونا قد غيّر طريقة تفكيره للحد الذي جعله محطّمًا، من الداخل والخارج. ولم يتوّ بذل أي مجهود للاستقرار».

علمت كايلا أن ذلك عنى أنه سيعود لشرب الخمر، ولن تكفيه نصف زجاجة بيرة ذات أربعين أونصة لمرة في الأسبوع، بل نهر من الشودكا.

«أخبرتُ چارد بأنه سيموت مبكرًا جدًّا، فقال لي: «ربما». ثم غيّر الموضوع».

أرادت ماجي أن تحظى بحياةٍ مع چارد. وحتى لو لم تكن حياةً في مكانٍ خاص بهما، وتلك حياة عادية لكنها رائعة، فكانت ستعيش معه في الطريق. ومع ذلك، فقد رفضت أن تعيش حياةً ستأخذهما إلى المكان الذي أراد چارد الذهاب إليه. لن تسافر إلى نيو أورلينز، حيث الخمر وفير، و«الأوغاد الأخسَاء» منتشرون على الأرصفة، والأخطار تحف بالأراضي المهجورة. أعطت ماجي خيارًا واحدًا لچارد، قائلةً: «إما أنا وإما نيو أورلينز».

تعلمَ چارد ببطء دروسًا خطيرة عن نيو أورلينز، وفي النهاية وافق على أن يكون مسار الرحلة شمالًا، ليأخذهما إلى خارج ماونت أيري، وبعيدًا عن نيو أورلينز.

وفي صباح عيد الأم، في الثالث عشر من مايو عام ٢٠١٣، أنهى چارد زراعة حديقة عشب بمحاذاة الشرفة الأمامية لمنزل كايلا. قادتاهما إلى منتصف الطريق المؤدي إلى آشقل، وهناك ركبا سيارةً مع صديق لهما من الرحالة يُدعى تامي. وهكذا رحلا.

ترك چارد القطه الذهبية التي كانت تأتيه في أثناء جلوسه في شرفة كايللا.

قالت كايللا: «دائمًا ما تبعث سبَد السعادة في نفسي. كنتُ أشعر بروح چارد في تلك القطه الصغيرة».

اعتادت سبَد النوم فوق رف عالٍ في خزانة غرفة نوم كايللا، قريبًا جدًّا من السندرة.

هاتفني چارد بعد ثلاثة أسابيع. قال:

- لقد عدنا للطريق من جديد.

- ماذا؟ أين أنتَ يا فتى؟

تصير الحياة مشوشة في عينيك عندما تقفز من القطارات، وتعود لشرب نصف جالون من الخمر في المرة الواحدة، وتصبح حائرًا لا تعلم أين أنتَ وإلى أين ستذهب، فقط تعلم أنك عبرتَ من آشقل إلى [ونسون سيتي، ثم تنسي، ثم ويستقل، ثم أوهايو، إلى أن توقفتَ ليلاً في أرضٍ واسعة تذكر أنها...
- هاجر ستاون.

كانا في هاجر ستاون، ماريلاند، بعد مغادرتهما لماونت أيري بثلاثة أسابيع، بعد أن قبَلت كايللا خدَّ چارد وودَّعته.

- داهمتني نوبة تشنجية أخرى هنا، واضطرتُّ للذهاب إلى المستشفى.

- تَبًّا.

- قالت لي ماجي إنها ستوسعني ضرباً إذا تكرر ذلك.

- معها كل الحق.

ضحك چارد وأعاد ما قلته على ماجي، فسمعتُ صوتها في الخلفية وهي تصرخ قائلة: «تَبَّا. أجل. سأوسعك ضرباً حقاً».

سألته متى ستمكن من رؤيته، فقد مر وقت طويل على ذلك، لأنني انتقلتُ مع شيرل من فيرچينيا إلى إلينوي قبل ثلاث سنوات. في الوقت الذي سبق القفز على القطارات، كان يزور منزلنا بين الحين والآخر، أحياناً مع صديقه دير جاد، ليُحيينا ثم يغادر ليذهب في مغامرة أخرى. أقنعه دير جاد ذات مرة أن يقود جرّار چون دير الزارعي الكبير الذي أملكه، ليقطعا به مسافة ميلين إلى متجر بقالة لبيتاعا ست عبوات من البيرة.

أما الآن، فلم يعلم چارد أين كان، وإلى أين سيذهب. قال لي:

- إنني أحاول يا جدي أن أنزل إلى الطريق الذي يؤدي إلى منزلك.
فقلتُ:

- ليس ثمة طريق منحدر يؤدي إلينا الآن، لأننا في إلينوي. تعالَ إلى شيكاغو في أي وقت وسأجذك. كُن آمناً واعتنِ بنفسك. أريد أن أراك رجلاً عجوزاً يوماً ما. أحبك يا فتى.

- سنفعل يا جدي. أراك في وقتٍ لاحق. عليّ الذهاب الآن. مع السلامة.

ثم ساد الصمت في سماعة المحمول. لقد اقتربتُ مما لا يريد

الحديث عنه، عندما أخبرته أن يعتني بنفسه وأنني أريده أن يكبر ليكون عجوزًا. فلما لم يجد كلامًا يقوله لجده، صمت.

إنني أفهم الآن لحظات الصمت تلك. أفهم لماذا ترك ميرتل بيتش بعدما صدمته سيارة، ولماذا بدّل رأيه من الموافقة للرفض عندما كان ذاهبًا إلى مركز إعادة التأهيل في فيرجينيا، ولماذا غادر ماونت أيري بعد قضائه شطرًا من الشتاء مع امرأة أحبها. أفهم الآن أن چارد لم يكن لديه خيار، بل إن الإدمان هو الذي اختار له. فهمتُ ذلك بشكلٍ أفضل بعدما قرأتُ كتاب «نظيف» لديفيد شف. ثمة فصل بالكتاب معنون بـ«المدمنون ليسوا ضعفاء ولا أنانيين ولا عديمي الأخلاق، بل هم مرضى»، يقول فيه شف:

لن تستطيع تخيل ذلك الشعور بالعجز عندما تشاهد شخصًا تحبه وهو يقع فريسةً للإدمان. يبدو لك تحولًا غير منطقي، إلى أن تدرك أن ذلك الشخص قد أصيب بمرضٍ خطير في الدماغ، مرضٍ منهك، ومزمن، وقابل للتطور، وإذا لم يُعالج ففي الغالب سيتسبّب في موته.



كانا في صيف العام ٢٠١٣. تسول چارد وماجي ركوبة إلى طريقهما، بعد شهر ويومين من مكوثهما في عُلية كايل في مونت أيري، نحو شمال نيويورك برفقة امرأة تُدعى «سوزان مور». رافقت سوزان، إثر توقفهم في الطريق حين كانت ماجي تغط في النوم، چارد مشياً في حقل زهور.

تقول مور: «التقط چارد الزهور لماجي. قال: «أعلم أن ماجي لا تحب تلك اللففات النسائية السخيفة، لكنها باهرة الجمال، لا أريد سوى إسعادها». مشينا عائدين إلى السيارة فوضع الزهور في يدها في أثناء نومها. لم أرَ، منذ زمن بعيد، شاباً يلتقط الزهور لحبيبته من الحقول. أسعدتني تلك اللحظة أيما إسعاد؛ إيماناً بأن أناساً عظماء لا يزالون هنالك. كان ذلك أكثر الأشياء رومانسية وشهامة».

إن عامًا يُقضى في الطرقات، بالنسبة إلى الفتية المتسكعين، لهو فترة طويلة. إذ يتآزرون، غير عابئين بالتزامات العالم الرئيس وواجباته، كتفاً بكتف معظم الأوقات. فيشحذون معاً ويقفزون من القطارات معاً ويفتشون في مكبات النفايات ويعبون الشراب ويفيقون منه معاً. ربما يعيشون في عالم منفصل عن عالمنا، لكن لا مهرب هناك من الاحتكاك

مع الآخرين. وفي صيف العام ٢٠١٣ أتمّ چارد العام الرابع تشرّدًا في الطرقات، وبأله من وقت طويل! كان الخطر، بحلول هذا الوقت، دائم المثل. إذ كان من الصعب أن يقطع المرء البلاد في الطرقات السريعة وعبر السكك الحديدية وهو لا يحمل سوى الاحتيال مددًا، ويكون الأمر أصعب حين الانتقال سكران.

رأى چارد، في أحد الأيام في إناكا بُعيد أن تركا سوزان مور، في ماجي ما كانت دومًا تراه.

كانت ماجي قد صحبت كلبتها ديكسي إلى العيادة البيطرية، فشعرت ماجي، في غرفة الفحص في أثناء انتظارها للطبيب، بالدوار وبسخونة مبالغتها يعقبها ارتعاش بارد، ولم تُفك إلا عندما نقلها المسعفون إلى النقالة.

أحضر چارد الخمر إلى المشفى: الويسكي بنكهة القرقة المضاف إليها صودا ماونت ديو. باغته ممرضة قائلة: «كلا، كلا. إن نسبة الكحول في دمها لا تزال مرتفعة للغاية». فقال چارد إنها لم تتناول الشراب ليوم كامل، فعلم حينها أن الكبد تحتاج إلى ساعة لتكسير أونصة من الكحول، وفي نصف الجالون ست وأربعون أونصة. كانت كبدها لا تزال منقوعة في الكحول من الليلة الماضية. قالت ماجي إنها رأت چارد هليًا بجوار سريرها. فلم يقدر على احتمال الأمر، إذ ذكرته نوباتها ودخولها المشفى بالهذيان الارتعاشي الذي عاناه، وبامتناعه عن الشراب وهله ليلاً. أصبحا، بعد هذا اليوم، متنافرين فقررا أن يسلك كلُّ منهما طريقه عبر نيويورك.

كانا ليلتيان عند نقطتهما المعتادة في باحة إحدى الكنائس قرب متنزه تومكنز سكوير في إيست فيليچ في جنوب شرق المدينة. حضرت ماجي مبكرة ساعة، فأسعدها الأمر. كانت قد اشتاقت إلى چارد، بعد خمسة أيام من الافتراق، فكانت تَوَاقَّة لأن تصلح ما فسد بينهما. إلا أن چارد لم يحضر. لم يكن هنالك في التاسعة مساءً حسب الاتفاق، ولا حتى في العاشرة أو بعد ذلك. ولم يُجِبْ على هاتفه. كانت قد أرسلت له، في اليومين السابقين ومن ثم تلك الليلة، ست رسائل من دون أن تتلقى ردًّا:

«حدثت تايجر، فقالت إنك ستكون في نيويورك غدًا، وسأكون في بوسطن غدًا، يمكنني أن أحضر الطعام الصيني إلى نيويورك. اعدزني يا حبيبي، عانيت الأمرين لكنني أحبك وأود أن نعود معًا. فكرت في الأمر كثيرًا: ليس يمكنني فراقك. آسفة لكوني امرأة لعينة. ابق آمنًا، ونم قرير العين، كم أود رؤيتك قريبًا!». «سأتي إلى نيويورك لألقاك من جديد، أشتاق إليك».

«أنا في المكان بين الجادة ٢ والجادة ١٠».

«يا چارد! هذا أنا ماجي هاتفني من فضلك».

«أين أنت يا جوبلن بحق السماء؟».

«بطارية هاتفي على وشك النفاد، أظن أنني سألقاك. إني جالسة هنا منذ ساعتين بانتظارك، بئسًا! أنا أحبك. اشحن هاتفك اللعين».

ولجت، أخيرًا، متنزه تومكنز سكوير. هنالك رأيت بعض المتسكعين

ممن تعرفهم. سألت إن كانوا قد رأوا جوبلن. فقال أحدهم: «أجل، رأيته مع بيرد». كانت تعرف بيرد، هي فتاة جميلة.

عرفت بيرد چارد قبل عام مضى. كانا قد تقابلا في الحي الفرنسي في نيو أورلينز. إذ كان عائداً من ميرتل بيتش يسير متعكراً. وأنه بيرد لطيفاً للغاية وفكاهياً. مكثا في مبنى مهجور يُدعى بينك هاوس.

تقول بيرد: «كنا، في إحدى الليالي، عائدین مشياً إلى مصنع الجعة چاكس لمبيت الليل، حين زعق فيَّ أحد الشبان: «سأعطيك عشرين دولاراً إن أريتني نهديك»، فأجهز عليه جوبلن».

لم يمكث چارد وبيرد في نيو أورلينز إلا قليلاً قبل أن تؤوب إلى سافانا ومن ثم إلى مدينة نيويورك، ولم يكن چارد حين قدم إلى نيويورك في صيف العام ٢٠١٣، قد رأى بيرد منذ عامين. لم تعرف شيئاً عن الوقت الذي قضاه مع ماجي في ماونت أيري. إذ كان، لبيرد، هو جوبلن كما عهدته. تقاسما الثودكا وقضيا الليل معاً.

عثر ماجي على چارد في ميدان تومكنز في الصباح التالي فسألتها عما حل به بحق السماء.

فقالت بيرد لماجي:

- لم أكن أعلم أنكما تتواعدان.

ثم متوجهة نحو چارد:

- تفضل، أخبرها عما فعلناه.

لم يحر جواباً، سوى أنه لم يعرف لما فعلها. وحين رأت ماجي قناني الثودكا الفارغة من سعة نصف الجالون قالت:

- كنا على ما يرام من دونها، نعب الجعة والنبيد، عدت إلى شرابها ولم يمر سوى خمسة أيام. تبّاً لك.

بكي وتأسف. كان آسفاً لبيرد ولمعاقرته القودكا وعن تخلفه عن الموعد. قال:

- أفسدت كل شيء.

توصلا إلى حال من السلام المضطرب هنالك في ميدان تومكنز، إلا أن ماجي كانت مرتاعة. استشرفت الظلمة فيما سيأتي. فقالت: «ستتباك النوبات في أحد الأيام وأنت على متن القطارات، ماذا ستفعل حينها بحق السماء؟ ستسقط تحت إطارات القطار لتدهسك، هذا ما سيحل بك».

لم تحتج إلى سؤاله عما سيفعل إن اعترته النوبات إبان نومه، إذ كانت قد اعترته النوبة فالتف على نفسه تحت حائط أسمنتي أسفل قنطرة مؤدية إلى طريق سريع. كانت على علم بهذا إذ كان قد حدث بالفعل.

استقلا قطاراً من نيويورك متجهاً إلى فيرجينيا. اعترت چارد، في أثناء مكوته في ملجأ مهجور شاركه مع مايكل ستيشين، نوبة أسفل قنطرة طريق سريع. فلم يبق إلا بوجود المسعفين حوله. فكان قد تدرج أسفل المنحدر حتى شُج رأسه. أرادت ماجي أن تأخذه إلى المشفى إلا أن المسعفين أخبروها بأنه على ما يرام. أدركت الأمر. عرفت

أن بانقطاعه عن الخمر ستتلاحق عليه النوبات. فتقول: «أخبرتهم: بإمكانكم أن تعاودونا بعد ساعة، فستعثره نوبة أخرى. لم يستغرق الأمر ساعة بل خمسًا وأربعين دقيقة. كنا على متن قطار الأنفاق فأوقفوا القطار وأخذوه إلى المشفى، وجاء مايك ستيفين إلى المشفى كذلك حيث تناوبنا على البقاء بجانبه».

آمن ستيفين أن الله قد بعث بچاردي يرأب صدع حياته في غياهب المباني المهجورة في ألكسندريا. وآمن أيضًا أنه رد ذلك المعروف بأكثر مما ينبغي بجعله حياة الطرقات باهرة في عين الفتى الذي تفوق عليه بركوب قطارات الشحن عبر البلاد. أراد ستيفين تخليص ذنبه، وأراد أن يلقي چارد السلام.

حكاية مايكل

حاولت مئات المرات أن أسبر غور طفولة چارد. فكانت عبارته الرنانة: «لست أود الحديث في الأمر». من يعرف لم تحدث تلك الأمور؟ ما الألم النفسي الذي داواه بالثودكا؟ لم ينطق چارد بطفولته. كان يصبح دفاعيًا حيال الأمر.

لم يمر علينا يوم لم أتساءل فيه عما كان ليحدث إن توقفت، عوضًا عن الانشغال بالمي ومصائبي، وتفكرت فيه، فهذا هو ذا شاب يافع في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة يتطلع إليّ كقدوة. مكث بجواري لشهور، فلم يزُر أيًا من أصدقائه، لم يكن ثمة سوانا ليل نهار. ماذا كان ليحدث إن وعظته أو حادثته حول خطط الدراسة

في الجامعة، عوضًا عن ملء ذهنه برومانسية الانتشاء؟ ماذا كان ليحدث إن كنا قد قضينا الوقت نصلي لا نعب الشراب لدرء الألم؟ ماذا كان ليحدث إن كنت قد أعلمته أن المستقبل أفضل، وأنا سنخرج من هذا، وأنا بمقدورنا أن نؤسس فرقة موسيقية؟ أو أي شيء آخر. لكني لم أقل أيًا من هذا. أنقذ حياتي، ولم أقل سوى تلك التفاهات، إلا أنه أصغى إليها.

قضيت ثلاثة أعوام في محاولة إصلاح الأذى الذي سببته، أردت أن أدفعه نحو الانقطاع عن الخمر. ولطالما قال إنه لا يأبه بذلك، وإنه لن يعيش حتى يبلغ الأربعين، فلم ينقطع عنه؟! إلا أن الحقيقة أنه اهتم بالأمر أكثر من اللازم، لكنه لم يعتقد أن بإمكانه الانقطاع عنه.

هاتفني في إحدى المرات ليقول إنه حلم حلمًا غريبًا. باع ذكرياته للأشباح مقابل عملات ذهبية وفضية، قال إن الأمر غير معقول، فلم يبيع أحدهم ذكرياته؟ قلت له:

- ألا تعي هذا يا چارد؟ العملات في حلمك هي العملات التي تشحذها في الطرقات، والأشباح الروحية هي المشروبات الروحية التي تعاقرها: الروم والويسكي والفودكا. كنت تبيع ذكرياتك لتلك الأرواح طوال الوقت. تلك هي حياتك! أظن أن حلمك ينبئك أن تبقي على ذكرياتك لنفسك، لا تبعهم لتلك الأرواح الشيطانية.

فقال:

- ماذا تعني؟

ثم أردف، قبل أن أشرح له مجددًا، بعبارة الرنانة:

- لست أود التحدث عنها بعد الآن.

يصبح، حين يتعلق الأمر بمعاقرته الخمر، حائطًا صلدًا.

كنت قد زرته في المشفى قبل عام. إذ كانت نسبة الكحول في دمه ٤٣, ٠ وتنتابه أسوأ حال رأيته من الهذيان الارتعاشي. مر بفترة نزع السممية التي استغرقت سبعة أيام، وفي اليوم السابع كان لا يزال مخمورًا مرتعشًا. فحاول في إحدى المرات أن يشرب بوله، إذ قاده ذهنه المريض إلى أنه يحتوي على الكحول.

لم يكن، تلك المرة كسابقتها، چارد كما عهدته كأخ لي. أعطيته صليباً ومسبحة والعهد الجديد، آملاً أن جذوة الإيمان لا تزال في قلبه، وأن يتشبث، في خضم يأسه، بشعاع النور، وأنه لم يحتاج بالضرورة إلى أن يؤمن بشخصية أسطورية ماتت منذ ألفي سنة، أو ثمانمائة سنة، أو خمسة آلاف سنة، أو ذلك الرجل الذي يسكن السماء، أبيض اللحية فضفاض الثوب. كان الإله والإيمان اللذان احتاج إليهما قابعين في نفسه. ولم أظن أنه توصل إليهما. كانت الحياة نزاعاً ملتبساً للجميع، ففكر في لو أن العاديين يعانون فكيف تكون الحال معه؟

ومن ثم تركت تلك الأشياء في حجره. نظر إليها مرتبكاً وقال:

- ما هذه؟

- بمقدورك أن تحاول التضرع إلى الله حيال حياتك في أثناء

انحصارك.

التقط المسبحة كأنها قذرة ليسقطها على طاولة سريريه. قال:

- كلا، شكرًا لك.

- لم؟

فانفجر غاضبًا:

- ما بك؟ أتريد شيئًا؟

- أجل يا چارد، أردت أن آتيك ببعض الأشياء، جئتُك بالجوارب الجديدة ومبذل جديد وبعض النقود. وضعتها قرب النافذة.

لم ينظر إليها حتى ولم يشكرني. كنت أعلم أن هذا ليس بخطئه إذ تمكن منه الكحول. فُطر قلب ماجي، أخبرني أنها حُجرت في المشفى ثلاث مرات من قبل في محاولة لمجاراته. كان قلبها كسيرًا وكانت مرتاعة.

في خلال العام الذي قضته ماجي برفقته، أخذته لثمانية مشافٍ. وكانت تلك هي المرة الأولى منذ مشفى ماونت أيري وونستون-سالم. رفضت في تلك المرة من ديسمبر العام ٢٠١٢ أن تسلمه للموت. فتقول: «علمت أنني أحبه حين قدت به من هيوستن».

وعلمت أنه يحبها في ذلك الشتاء في مشفى ماونت أيري.

«مَن ذا قد يحب أن يتسكع معي وديكسي حتى الحظيرة الحمراء؟».

والآن في أواخر يونيو من العام ٢٠١٣ في شمالي مشفى فيرجينيا،

طلبت من ستيشين أن يرعى ديكسي حتى تعود چارد. فقالت: «أخبرت چارد بأنني لست أقدر على الاستمرار هكذا. سأذهب إلى البيت، فلنجتمع فيما بعد».

كانت ماجي عائدة إلى البيت تاركةً إياه وراءها، لم تكن قد هجرته من قبل، لكم أوجعها ذلك! وهكذا فعلت ارتياحاً مما رأته ومما توقعته. استقلت الحافلة نحو شمالي كارولينا حتى بيت أمها، لم تكن لتفعل ذلك إلا أن چارد كان قد جمع بين ماجي وكايل. أصبحنا، بعد طول غياب، أمًا وابنةً من جديد عبر فعلته، وترافقتا خلال الرحلة من تكساس حتى ماونت أيري ورافقتاه خلال الشتاء في المنزل الصغير عند سفح التل قرب الحظيرة الحمراء.

وعادةً ما هاتفنا ماجي چارد، في الشهور الستة التالية للعام ٢٠١٣ وحتى الأيام الأولى من ٢٠١٤. فخططا لأن يتقابلا من جديد.

وفي التاسع من يوليو في العام ٢٠١٣ هاتفني چارد. إذ احتاج إلى ١٩ دولارًا لشراء تذكرة حافلة من أمهرست في ماساتشوستس حتى نيويورك.

وعدت بإرسال المال عبر خدمة ويسترن يونيون، وأخبرته من جديد بأننا:

- نود رؤيتك، أنذهب إلى شيكاغو أبدًا؟

- لست أعرف، سأعلمك.

لم أتوقع منه إجابةً، فلم يكن يعتد بالمواعيد. قلت:

- ما جاء بك إلى نيويورك؟ أستلقى ماجي؟

- كلا، افترقنا.

- واأسفًا!

- كنا نتجادل كثيرًا، تلك هي حياة التسكع في الطرقات. تود أن تسلك طريقها وأود أنا أن أسلك طريقي كذلك.

في ذلك اليوم لم أكن أعرف عن ماجي سوى أنها آخر خليلاته. والآن أعرف عنها الكثير. أعرف الآن أن ما قاله چارد يومئذ كان أدنى ما يمكنه قوله. كان له أن يخبرني بأن ماجي بالغة الأهمية له بطرق شتى لم يقاربه فيها أحد. كانت قد أنقذت حياته أكثر من مرة وآوته في بيتها. كان بمقدوره قول ذلك بمضاجعتها في غُلية بيت أمها، فيها قد رأى إمكانية الحياة بعيدًا عن التشرّد في الطرقات. إذ وقع في غرام فتاة أحبته كما هو، فتاة تنوي، بل تتحمس، للبقاء برفقته دائمًا. كم كنت أود أن يخبرني بذلك! لو أنه قال لي إنه أراد أن يصبح عجوزًا كمثّل جده، كنا لنصرع الحياة -أنا وشيرل وچف ولين وليزا وچيکب- التي تروم قتله.

إلا أنه لم يقل سوى:

- افترقنا

ولم أجبه بسوى:

- واأسفًا!

لم أفه إلا بالقليل حين كان ينبغي عليه قول الكثير. كنت أمل حين

كبر چارد وچيكب أن بآتمناني على مخاوفهما وأحلامهما. لربما أملت في أكثر مما يقدمه الأحفاد والأبناء، إذ لم أكن سوى صامت في معية أبي ولم يكن ابني سوى صامت في معيتي. إلا أنني تمنيت أن يحدثني چارد في كربه. لكم تمنيت أن يبوح لي بما رَوَّعه لا أن يقول لي: «إنها تود أن تمضي قدماً في حياتها وسأفعل أنا أيضاً»!

أنا مراسل صحفي، وطُرح الأسئلة هو شغلي. كنت أطرح الأسئلة، لخمسين عاماً، ساعدت الناس في قص حكاياتهم حين لم يكونوا يعرفون بأن لهم قصةً لتُروى. وحينها، حين طرأ تغيير على حياة حفيدي، لم أسأله شيئاً، لم أطرح أي سؤال لعين! لم أقل سوى: «وا أسفًا!». والآن أعرف ما كان بمقدور چارد أن يقوله يومئذٍ. الآن أعرف قدر ما أخفاه، وقدر ما تألم منه. الآن لا تبرحني تلك الأسئلة التي لم أطرحها والمخاوف التي لم أبح بها.



عندما حل صيف عام ٢٠١٣، أتممتُ أنا وشيرل ثلاث سنوات من دون أن نرى چارد. فقد رأيناه للمرة الأخيرة وقتما كنا نحزم أمتعتنا لننتقل من فيرجينيا إلى إلينوي. في سنوات الغياب تلك، لم نكن نعرف چارد سوى صوت ينبعث من الهاتف.

كان يقول: «إنني فقط أستريح، ولا أدفع الضرائب».

وكان يتصل ليُعلمني بآخر تحركاته، بصوت طفلٍ قلبه مليء بالسعادة. حتى عندما أقنعه أحد أصدقائه ممن يمارسون رياضة كمال الأجسام بأن يؤدي التمارين الرياضية، قال لي وهو يلهث: «إنني أمارس تمرين الضغط لخمس وستين عدة يوميًا. وأقوم بتمارين تايسون أيضًا». يعرف جده الصحفي الرياضي بضعة تمارين، فقد شاهدتُ مباراة مايك تايسون التي فاز فيها ببطولة الوزن الثقيل لأول مرة. لكنني لم أعرف شيئًا عن تمارين «تايسون» تلك.

قال لي چارد: «كان تايسون يؤديها في السجن. عليك أن تفرش مجموعة من أوراق اللعب على الأرض، ثم تنزل بجسدك كله إلى الأسفل، وتلتقط ورقة بأسفل مؤخرتك، ثم تهضم بالوقوف. ويستمر التمرين على هذا النحو إلى أن تلتقط جميع الأوراق».

كان تخيُّل ذلك - إجمالاً - أمرًا بشعًا، ناهيك عن إذا تخيَّلتَ نفسك تمارس هذا التمرين.

قلتُ له: «لن أقوم بتمارين كتلك في حياتي».

تمنينا أن يعود إلى ماجي. رأينا صورةً لهما على فيسبوك. صبي وصبية يستمتعان بوقتتهما، ويتسمان بين الأنقاض بجانب قضبان السكة الحديدية الفولاذية اللامعة، ويحملان صندوق بيرة كأنه جائزة «الثنائي الأكثر وسامة في العالم». كنتُ أعلم مدى فخره بنفسه بسبب عمله مع بوتش في بناء الشرفات بماونت أيري. فقلتُ في نفسي ربما قد عادا إلى كارولينا معًا.

سألته:

- أين أنتَ الآن يا فتى؟
- نحن في چاكسونفل، فلوريدا.
- مَنْ تقصد بـ«نحن»؟
- أنا وچيمبو وآجرو.
- آجرو؟ مَنْ هو؟ وأي اسم هذا؟
- إنها فتاة. اسمها اختصار لكلمتي «أجريسيف» و«أجرافيتنج» معًا^(٢٨).

بعدما غادر مستشفى فيرجينيا «خلافًا للإرشادات الطبية»، فور

(٢٨) Aggressive and aggravating الأولى تعني «عنيفة» والثانية تعني «مُسبِّبة للمتعاب».

رحيل ماجي عن البلدة، ركب چارد سيارة مع أناس غرباء واتجهوا إلى بالتيهور. وهناك قابل كريج أنتيهيرو، فنان الوشم المبتدئ الذي رسم على وجهه بفرشاة أسنان تعمل بالطاقة. في الطريق قابلا چيمبو وآجرو الحبيين اللذين يسافران معاً واللذين ألقى القبض عليهما من قبل في فريدريكسبورج، فيرجينيا، بتهمة «الفعل الفاضح العلني»، وهو المسمى القانوني لممارسة الجنس فوق العشب خلف محل بقالة. كانت آجرو تبلغ الثامنة والعشرين من عمرها، واسمها الحقيقي تشاريتي آن ويليامز. أتمت تسع سنوات من السفر في الطريق. كانت تقول إنها تستطيع العثور على أي شخص تريده، وفي أي مكان، بإجراء خمس أو ست مكالمات فقط. لذلك، كان ثمة أصدقاء مشتركون بين چارد وبين آجرو وچيمبو، وصار ثلاثتهم شلة جديدة.

ربما تعرّف چارد على الاسم آجرو، لأنه سمعه قبل ذلك بأشهر، خلال فترة سكنه بماونت أيري. تضمنت الإشاعات في ذلك الوقت أشخاصاً من بينهم آجرو وإدو وچولز، الذين قد أوسعوا فتى ضرباً في كاليفورنيا ثم تركوه ليموت. إن كان چارد قد ربط بين تلك الواقعة وبين صديقته الجديدة، فإنه لم يُفش السر.

عندما تكون رَحالة، تسمع عن موت كثيرين.

اتجه كلٌّ من آجرو وچيمبو وچارد جنوباً إلى چاكسونفيل، والآن سيرتحلون شمالاً إلى ميرتل بيتش.

قال چارد: «ثم سنتجه مباشرةً إلى منزل أبي لكي نحضر وليمة الطعام الحار».

إنها وليمة تُقام في أكتوبر من كل عام، يحضرها أصدقاء العائلة.

قلتُ له: «حقاً؟ ستحضر الوليمة؟ ستكون هناك أيضاً».

إنها أروع الصدف حقاً أن نقابل چارد مجدداً. لكن هذه المرة بصفتين: حفيدنا والفتى الرّحال، أو بالأحرى الشاب ذو الأربعة والعشرين عامًا الذي خاض رحلة كتبْتُ عنها في أسبوع ولادته أنها رحلة «مليئة بالأمل والخطر، والفرح والحزن».

في ذلك اليوم، سمعتُ حكاية آجرو عن مقابلتها لچارد لأول مرة أمام محطة بنزين بجانب متجر لبيع الخمور.

قالت: «بعدما شربنا صندوقين من البيرة، والصندوق يحوي ثلاثين زجاجة، حاولَ كريج أن يتهير و سرقة زجاجتي ويسكي چاك دانيالز». تكمل: «في النهاية، ركض البائع خلفه إلى خارج المتجر وضربه في الشارع. حينئذ خرج جوبلن خلفهما إلى ذلك الشارع المزدهم لينقذ كريج، فصدّمته سيارة. لم يكن حادثاً كبيراً، لكنه سقط بقوة على الأرض. علمتُ بعد ذلك أنه تعرض لحادث أسوأ من قبل في أريزونا. حينها أدركتُ أنه شخص صالح؛ أعني، إذا كنتَ قد تعرضتَ لحادث من قبل، ولم تزل مجنوناً للدرجة التي تجعلك تركض بين السيارات لتتخذ صديقك من الشجار، فإنني بالطبع أريدك في فريقتي».

حكاية أجرو

بعدما قفزنا من القطار في بالتي مور حيث قابلنا جوبلن، اتفقنا على أن نتجه إلى واشنطن العاصمة، ولأن القوات الأمنية منتشرة هناك، فقد كنا بحاجة إلى مواصلة أمنة لنختبئ فيها عن الأعين. فبحثنا عن عربة قطار شحن فارغة. لكن فور وصولنا إلى ضواحي المدينة، لمَحْنَا محصِّل من شركة أمتراك واتصل بالمسؤولين، فأخبرنا مهندس من شركة سي إس إكس.

أخبرنا الرجل أن المحصل أراد أن يتصل بالشرطة، لكنه لم يفعل ذلك. قال: «لست مهتمًا، وكذلك الشركة». ثم عاملنا بلطف واصطحبنا إلى القاطرة الأخيرة، رقم خمسة، وقال إننا بإمكاننا البقاء هنا. شعرنا أننا في سيارة كاديلاك، بعدما كنا في عربة قذرة وحارة. أعطى كلاً منا سيجارة، وشغل مكيف الهواء، وأخبرنا أنه يمكنه إنزالنا في ريتشموند. كانت تلك أول مرة يسافر فيها جارد بقاطرة، لذلك اعتلى الحماس وجهه. في النهاية قال المهندس: «استمتعوا بوقتكم، ولا تلمسوا أي أزرار!».

لكن واحدًا منهم، أقصد جيمبو أو جارد، ضغط على زر الجرس على أي حال.

لاحقًا، عندما حاولنا القفز في مدينة روكي ماونت بكارولينا الجنوبية، أبصرنا قطارًا يزود بالوقود، فسأل جيمبو المهندس عن وجهته. فصاح المهندس: «ربما سيتوجه إلى هاملت، أو فلورنس، أو چاكسونقل، لست أدري. إنني فقط أقود القطار، لكنني متأكد

من أنه متجه جنوباً».

وقفنا تبادل النظرات، ثم رفعنا أكتافنا وقلنا: «لا يهم، فلنذهب إلى أي مكان».

كانت أجرو خبيرة قديمة في عالم القفز من القطارات، ذلك العالم القذر، والمثير، والمعقد، والخطير. علمت عنه كل شيء، فقد سألتها بضعة أسئلة، وكانت تكتب لي خطابات طويلة، مطبوع بدقة على ورق أصفر، مثلما ورد هنا:

إن أول شيء يقوله أي شخص عندما يعرف أنني أقفز من القطارات هو هذا السؤال: «يا إلهي! أما زال هناك مَنْ يفعل هذا؟»، فأقول: «نعم، ثمة أناس كُثُر يفعلون هذا». فيأتي سؤال آخر: «يا إلهي! وكيف تفعلين هذا؟»، فأخبرهم أن ليس ثمة شخص عاقل كلياً بإمكانه العيش بطريقتي، والاستمتاع بحياته. فجميعنا مخبولون قليلاً. تُرى، أي شخص هذا الذي سيتخلى، بكامل إرادته، وبكل سعادة، عن بيته، وممتلكاته، وأحياناً أهله، ليعيش في الشوارع؟ لكن بعضنا فضل الشارع على بيته، وبعض الناس لم يختاروا أن يكونوا مشردين. في النهاية، قافزو القطارات يحبون القطارات. لم أقابل شخصاً مجنوناً لدرجة مخيفة إلى الآن، ولا أظن أنني قابلتُ أيضاً أي مختلين. لكن كيف لي أن أعرف؟ جميعنا فكرنا بنفس الطريقة.

بوسع أي شخص أن يلحق طفلاً متسخ المظهر، يرتدي سترة

ماركة كارهارت وحقيبة ظهر، أو يرافق كلبًا، ويقول في ذهنه: «إنه متشرد»، مثلما قد يرى شخص كلب البيجل ويحسبه كلبًا أليفًا. لكن كلب البيجل لا يشبه كلب سانت بيرنارد، وكذلك الناس لا يتشابهون، فهناك مدمنو المخدرات والكحول والقهوة، والنباتيون، والمشردون، والمحترفون. كل شخص له عشيرته الخاصة. ثمّة أيضًا بعض الهيبيز بيننا!

المشردون هم أطفال صغار جهلاء، لا يعرفون شيئًا عن قطارات الشحن، معظمهم سريعو التأثر بصراحة. أما المحترفون فهم من نسميهم «المهووسين بالقطارات» أو «مدمني القطارات». هؤلاء يعتقدون أنهم يعرفون السكك الحديدية كأنهم من صمموها، والحق أنهم يعرفون معلومات كثيرة، لذلك ليس من الصعب التعامل معهم. لكننا نُقسّم أنفسنا إلى طوائف، ثم إلى أطقم، مثل جماعة جوبلن «الأوغاد الأخساء»، لأننا لسنا جميعًا على وفاق. نحن أناس بدائيون. أرجو ألا تفهمني بطريقة خاطئة، فلقد قابلتُ أناسًا من خيرة المُتعلّمين والمثقفين، يعيشون بين المشردين. لذلك، فنحن نخضع لقانون البراري ونعيش به. ونستخدم دائمًا لغة الجسد والفرمونات^(٢٩) لتعامل بعضنا مع بعض. أجل، الفرمونات. فهؤلاء لا يمتلكون مزيل عرق!

ليس ثمّة قائد واحد للجميع؛ جميعنا نهرب ونبتعد عن سلطة مجتمع لا نفهمه، أو لا نودّ فهمه. وذلك يتضمّن المسؤولين.

(٢٩) الفرمونات هي مواد كيميائية يفرزها الإنسان والحيوان بعد سن البلوغ بهدف إرسال رسائل خاصة.

هكذا نبذنا الدين، والسياسة، وتطبيق القانون، باستثناء رجال المخابرات لأنهم لطفاء حقًا. ومثل جميع الوحوش، فإننا نخضع لشخصية مهيمنة، مهيمنة بالقوة المفرطة، أو التخويف، أو الإقناع الماكر. لكن الحياة لا تسري بالصياح وضرب الصدر كالغوريلات، فيجب على «الألفا» أن يتصرف كالقادة، لأنه مسؤول عن الجماعة كلها، والأمر ينطبق أيضًا على النساء.

ومن بيننا أناس ذوو خبرة، نسميهم «فرسانًا بلا أحصنة»، لأنهم يسافرون بلا شيء سوى حقيبة بها بعض الملابس والطعام. إنهم الأفضل بيننا؛ شعراء السكك الحديدية الذين تعلمنا منهم الكثير. أعلم أن ما أقوله قد يبدو غريبًا، لكن بعضنا يعتبرونهم الآباء الوحيدين الذين يعرفونهم. وكذلك النساء مثل أمهاتنا، على الرغم من أنهن يتقاعدن فور وصولهن إلى السن التي تلتصق فيها كلمة «ماما» بأسمائهن. لدينا إخوة وأخوات لا حصر لهم، من عشاق الروك الذين يرسمون الوشوم على وجوههم ويرتدون الحلقات، إلى محبي الموضة العتيقة ممن يرتدون الحمالات والقبعات ذات الحواف. جمع كل تلك الصور لتدرك تطور الفكرة إلى ثقافة، ثم إلى مجتمع منفرد بذاته، مجتمع أمريكي خفي لا يعلم معظم الناس عنه شيئًا.

أجل، إن من يعيشون في ذلك المجتمع الخفي رائحتهم كريهة، تفوح منهم روائح الشحم، والطين، وسوائل الجسم. فليس ثمة حمامات عامة مثلًا قريبة من السكك الحديدية، ما يعني أن روائح

أجسادهم المتسخة تصير مستحيلة التلاشي.

قانون آجرو الأول عن السفر: «لا تثق بمتشرد تفوح منه رائحة الصابون».

القانون الثاني: «إذا شممت رائحة عطر تفوح من أحدهم، أخرجه من شلتك».

- نعتقد جميعاً أن لكل شيء رائحة كريهة.

هناك جماعة نسائية من قافزات القطارات، وبالطبع ليس من بينهم من نقول عنهم «محبات الفراش». وكما يوضح الاسم، فإن محبة الفراش هي أنثى تسمح لأي ذكر أن ينام فوقها. وتلك تختلف عن الفاسقة، فالأخيرة لا يُنظر إليها نظرة تحقير في عالمنا. لكن محبات الفراش، عذراً لصراحتي، مدمنات لماء الرجل. الكثير من قافزات القطارات يطلقن على أنفسهن، بكل فخر، «فاسقات» أو «مومسات». الفاسقة تحب الجنس، والمومس تحب المقابل، أما محبة الفراش فتظن أن ما تفعله لطيف وسيجذب الفتیان إليها. ونحن نبذهن لأننا لن ننزل بأنفسنا إلى مثل ذلك المستوى المتدني. فإن شعارنا هو: «إذا لم تُعجب بنا، فلا بد أنها مشكلتك».

بالطبع هناك شخصيات متعددة بيننا، منهم اللطفاء مثل جوبلن والأشداء مثل ذلك الفتى الذي تذكرته الآن: كان وقحاً نحيفاً

لكنه كآلة مُدْمِرَة. تجسيد لـجون هنري^(٣٠). يده في حجم وجهي، وقبضته في حجم كلتا يدي. اختصارًا، هو فتى لا يحبَّذ أن تعبت معه. في أحد الأيام، كاد يخلع أذن صبي بالكامل: ما حدث أن مجموعةً من الفتيان، يبدو عليهم أنهم في المرحلة الثانوية، غادروا فندقًا فاصطدم ذلك الفتى القوي بأحدهم، واعتذر. لكن الفتى الآخر هزأ به وأشاح بنظره عنه. **وذلك خطأ فادح**. أمسك الفتى القوي بأذن الفتى الآخر ليضربه برأسه، لكنه بعدما ابتعد عنه أدرك أنه خلع أذنه. كادت تسقط عن رأسه لولا أن قطعة جلد صغيرة تشبثت به. نظر إليها وحاول أن يعيدها إلى مكانها، ولمّا لم تعد، ركضنا جميعًا.

كم عدد الناس الذين أعرفهم من جماعة قافزي القطارات؟ مائتان أو ربما أكثر. فكلما صرّت تسافر لمدة أطول، تقل فرص تعرّفك على أناس جدد. في السنوات الأولى، لا يعرف المبتدئون أحدًا فور خوضهم لتلك المغامرة المثيرة المليئة بالاحتمالات والأشخاص المثيرين للفضول والمخيفين أيضًا. وعندما تمر سنوات أكثر، تتعرّف على بضعة أشخاص، وإن لم يحدث أن تعرّفَ على أحد، فسيحين الوقت لذلك. خلال تلك السنوات تركب الكثير من القطارات، من دون أي ترتيب سابق، بدافع حبك لها فقط. ومع نهاية هذه السنوات، ترى الفتيان يتقدمون في السن، وأصدقاءك يستقرون وينجبون أطفالًا، أو يموتون، أو قد

(٣٠) بطل شعبي أمريكي، قيل إنه تسابق بمطرقته مع آلة حفر في أثناء إنشاء نفق للسكك الحديدية، ومات من الإجهاد لكن بعدما فاز.

ماتوا بالفعل. وأنا حاليًا في ستي الثامنة. وهذا لا يعني أنني تنقلتُ بين القطارات لثمانِ سنواتٍ متتالية، فأحيانًا ما أُنح نفسي عطلة وألزم البيت لبعض الوقت. لكنني لم أزل أحسب تلك السنوات. لم يُغيّر بقائي في المنزل من طريقة تفكيري ونظرتي للحياة، فأنا أعلم أنني سأظل أركب القطارات لآخر يوم في عمري. ومهما واجهتُ من صعوبات، ففي النهاية، سأستقل أول قطار أعثر عليه، وسيوجه بي إلى مكانٍ لا يعلمه إلا الله.

سألتها: كيف تعثرين على القطارات؟
كانت إجابتها بسيطة لدرجةٍ لم أتوقعها.
أحيانًا ما تذهب إلى مكتبةٍ عامة، مثل تلك المكتبة اللطيفة في شيكاغو.

تقول: لديهم صور بالقمر الصناعي لجميع المحطات.
كانت ترش معطر فيبريز على جسدها أولاً، كي تُذهب عنها رائحة التشرّد، ثم تُحدّث موظف الاستقبال بطريقةٍ مهذبة، منتقيةً أعذب الكلمات، كأن تقول: «معدرةً، إنني مهتمة بالقطارات. هل لديك أي خرائط للسكك الحديدية التي تمر بشيكاغو؟»، وشكرًا جزيلاً.

إلى جانب «موضع الانتحار» حيث يمكنك العبور من فتحة تطل على القضبان، فالعربات المغلقة هي أسوأ الأماكن التي قد تبقى فيها

طوال الرحلة. ذلك أن صرير الأبواب الفولاذية، وكذلك الأرضية، مزعج للغاية. إنه يشبه «الصراخ الذي يقدسه محبو موسيقى الديت ميتال^(٣١)». أن توكل إليك «مراقبة الباب» يعني أن مهمتك هي «إغلاق» الأبواب. عليك أن تدق مسمارًا كبيرًا في مساحةٍ بالقرب من الباب، حتى لا ينغلق فتُحتَجَز بالداخل إلى أن تعثر عليك شرطة السكك الحديدية ويأخذوك إلى السجن، وهذا في حالة أن بقيت على قيد الحياة.

لا تبَق في عربة فحم فارغة، لأنهم قد يُلقوا الفحم عليك. وكذلك لا تركب عربة مملوءة به، فحتى إن كنتَ فوقه، فقد تغرق فيه كأنك سقطتَ في رمالٍ متحركة. أكبر المخاوف أن يُفتح الصمام السفلي فينزل الفحم في هوة مظلمة عظيمة فتسقط معه. ولن يعلم أحد بوجوك إلا إذا عثر العمال على جثتك السوداء.

هناك ركوبة شهيرة أخرى، وهي حاويات الحبوب، التي بها مساحة صغيرة مسطحة في نهايتها، عادةً لا تختلف عن الأرضية. إذا تقلبتَ في أثناء نومك، فقد تهوي من فوق العربة وتنزل أسفل القطار. إن ذلك الاهتزاز هو أحد أسباب اقتناعنا بأن كل سنة تقضيها بين القطارات تُضيف سنة أخرى إلى عمرك الحقيقي.

سألتني من قبل عن الدين، قد يجيبك أحد لا يملك معلومات كافية بأن ليس ثمة دين لقا فزي القطارات. لكن، في الواقع، لنا دين واحد. إذا مرَّ علينا يوم عصيب في أثناء تسوُّلنا، أو لحاقنا بالقطارات،

(٣١) نوع من أنواع موسيقى الميتال، يتميز بالتغيُّر الدائم في السرعة والإيقاع، والغناء غير اللحني المُكوَّن من طبقات مختلفة من الصراخ.

فإننا نُنتمى سِرًّا بصلاةٍ لآلهة القطارات. وهؤلاء ليس لهم شكل معيّن أو مظهر، مثلما يؤمن المسيحيون بشكل الرب. لكن آلهة القطارات يعيشون على متن قطار الشحن العظيم في السماء. عندما تموت، يقول القدماء «إنك ذاهب للحاق بقطار الغرب». وأظنهم قالوا «الغرب» لأنها وجهة الشمس وقت الغروب. أتعلم أغنية «جبل الحلوى الصخرية الكبير»^(٣٢)؟ تلك هي الجنة بالنسبة إلينا. علّمتني أُمي الروحية كيف أغني هذه الأغنية عندما كنتُ لا أزال منعومة الخبرة. إن كنتَ راكب قطار صالحًا، فستركب قطار الشحن العظيم في السماء عندما تموت. وإن كنتَ طالحًا، فلن تذهب إلى الجحيم، بل إلى مكانٍ أسوأ: مدينة نورث بلات!

ماذا عن رفاق الطريق؟ إنهم أهلي، وليسوا فقط أشخاصًا تشرب الخمر معهم في البلدة أو في المكان الذي ستقفزون منه على متن القطار. وليسوا فتية لم ترهم لفترة وستسكع معهم لأسبوع. رفاق الطريق هم أناس تقطع معهم أميالًا. إنهم رفاق السلاح، وكاتمو الأسرار، وشركاؤك في الركض. أناس ستبقى بجانبهم وتحارب من أجلهم حتى وإن كانوا مخطئين! كان لي أربعة رفاق طريق فقط، ثلاث فتيات وشاب. اثنتان ماتتا، وواحد تقاعد، والأخيرة التحقت بالجيش. سافرتُ برفقة كون هيد أكثر من البقية. كان اسمها الحقيقي بيث، صبية صغيرة من سان أنطونيو لا تفقه شيئًا. أقنعها صديق لها كانت ثق به بأن ترافقه في أسفاره، ثم تخلى عنها.

(٣٢) أغنية لهاري ماكلينتوك صدرت عام ١٩٢٨، تتحدث عن الجنة لقافزي القطارات والمشردين.

إن زوجي السابق، وتلك قصة طويلة، قد عثر عليها في حلقة سُكر وأعجب بها. لا أقصد عاطفياً، فقد كان فقط يحب تبني الأطفال. تسكعتُ معها لبضعة أيام ثم أدركتُ أنني أعجبتُ بها أيضاً. صرنا صديقتين سريعاً، وباتت رفيقة طريقي قبل أن تكون رفيقة طريق زوجي. سافرتُ معنا إلى الجنوب، ثم إلى فلوريدا، ثم كنتاكي وتنسي. كم وددتُ أن نتركه ونمضي في طريقنا بمفردنا. على الأقل كنا سنظل نركب القطارات معاً حتى الآن. لكنها في النهاية عادت إلى منزلها لتعين أهلها واختارت البقاء معهم. ما زلنا نتواصل، ودائماً ما أسألها متى ستعود.

لو لم يكونوا هؤلاء عائلتك الكاملة، فإنهم على الأقل أشقاؤك وشقيقاتك، ولكن مع حفظ التوقعات. إن أفضل طريقة لمعرفة مَنْ صالح ومن طالح أن تدعوهم إلى شرب الكحول أو تعاطي المخدرات، إلا إذا - كما تقول آجرو - كانت المستجدة فتاة وحيدة و«أحد الفتيان يودُّ مضاجعتها». حينها تدخل الفتاة في الدائرة. وهذا بالنسبة إلى آجرو: أمر مزعج لنا كأخوات.

كيف نتعامل بعضنا مع بعض ونحن ثملون؟ نتعامل بأفضل طريقة! مجدداً، المفتاح الأساسي هو الاحترام. إذا قلت شيئاً، أو فعلت تصرفاً ما، أحسَّ أحدهم بالانزعاج منه، اعتذر وامنض في طريقك من دون أن تكررهِ. لديّ مقولة أو من بها: «إنهم يعلمون الجراء». إذا استمررت في مضايقة مَنْ حولك، فسنخبرك بذلك.

بخلاف أي شلة أخرى، يمكننا شرب الكثير من الخمر ونصير
مشاكسين حقًا، لكننا نظل نتعامل في تناغم. في ثانيةٍ نمرح
ونلعب، وفي الثانية الأخرى يبحث الجميع عن شخص ليوسعه
ضربًا.

إن العنصر الأهم في ثقافة قافزي القطارات أننا نعتني بعضنا
ببعض. أخبرني صديق مقرب أن كلمة «هوبو» تعني «مساعدة
إخوتك على الطريق». سأخبرك بقصتي: عندما ركبْتُ القطار
لأول مرة، ذهبتُ مع رفيقة طريقي إلى ساكرامنتو. كرهنا تلك
المدينة بشدة؛ يُقبَلون بعضهم بعضًا في الشوارع كأنهم قطاع
طرق، ويتصرفون تمامًا كالقراصنة (خذ ما تريده ولا تُعطِ شيئًا
في المقابل!). ثم مرضتُ. بدأت كبدي تؤلمني، حدَّ أنني لم
أستطع الخروج من حقيبة نومي لأتناول الطعام وأمشي مع كلبِي.
قابلتُ رجلًا قديمًا في اليوم السابق فأخبرته رفيقتي بأنني متعبة.
اقترب مني ليفحصني، ثم قال لي إنني أبدو على وشك الموت.
لكنه كان يعلم أنني لن أذهب إلى المستشفى. فصار يأتيني كل
يوم حاملًا الطعام والماء وزجاجات بيرة طويلة كي لا أموت.
وكان يُطعم كلبِي أيضًا. وبعد أسبوع من بقائي بداخل الحقيبة،
أتاني أفراد من الشرطة وأخبروني بأنني إن لم أتحرك في غضون
ساعتين فسيتصلون بالإسعاف. فنهضتُ وتسولتُ حتى جمعتُ
ثمانين دولارًا. أجل، بإمكانك فعل ذلك في وسط المدينة إذا
كنتَ تشبه الموتى وعمرُك لا يتجاوز العشرين. أعطيتُ الرَّحَّالَ

المال، فحاول أن يُعيده إليّ لكنني رفضت. فذهبنا معاً إلى متجر بيع الخمر، واشترينا ما يكفي لنسكر. هكذا تسير الأمور على الطريق.

أحياناً ما يصيبنا الحزن أيضاً، ينال الاكتئاب منا، والوحدة كذلك، مثل أي شخص آخر، رغم أنني أشك في أن البعض يعجبه ذلك. إن الشعور بالألم أحياناً ما يكون السبيل الوحيد لأن تدرك أنك على قيد الحياة. ونحن نتعامل معه كما نتعامل مع أي شيء آخر: نعالج أنفسنا. تحديداً بأكثر طريقتين شيوعاً بيننا وهما شرب الخمر وتعاطي المخدرات. لهذا السبب يكون فنية القطار غربي الأتوار حينما لا يشربون. نتعامل خارج المجتمع ثملين حدّ أننا نسينا كيف نتفاعل معه. وحتى الأشياء التي قد تثير القرف أو الخوف عند الشخص «الطبيعي» صرنا لا نلقي لها بالاً. ثمة شيء عليك معرفته يخص قافزي القطارات: نحن لا نجرؤ على إظهار ضعفنا. ولا نعتبر البكاء ضعفاً، بل نراه فعلاً خاصاً. لا أستطيع إجبار نفسي على البكاء في العلن، وإن كنت لا أقدر على تحمل الألم، فإنني أظل أتنقل بين القطارات إلى أن يصيبني التبلد. قد يرى البعض أن ذلك هروب، لكن بالنسبة إليّ هو تعافٍ.

الحزن والأسى هما أسوأ كابوسين قد يصيبان قافزي القطارات. إنهما شعوران قد يلتهمانا أحياء، وسنفعل دائماً كل ما بوسعنا لنهرب منهما، حتى لو صرنا مدمني كحول أو مخدرات لأن الحياة من دونهما قد تكون أسوأ. أتى كثيرون منا من بيوت

مهشمة، هاربين من ماضي أليم. لذلك اخترنا هذه الحياة، لأنها تمنحنا الحرية أكثر من أي حياةٍ أخرى، وكذلك تملأ نفوسنا بسعادةٍ لم نعهدها من قبل.

انتهى المطاف بأجرو ورفيقها في جاكسونفل، وهناك طردتهم الشرطة من ركنٍ بالشارع لأن، كما أخبرني چارد، «ذوي البشرة البيضاء كانوا يخافون منا، كأننا مدمنون سنتعاطى الكوكايين من فوق أجسادهم!».

كان يومًا مليئًا بالذكريات. هاتفني چارد ليقول: «لقد رأيتُ فتاةً سمراء جميلة للغاية يا جدي. طولها سبعة أقدام حرفيًا! سألتها إن كانت لاعبة كرة سلة، لكن لا. كانت طباحة. لاحظتُ وشومًا منتشرة على ذراعيها ووجهها. لقد راقَت لي حقًّا». سكت برهة ثم أردف: «لكنني أعتقد أنها مُثلية».

كانت تلك حكاية أولى مغازلاته لذلك اليوم.

أتبع: «قابلنا كذلك شابًّا تعرفه أجرو، اسمه إدو. إنه مُثلي أيضًا، وأظن أنني أعجبته. أجل، هذا ما حدث معي: قابلتُ مُثلية، ومُثلي أراد مصادقتي».

إدو، اسم آخر في شجرة عائلتهم.

أخبرتني شيرل لاحقًا أن چارد ذكر، في نفس الأسبوع، أن صديقين له قد ماتا من جرعة مخدرات زائدة.

سألته حينها: «هل تتعاطى المخدرات يا چارد؟».

فقال: «لا، لا».

وفي يوم الثاني عشر من سبتمبر، بعدما اتجهوا من چاكسونفل إلى ميرتل بيتش، مشى چارد مع أمه على شاطئ المحيط. سألته حينها عن الشيء الذي يريد من تلك الأمواج أن تمحوه من حياته، فنحت على الرمال بعكازه كلمة: «الخمير».

بالنسبة إلى آجرو، كان مشهد سير چارد مع أمه، جنبًا إلى جنب، تأكيدًا لحقيقة أنه «شخص مختلف».

قالت: «لا أزال لا أعلم الحقيقة، لكنه بدا كأنه يعيش في بُعد آخر من أبعاد الوجود. كان يضحك مهما ضيّقت عليه الحياة الخناق، كأنه يعلم شيئًا لا نعلمه جميعًا. شاهدته يمشي مع أمه على الشاطئ في ميرتل بيتش، كانا يبحثان عن الأصداف وأسنان القرش. وعلى الرغم من كل ما كان يدور في حياته في ذلك الوقت، فقد بدا سعيدًا في تلك اللحظة، كأنه لم يكثرث لأي شيء آخر، وكأنه تصالح مع العالم فقط لأن أمه كانت بجانبه».

ظننت لين أنه يريد الإقلاع عن شرب الكحول.

قالت: «ليس بوسع أحد إخباري بأنه لا يودُّ ذلك. لكن الكحول قد تحكّم به ونال منه».

في ذلك اليوم في سبتمبر، عرضت عليه غرفة نوم في بيتها ووظيفة مضمونة في متجرٍ لبيع الدراجات النارية. شكرها ورفض، لأنه سعيد بحياته في الطريق.

سألته لين:

- لماذا تقول إنك سعيد يا چارد؟

- لأن الجميع يعيشون في قلق دائم بسبب المال، ودفع الفواتير. لذلك حياتهم تعيسة يا أمي. لكنني أعيش في سعادة كل يوم. تمامًا مثلما سيكون يومنا هذا سعيدًا.

- لكن يا چارد، أي سعادة تقصد؟ سعادة شرب الخمر؟ إنك تعلم جيدًا أن الكحول سيقُتلك، وتعلم أن بنكرياسك لن يتحسن إلا إذا أقلعت عن الشراب. ومع ذلك، فإنك تزيد الأمور سوءًا.

- أرجوك يا أمي، أنا لا أريد التحدث عن الأمر. لكنني سأكف عن شرب الفودكا.

- كبذك لا تعرف الفرق يا عزيزي، كل ذلك كحول في النهاية. يومًا ما ستسبب النوبة التي تدهمك في مقتل، أو في إدخالك في غيبوبة.

- يا أمي...

- أعلم جيدًا أنني سألتقي خبر وفاتك يومًا ما. عليّ الآن أن أعرف شيئًا مهمًا يا چارد.

لقد حاولت معه بكل الطرق من قبل، وحان الآن وقت إخافته.

- أتريد أن تُدفن أم أن تُحرق جثتك؟

- مهلاً يا أمي! مهلاً!

لقد أخفقت لين، كما أخفق الجميع، في إقناع ابنها بالإقلاع عن شرب الكحول. والآن عادت إلى صرخة الأم البدائية.

قالت: أجل يا چارد. ما إجابتك؟

في ذلك اليوم المشرق، أعطت الأم ابنها صدفة التقطتها من الشاطئ، وأوصته أن يحتفظ بها للأبد. وفي كل مرة سيضع فيها يده في جيب سترته ويتحسس الصدفة، سيشعر بأن أمه تحتضنه وتقبله.



قدنا، أنا وشيرل، متجهين صوب واشنطن العاصمة ومن ثم غربًا وجنوبًا عبر مناطق المعارك التاريخية للحرب الأهلية وصولًا إلى بيت ابني، وهو مزرعة صغيرة في غابة الصنوبر الخربة قرب مقاطعة أورانج في فيرجينيا. وطئنا، في الصباح التالي، الأرض نفسها التي وطئها جِف وچار د حيث استقر آل كندرد قدومًا من شمال إنجلترا منذ ثلاثمائة عام مضى. لم نعرف من قبل هذا المدعو جوبلن الذي افترض أنه چارد، ولم نعرف كذلك ما ظنه ابننا جِف عن ابنه چارد الذي هو جوبلن. هنالك اجتمع رجال آل كندرد الثلاثة للمرة الأولى منذ أربعة أعوام. جالست جِف، في الليلة السابقة في مطبخه، فتحدثنا على نحو كان ينبغي لنا أن نمائله منذ سنين مضت.

كان الصمت قد تملك مني واعتراني الغضب منذ تلك المهاتفة التي تلقيتها من مونتانا منذ ثلاثة عشر عامًا. وكنت قد هَرمت فأزف الوقت لفعل ما انبغى عليّ فعله. إذ كنت قد خذلت أبي ذلك اليوم في رحلة الصيد برفضي الوقوف بجانبه لالتقاط الصور حين كان يحضر. تملك مني الصمت حينها وتملك مني في مونتانا كذلك، إلا أنني لم أكن لأسمح، في بيت ابني، أن يملك الصمت عليّ لساني.

أردت أن أعرف كيف كان لحِف أن يصرخ فيَّ: «أنا الأب هنا». إذ ما زلت أعد تلك الكلمات تذكرة أليمة لفشل أب منكب على عمله حد الإدمان فشلاً ذريعاً، حتى يتجاهل ابنه نصيحته عن فصل الأخوين بل أن يفعل ذلك بجام غضبه كما انطبع في صوته. قلت:

- أَلَمَتَنِي المَهَاتِفَةُ منذ ذلك الحين.

فقال حِف:

- أجل، بعثنا بچارِ إلى لين.

- أَقَفَلْتُ الهاتف في وجهك حين صرخت فيَّ: «أنا الأب هنا».

لم يتذكر حِف شيئاً.

- مَهَاتِفَةٌ كمثل تلك؟ لست أذكر.

فتح عبوة من الجعة بإبهامه. أبصرخ ابن في وجه أبيه ثم ينسى الأمر؟ إلا أني لم أنفوه، كمثل ليلة أن هاتفني من مونتانا، بكلمة. إلا أن الصمت لم يحمل بعد دهر نذر غضب. جئت لأرى چارد لا لنكء الجراح. جئت لسبب لم أدركه إلا عند حدوثه، كنت قد جئت لأتأسف لابني. قلت:

- إني آسف لخوضنا تلك المَهَاتِفَةُ. وأود أن أتأسف لأنني لم أكن أباً جيداً.

نَحَى حِف الجعة ورمقني. قال:

- عَمَّ تتحدث؟

- عن إفسادي الأمر.

- لا عليك، كنت أبًا عظيمًا.

- كنت غائبًا طوال الوقت.

- لا تؤنّب نفسك يا أبي، كنت عظيمًا. أبذل قصارى جهدي في العمل لأنك كنت تفعل المثل. ورثت عنك إخلاص العمل، إن رب عملي الآن يؤمن بالأواصر العائلية، فإن احتاج أحدهم إلى إجازة يوميًا ليبقى مع عائلته، يمنحه إياها. ولا أقدر على ذلك، إذ أنكب على العمل لسبب واحد، فشعاري أنني سأصبح ميكانيكيًا مكرسًا في شركة فورد مثلما كان أبي صحفيًا رياضيًا. ما زلت أذكر تلك المرات التي اصطحبتني فيها إلى قسم الرياضة في لويسفيل. لم أكن بالكاد التحقت بالمدرسة، حينما كنت تسبق الحضور بحثًا عن موضوع خبر صحفي. كنت تحضر لي آلة كاتبة وبعض الأوراق، وكنت أفتش في بريدك بحثًا عن مجلة سبيد سبورت نيوز وجريدة كريس إكنوماكي التي تغطي السباقات. جعلتني أعمل حتى قبل الالتحاق بروضة الأطفال، وكان أفضل ما في الأمر ماكينة البيع - حيث الكوكاكولا والحلويات.

أخبر معلم التاريخ في المدرسة الثانوية، فيل ميكولو، في إحدى المرات زملائي بالصف بأن أبي يكد في عمله. لم يفّه إلا بهاتين الكلمتين: «يعمل بكد»، ولم أنسهما منذ نصف قرن من الزمان مضى. كان ذلك لفترة طيبة من المعلم وحديثًا جانبيًا ولحظة لم تتعلق بتدريس التاريخ بل بتدريس الحياة. والآن، بوجودي في بيت ابني، سمعت ما لم أتوقع سماعه بأنني علّمت ابني حِف ما علّمني إياه أبي عن العمل.

فزادني حِف من الشعر بيتًا إذ يقول:

- مَنْ مِنَ الأطفالِ يَتَسَنَّى لَهُ خَوْضُ مَا فَعَلْتَهُ فِي مَعِيَتِكَ؟ كَمِثْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي مَبَارَاةِ الرَّجْبِيِّ لِفَرِيقِ الْكَارْدِينَالِزْ، مَبَارَاةِ مَوْسَمِ الرَّبِيعِ حِينَ اسْتِضَافُوكَ كَمَدْرَبٍ زَائِرٍ. اصْطَحَبْتَنِي مَعَكَ فَكُنْتُ فِي السَّادِسَةِ أَوْ السَّابِعَةِ حِينَ وَقَفْنَا قَرَبَ حُدُودِ الْمَلْعَبِ؛ أَنْتِ تُدَرِّبُ وَأَنَا أَقُومُ بِدَوْرِ الْمَدْرَبِ الْمُسَاعِدِ.

- حَقًّا.

- وَفِي سَبَاقِ دَايْتُونَا كَذَلِكَ حِينَمَا حَضَرْنَا سَبَاقَاتِ الْخَمْسَمِائَةِ. كَمْ طِفْلًا يَتَمَتَّعُ بِهَذَا؟ إِذْ جَلَسْتُ فِي كُومَةِ مِنَ الْإِطَارَاتِ فِي الْمَرَأَبِ أُحَادِثُ رِيْتِشَارْدَ بِيْتِي، وَتَبَوَّلْتُ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ مَعَ بَادِي بِيكِرْ، حِينَ كَانَ كِيلُ يَارْبُورُو يَسْتَحِمُ فِي اسْتِرَاحَةِ السَّائِقِينَ. فَأَصْبَحْتُ مِنْذُ حِينِهَا خَبِيرًا فِي سَبَاقَاتِ نَاسْكَارٍ. فَكُنْتُ أَسْأَلُ أَصْدِقَائِي فِي الْمَدْرَسَةِ: أَيْنَ وَالِدُكَ هَذَا الْأُسْبُوعُ؟ يَحْضُرُ وَالِدِي السُّوْبِرْ بُولَ عَامًّا بَعْدَ عَامٍ وَيَعُودُ إِلَيَّ بِالْهَدَايَا

- حَسَنًا.

- وَتِلْكَ الدَّرَاجَاتُ الَّتِي قَدْنَاهَا مَعًا.

كَانَ جُفٍ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عَمْرِهِ حِينَ ابْتَعْنَا الدَّرَاجَاتِ النَّارِيَّةَ. كُنْتُ قَدْ قَدْتَهَا مَرَّةً وَاحِدَةً فَتَسَبَّبَتْ فِي حَادِثَةٍ اصْطِدَامٍ وَكَسَرَتْ كَتْفِي، وَمِنْ ثَمَّ كَتَبْتُ مَقَالًا فِي عَمُودِي الصَّحَافِيِّ عَنْ ذَلِكَ. وَفِي حِينٍ أَصْبَحَ جُفٍ مَسَابِقًا بَارِعًا رَضِيْتُ أَنَا بِقِيَادَتِهَا وَحِيدًا عَبْرَ الْغَابَاتِ وَالتَّلَالِ وَالْأَخَادِيدِ الْأَكْثَرِ أَمَّا لِكِبَارِ السَّنِ أَمْثَالِي. فَيَقُولُ جُفٍ:

- أذكّر يوم جعلت أُمّي تقود الدراجة؟ فقادتها، فور أن أدارتها،
نحو إحدى الأشجار. كان الأمر رائعًا، كنتما رائعين في أثناء طفولتي.

كلا، كنت أبا سيئًا. فأصبح ذلك اليوم الرائع الاستثنائي حينما
قادت شيرل الدراجة مادةً لتوطيد الأواصر العائلية. كتبت مقالًا كوميدياً
في العمود الصحفي عنه. فما يملك الكُتّاب سوى الكتابة؟!

حسنًا، لربما كانت ثمة لحظات، في خضم أسلوبي الصموت،
فعلتُ فيها لحِف ما فعله أبي من أجلي. أراحني تذكُّر حِف لتلك
اللحظات المحملة بالامتنان منذ عمر مضى. وكنت سعيدًا أننا أنهينا
صمتًا مطولًا جنم علينا بين أب وابنه. فقلت، احتفاءً:

- أعطني واحدة من تلك الجعة يا بُني.

فكنت، آنذاك، أقدر على طرح الأسئلة الخليقة بحكّاء.

- لم، في اعتقادك، اختار جارد حياة التشرد في الطرقات؟

- هذا سؤال جيد.

قالها حِف بنبرة تنم عن أنه لم يتأمل في طرح سؤال كهذا من قبل.

- لست أعرف، لطالما أحب التنصل من المسؤولية. هذا كل ما
يحضر في ذهني، إضافة إلى أن يتمتع بالحرية ليفعل ما يحلو له.

قال حِف إنه -وبعد انقضاء كل هذا؛ من الطلاق حتى فصل
الأخوين وشعور حيكب بأنه ليس مرحبًا به في البيت بعد إتمامه
المدرسة الثانوية وأن عليه الالتحاق بالبحرية- تمنى لو كان بمقدوره
تغيير شيء واحد.

- كنت، في بعض المرات، أهااتف لين غاضبًا فأنعتها بأشنع الألفاظ، على مسمع الولدين. أندم على فعل ذلك، لم ينبغ عليّ فعل هذا.

واستشعر كذلك شيئًا لافتًا في حياة چارد.

- لم يأبه بالحصول على رخصة القيادة. أي الشباب في السادسة عشرة لا يتحمس للحصول على رخصة القيادة؟ لم يهتم البتة. أراد أن يبعد عن الحضر، فكأنما هو رجل من القرن التاسع عشر يعيش في عالم يخلو من رخص القيادة والضرائب، ويقتات بما تجود به الأرض؛ أي ما يقابل التشرد في العصر الحديث.

ثم استطرد:

- خلاصة الأمر، أحب عب الشراب والشمالة. هما جُل ما أحبه.

- متى، في اعتقادك، شرع في تناول الشراب؟

- لا بد أنه كان قد شرع في ذلك في السنة النهائية للمدرسة الثانوية. لم أدرِ بذلك سوى تلك المرة التي أحضره فيها رجال مكتب الشريف، حين كان في السابعة عشرة، إلى البيت. قالوا كان ثملًا بجوار أحد محلات البقالة. بل من الممكن أنه كان قد شرع في معاقرة الخمر لخمس سنوات قبل ذلك، حين ذهب ليعيش مع لين في فيرفاكس. انخرط، على الأرجح، في مختلف الموبقات قبل أن يعود أدراجه للعيش معنا في سنته النهائية.

- أتحدثت معه حيال معاقرة الخمر؟

- لم أخبره سوى أن عليه الإقلاع عنه. كان بارعًا في إخفاء الأمر، فلم يكن يود أن يخيب أمني فيه. لم أقل له قط أشياء على شاكلة: أنت فاشل لا تساوي شيئًا. لكن الناس دائمًا ما ينتقدونني على تعابير وجهي، إنني متأكد أنني قد عبرت عن خيبة أمني فيه بتلك الطريقة. لكنني لم أقل له سوى: «عليك أن تقلع عن هذا يا چارد، تمهل. عليك أن تمتنع عن الشراب، سيودي الأمر بك». فيقول: «أجل يا أبي، أنا تقريبًا أقلعت عن الشراب».

كنا، أنا وشيرل نقود في الطريق السريع، أي-٩٥ متجهين نحو بيت چف لنقابلهم جميعًا. فقدنا غربًا في طريق فيرچينيا الجنوبي الثالث عبر فردريكسبيرج ومن ثم قمنا خمسة عشر ميلًا آخر حتى لو كست جروث، فيما لم يشكل على الخريطة أكبر من نقطة. فكنا قد ابتعنا، قبل ستة عشر عامًا مضت، بيتًا و١٧٥ هكتارًا هنالك بحذاء أحد الجداول الذي يُدعى راسل رن. فبنينا، على مبعدة مائتي ياردة، بيتًا آخر بعناه إلى چف وليزا. فكانا عالمًا قائمًا بذاته، وكان كل ما تراه العين على امتداد ميل ملكًا لنا، وكان چارد وچيکب يوم انتقلنا إليه في الثامنة من عمرهما يتقافزان مرحًا من بيت أبيهما حتى بيتنا. فظننا، كما فعلنا في نيون، أنا سنقضي العمر هنالك.

والآن چارد في الرابعة والعشرين، لا يعيش في مكان ما بل في كل مكان. لم نعرف سوى القليل عن الحياة. فكنا نسمع عن ماجي وعن السيارة التي دهمته في أريزونا وعن تحذير الطبيب في المشفى. سمعنا عن تلك المآسي. لم نُكذِّبها إلا أنا لم نقبلها كذلك. إن الحياة

صعبة فيخوض المرء عبر المآسي حتى تصلح الأمور، ألا تصلح؟ كنا متحمسين لرؤية جف متربباً مقابلة چارد في اليوم التالي. كان چيگب خارج البلدة، وكنا في المزرعة الصغيرة برفقة جف وليزا وكالب وچوزي. كنا قد قضينا يوماً برفقة چارد ورفيقي دربه الجديدين چيمبو وآجرو.



في صباح التاسع عشر من أكتوبر، من العام ٢٠١٣، رأيتُ چارد أنا وشيرل. بعدما مضينا بالسيارة بين الأشجار الطويلة، وصعدنا طرقًا منحدره، رأيناه يقف بجانب جراج في مزرعة أبيه الصغيرة. إنه الفتى الذي حملته فوق ذراعي اليمنى في الأسبوع الأول من حياته، الفتى الذهبي الذي كان يرتدي البدلة البيضاء والحزام البنفسجي، والذي صار المراهق الأحمر الذي ارتدى سترة مُرصَّعة وقصَّ شعره قَصَّة الموهوك. وها هو الآن، يبلغ الرابعة والعشرين من عمره، شاب يجوب الولايات المتحدة الأمريكية عبر القطارات. وقف في انتظارنا على الرصيف المؤدي إلى بيتِ چف، جسده مُغطى بوسخ الطريق وترابه، وعلى طول خطِّي فكِّه نمت لحية خشنه. وعلى الرغم من كل ذلك، فإنني أقسم إنه بدا وسيماً!

كان جميلًا في زي الرحَّالة: سترة كارهارت المتسخة، وبنطال واسع جدًا عند خصره له حمالتان، وطيَّاه مرفوعتان عاليًا فوق حذاءين مبللين من الجلد انفك رباطهما. وعلى رأسه وضع قبعة بيسبول مرر فيها خيطًا وعقده أسفل ذقنه كي لا تطير من أثر الزوابع التي تمر فيها القطارات. وحول رقبته لف ربطة رأس كانت يومًا حمراء، ثم سودَّها

الزيت والشحم. إنها «راية القطار» كما يُسميها الرحالة، تُحمَل حتى الموت أو التفتت فوق القضبان، أيهما أقرب.

قالت شيرل لحفيدها: «إنك لا تسمح لي أبداً بأن أغسل لك هذه الأشياء».

قصدت المرايل القذرة التي اعتاد ارتدائها منذ أن عاش في الشارع، قبل حتى أن يتعلّم القفز على القطارات.

ضحك جارد وقال: «عليّ المحافظة على مظهري المتسخ، وإلا فلن يعطيني الناس نقوداً».

خفتُ أن أراه جلدًا على عظم، فقد كان نحيفًا طوال عمره، كما أن الحياة على الطريق لم تكن سهلة قط. قُدت السيارة من واشنطن إلى أورانج، وخلال الرحلة بحثتُ عن سببٍ واحد وراء مظهره الجيد هذا ولم أجد. صحيح أنه لم يزل نحيفًا، لكنه لم يزدد نحافةً منذ آخر مرة رأيته فيها، بل بدا قويًا وبصحة جيدة، وتورّد وجهه ولمعت عيناه. عندما أتى ليحتضنا، ظل يضحك كثيرًا ويقفز في مكانه كأنه يرقص، ثم سألني على الفور: «أتذكر يا جدي كيف كنتَ تحكي لي قصصًا عن بي وي ريز، ومحمد علي، ولاعب الكرة الذي ظلّ يقول «الحب، الحب، الحب»؟».

حكيتُ قصص قبل النوم تلك منذ ستة عشر عامًا، لما كان لم يزل طفلًا، يسمع الحكايات نفسها ليلةً بعد الأخرى. كانت قصص صحفي رياضي، اخترتها لأنني أعرف تفاصيل ستكسبني بعض الوقت إلى أن ينام ذلك الطفل ذو الثمانية أعوام. ومنذ ذلك الحين، وقعت أحداث كثيرة في حياته، وما زال يذكر خلودنا للنوم معًا.

بالقرب من منزل والده بشيرچينيا، رأيتُ چارد ذا الثلاثة أعوام يقف عند محطة إطفاء نيونان ويقول: «وداعًا يا عربة الإطفاء!»، كما كان ينزلق تحت صندوق الموسيقى لبحث عن إلفس. رأيتُه في سن العاشرة يتأرجح في الفناء الخلفي، وبجانبه كلبه إكيا، يركض وينبح تجاه قدميه الطائرَين. رأيتُه في سن الخامسة عشرة وهو يقود سيارة سباق صغيرة، تقفز به وتجنح، على الناحية الأخرى من مرعانا. كل يوم كان معجزةً تتحقق بفعل ترتيبات بيوكيميائية معقدة للغاية، حدّ أننا نختصرها في كلمة واحدة: «الحياة».

في تلك الصباحات التي نام فيها چارد بجانبي، كنتُ أراقبه مندهشًا من أن معجزةً مثل هذا الصبي قد تحققت. أردتُ أن أحمله، أن أضمه، أن أقيه شرَّ عالمٍ باردٍ وقاسٍ بإمكانه أن يكسره ويتركه وحيدًا لأسبابٍ ربما تكون غير منطقية. أردته أن يبقى طفلًا للأبد.

أبصرتُ وشمًا على كتفه اليسرى. كُتِبَت كلمة «خسيس» بحروف متصلة فوق رسمٍ لجمجمة يخرج من عينيها مسماران من مسامير السكك الحديدية. وتحت الجمجمة كُتِبَت الأرقام: ١٢٣. شرح لي معناها قائلاً: «إنها وصايا «الأوغاد الأخسَاء»: لا تكذب، لا تخن، لا تسرق»^(٣٣). إنه دستور الرحالة، لا الوصايا العشر. قواعد تفوق ما يتبعه بعض المواطنين العاديين، تكفي لتذكّرني بما قاله دير جاد عن چارد

(٣٣) وردت في النص الأصلي كالآتي: Thou shalt not lie, thou shalt not cheat, thou shalt not steal وهي ثُمائل ثلاثاً من الوصايا العشر في التراث اليهودي المسيحي، كما جاءت في سفرَي الخروج والثنية: Thou shalt not steal, thou shalt not bear false witness, thou shalt not commit adultery

في أحد الأيام: «إنه حسن المعاملة مع الجميع. اعتبره يسوع القفز على القطارات».

لحيته كانت في لون القرفة، تركها من دون أن يُهذَّبها حتى صارت كإطار غريب لوجهه الوسيم وعينه الزرقاوين. لاحقًا في ذلك اليوم، التقطنا صورةً عائلية. وقف خلف جدته مبتسمًا، ووضع يده اليسرى على كتفها اليسرى، وبده اليمنى قبضت على خصلة من ذقنه. قال حينها: «هذا الدفء سيُرافقني طوال الشتاء».

من ميرتل بيتش، ركب كل من چارد وآجرو وچيمبو قطار شحن متجهًا إلى ريتشموند، وهناك اصطحبهم بعض الأصدقاء بالسيارة شمالًا إلى أورنج.

أحد أصدقائه، يُدعى شون لوسون، قال: «كلما أتى چارد إلى البلدة، شعرتُ كأن جاندا لف من فيلم «الهوبيت» قد زارنا. كان رَحالة عظيمًا نقضي معه أمتع الأوقات، ونستمع إلى قصصه المدهشة. صرنا نناديه «الهائم». كان بالنسبة إليّ رمزًا للحرية المطلقة، وكم كنتُ أحسده على كاريزمته! يا إلهي، وسجائره الكارلتون الرفيعة الطويلة تلك! كان ينطق اسمها بكل تفاخر قائلاً: «كااااهلتنون». ذات مرة قال إنه سيكف عن شرب الخمور الصافية، وضرب النافذة بيده. لكنني رأيته بعد ذلك يشرب الفودكا فواجهته. وحينها قال بفخر بعدما ثمل: «هذه الفودكا خالية من الكحول، فقط بها ماء يا أحمق!» فسامحته لخفة ظله».

ولأنه من الأفضل أن تظل هناك مسافة بين الحضارة ورائحة كلاب الطريق المميزة التي لا تزول بسهولة، فقد دعا چف -أو بالأحرى أَمَر-

رفاق چارد لأن يبقوا في جراحه الخاص. قال: «لديّ نسخة من مسلسل «الموتى السائرون» هناك. وكانت نجمة العرض هي تشاريتي آن ويليامز». قال چارد: «لا أحد يناديها بتشاريتي. إنها آجرو».

شجاعة، ذكية، ممتلئة الجسد من كتفها إلى فخذها، طولها خمسة أقدام، ووزنها ١٧٠ رطلاً، جسدها مليء بالوشوم والحلقان، ذات حضور غامض، ترتدي حذاءين سوداوين، ومرايلها السوداء أيضًا، وشعرها البني المقصوص الذي يتدلى من أسفل قبعة الجينز الصغيرة. إنها آجرو التي كانت تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا وتعيش في پلانو، تكساس، عندما ماتت صديقتها المقربة إثر جرعة ميث زائدة. منذ ذلك الحين صارت ترتحل، باستثناء الثمانية عشر شهرًا التي عملت خلالها في مصنع لتعبئة اللحوم بسان أنطونيو. ولأنها رومانسية لحد كبير، فقد تغنّت عن أولى رحلاتها على متن قطار شحن.

«كنا أربعة في عربة مسطحة تقع بين مقطورتين صغيرتين، تُعرَف بـ«الحمّالة»، وبقينا في الأعلى من أوكلاند، كالفرنيا، إلى يوجين، أوريجون. كنا نُدلي أقدامنا من الحافة، ونختبئ عندما نمر بالبلدات. كم هو رائع أن تشاهد الشلالات الصغيرة من فوق العربات، وترى مجرة درب التبانة في سماء الليل! قلتُ حينها: «لن أركب السيارات أبدًا». فقد وقعتُ في الحب. تلك الرحلة الأولى تشبه القُبلة الأولى؛ مخيفة لكن مبهجة في الوقت ذاته. لاحقًا ستدرك أنك إما ستُكمل ركوب القطارات إلى آخر يوم في عمرك، وإما لن تركبها ثانية. أما أنا فتروجتُ تلك العجلات الفولاذية، والقضبان التي تمتد لأميال».

عندما كان چارد يقضي وقته مع ماجي في ماونت أيري، حين سمع اسم آجرو للمرة الأولى وعلم أنها متورطة في جريمة قتل بشكلٍ ما، كانت آجرو تقضي ستة أشهر في سجن كانساس سيتي، بتهمة ضرب متشرد يقطن شوارع مسقط رأسه. وبعد مغادرتها، كتبت هذا المنشور على فيسبوك:

خلافًا للاعتقاد الشائع، فإنني لم يُحكَم عليَّ بقضاء ٣٠ عامًا في السجن. وأنا لستُ مدمنة هيروين، ولم ألمسه في حياتي قط. والآن، فقد خرجتُ من السجن، وسأبقى في كانساس سيتي لأذهب إلى الجامعة وأتعلّم رسم الوشوم.

أخبرتني في ذلك اليوم في أورنج بأنها علمت مصدر وسامة چارد. كانت ذات يوم تجلس خلف طاولة في نزهة، فرأت رجلًا يمضي نحوها. قالت لي: «لاحظتُ أنه ارتدى بنطالًا مموهًا وقلنسوة زرقاء. لم أرَ جف من قبل، لكنني نظرتُ لجوبلن وقلتُ: «أبوك هنا». من نظرة واحدة قلتُ في نفسي: «إنه چارد بعد عشرين عامًا»».

عشرون عامًا؟ ما أجمل تلك الهدية! إذا أضفنا عشرين عامًا على ذلك اليوم، فسيتم چارد عامه الرابع والأربعين في أكتوبر ٢٠٣٣. سيكون على الأرجح زوجًا وأبًا. وسيعمل مع بوتش في حرفته اليدوية بدوام كامل، لهذا السبب عرضت عليه أمه العمل في متجر بيع دراجات نارية، لأنه بارع في التعامل مع الآلات إجمالًا، مثل أبيه وأخيه جيّكب. لكن، عشرون عامًا؟ قد يعيش المتجول حيوات كثيرة في تلك المدة. ربما المعادلة التي تتبّعها آجرو أن سنة الترحال تساوي خمس

سنوات من البقاء في المنزل؛ أي أن خمس سنوات من حياة چارد بين القطارات، تساوي خمسًا وعشرين سنة من المكوث في البيت. في المحطة التالية من «جولة عائلة جوبلن» (كما أسمتها آجرو)، قالت له: «عليك أن تحذر، فنحن نتقدم في العمر سريعاً».

جلس چارد مع إخوته من عائلته الثانية في جراج چف، من بينهم رجل الإطفاء المتدرب كالب الذي كان حينها يبلغ السابعة عشرة، وچوزي ذات التسعة أعوام التي راقبت جميع تحركات چارد من دون أن تنبس بكلمة. عيناها ظلَّتا جاحظتين ومصوّبتين تجاه أخيها الذي لم تعرفه. والحق أنها لم تكن الوحيدة التي أحسَّت بالفضول تجاهه، فنحن عرفنا چارد الذي عاش في بيوتنا، لكن چارد الذي وقف أمامنا في مزرعة أبيه، أو بقول آخر جوبلن الرخالة، فهذا لم نعرفه.

إنني أعلم الآن أنه أتى من سان ديجو ونيو أورلينز وشمال نيويورك وصحراء نيو مكسيكو الشاسعة. كما أعلم أنه ركض خلف فتيات عاريات في صحراء أوكالا، وضاجع فتاةً جميلة لها أصول من فرنسا وبورتوريكو، على رمال جزيرة كوني. وفي النهاية عثر في كارولينا الشمالية على المرأة التي كان بإمكانه، وكان يجب عليه، تزوّجها.

دائمًا ما قال لي: «إنني أفرح يا جدي». وأعتقد أنني فهمتُ مقصده. لقد رأى حيوات في عالمنا هذا خالية من المرح، حيوات مليئة بالقسوة والغضب، حيوات من لا يشربون الكثير من الخمر، وقد اختار أن يعيش حياةً مختلفة.

قبل وصوله إلى منزل چف في ذلك اليوم من أكتوبر عام ٢٠١٣،

كان قد طاف الشوارع مع واعظين متجولين يحدثون الناس عن يسوع، وكذلك مع المشردين الذين يبيعون المخدرات للأشخاص غربيي الأطوار ممن يسكنون «الحي الخامس» في هيوستن. كما رقص في شارع بوربون، وعلى متن قطار يمشي في نيو مكسيكو ليلاً. وأحبَّ ساراфина سكارليت، المغنية صاحبة الوجه الملائكي. لقد كان مدمن كحول، ومغامراً، وقافز قطار محترفاً، وقائداً، ومحباً، ومقاتلاً. سأقتبس ما قالته ماجي من قبل: «كان أسعد إنسان رأيته في حياتي».

حكاية جف

أخبرته أنه أشجع شخص عرفته. لكن أكبر مخاوفي كانت أن يتعرض لضربٍ يُفضي إلى موته. قلتُ له: «ستعرض للضرب المبرح، ثم ستلقى من فوق قطار، ولن يسمع عنك أحد مرة أخرى. أو ربما سترك في مكانٍ ما لتتغذى عليك الذئاب». وحينها رد قائلاً: «لا! لن يحدث ذلك يا أبي».

كان يعلم أنني محرج منه، وكم أردته أن يستقر ويحظى بوظيفة. لكنني في الوقت ذاته كنتُ فخوراً به، لأنه فعل ما كنتُ سأفشل في فعله. لقد اتجه غرباً لمسافةٍ أطول من تلك التي قطعها، وطاف بلدنا كما لن أطوفه. إنه قام بما فعله مناضلو الحرب الأهلية في ستينيات القرن التاسع عشر. كانوا صغاراً، يتعدون عن بيوتهم آلاف الأميال، يمشون في بلادٍ غريبة، يقفزون على القطارات، ولا أحد يعلم وجهتهم.

وجدتني أذكر جد جدي، أو فرتون كندرد، الذي كان يخرج من بيته فجأة ليمشي، وهو في سن الثمانين، من إلينوي إلى كنتاكي، وتلك مسافة أربع مائة ميل، ليزور أقربائه، ثم يعود من دون أن يعلم أحد أين كان. قلت لجارد: «إنك تتبع تقليدًا عائليًا»، وأرجعتُ حب التجوال هذا إلى جينات العائلة.

حاولتُ إقناعه بأن يكون مثل مناضلي الحرب الأهلية: «تنقل بحصانك بين الولايات يا جارد وستلقى دعمًا أكبر مما تتخيله». في شمال فيرجينيا، كان ثمة رجل يمشي بحصانه كل سنة إلى بلدة جيتيسبرج، سالكا «الطريق رقم ١٥»، الطريق الذي مشى فيه جيش فيرجينيا الشمالية. عاش على ظهر حصانه هذا لمدة أسبوعين أو ثلاثة. لهذا السبب أعطيتُ جارد تلك القبعة الكونغفدرالية. كان سيصبح بطلاً لامعًا.

كنتُ أحسده على ما يفعله. فإنه كان يشبه مناضلي الحرب الأهلية، أصحاب الثمانية عشر عامًا، الذين مضوا إلى أماكن رأوا فيها أهوالاً مخيفة، حتى علموا أنهم سيموتون في اليوم التالي. لكن جزءًا منهم أحب ذلك، مثلما أحب جارد ما يفعله.

وجب عليّ أنا وشيرل مغادرة أورانج لنعود إلى واشنطن مبكرًا قبل حلول المساء. وقبل رحيلنا، أردتُ التقاط صورة لجارد مع

روبرت إدوارد لي^(٣٤). كانت أورانج مستوطنة شمالية في فترة النظام الكونفدرالي، من مارس ١٨٦٢ إلى مايو ١٨٦٤. وقد سكنها «لي» خلال تلك الفترة.

وعلى حائط غرفة المعيشة في منزل جف، ثمة صورة مطبوعة للجنرال.

قلتُ لجارد: «هيا، سألتقط لك صورة بجانب الجنرال «لي»».

حمل بندقية تُلَقَّم من فوهتها، ووقف أمام الصورة. رفع ذقنه للأعلى قليلاً، وضمَّ البندقية العتيقة إلى صدره. رأيتُ حينها ذلك الصبي النحيف ذا اللحية الرفيعة كما رآه جف: نسخة القرن الواحد والعشرين من جندي الحرب الأهلية الذي ذهب إلى أماكن أثارت دعره.

لقد ذهب جارد إلى أماكن مظلمة، أكثر ظلاماً مما تخيلنا في ذلك الوقت، وفي ذلك المساء ودَّعناه، وودَّعنا آجرو وچيمبو كذلك. أخبرونا أنهم يخططون للانتقال من فيرجينيا إلى فيلاديلفيا.

قلتُ لهم: «لا تنسوا أن تتواصلوا معنا، رجاءً، أيها الشباب. فأنا أريد أن أفهم قصصكم ذات يوم. أخبروني عن الأسباب، عن كل شيء، من البداية إلى النهاية، من دون أن تغفلوا شيئاً. ولا تنسوا الطرائف».

جارد: «أجل، أجل، يمكننا جعل القصص طريفة».

جف: «ولا تذكروا المآسي».

جارد: «أجل، لن نذكرها».

(٣٤) قائد جيش القوات الكونفدرالية في فترة الحرب الأهلية الأمريكية.

حكاية أجرو

الأجزاء المضحكة؟ حسنًا، مثل المقابل؟

كان جوبلن معنا في بلدة صغيرة تقع بالقرب من سافانا. حملنا حقائبنا بعدما ملأناها بالأمثلة اللازمة من متجر بمحطة وقود محلية، واتجهنا إلى جسر يمر بساحة السكة الحديدية. لا يمكنك القفز على القطار معتمدًا على سياج حديدي يحد أرضًا خالية. لذلك صعدنا الجسر، ثم مررنا أرجلنا من فوق الحافة، ونزلنا إلى أسفل الساتر الترابي ببطء.

في الأسفل كان ثمة حاجز طوله سبعة أقدام تقريبًا. خلعتُ حقيبتي وألقيتُ بها فارتطمت بالأرض مُحدثَةً ضجيجًا عاليًا وسحابةً من التراب. جُلْتُ ببصري بحثًا في كل مكانٍ عن أي لوحة كُتِبَ عليها بجبر حاد، أو طلاء، أو طباشير، أو حتى شحم. وجدتُ رموزًا، وعلامات، وأسماء، ورسومًا كاريكاتيرية، منها الجميل والمتقن ومنها البدائي. أبصرتُ جملة: «چو المتشرد كان هنا»، موقَّعة ومُترَّخة.

اندفعتُ أنا وجوبلن نفتش عن أي دليل لقفزة حديثة. تُرى هل خَلَفَ أحد أي شيء قد نعثر عليه؟ لم نجد أي موقد، لكن كانت ثمة ألواح خشبية ومشعل. طالتنا الحرارة المنبعثة من ساحة السكة الحديدية، والتي -باختلاطها مع أصوات الزيزان- كانت كمخلوقٍ منفرد. أما أسفل الجسر، فثمة رطوبة باردة بين الطين

والطحالب المتحجرة. وشممتُ رائحة الصداً المنبعثة من عربات القطارات وعلب الصفيح القديمة.

ثمّة فجوة بين الأشجار. ما هذا الذي هناك؟ نركض لنقطف أوراق الشجر، وندّهمس الأغصان بأرجلنا، ونركل الأنقاض تحتنا. نرى دائرةً من كراسي غرف الطعام المختلفة، والكراسي التي بلا مساند، وصناديق الحليب الفارغة! كل شيء مغطى بشعارات لن يفهمها سوى قافزي القطارات! ورأينا أيضاً أجراس رياح مصنوعة من زجاجات فارغة، وشذرات من الزجاج الملون، ومسامير السكك الحديدية، وقطع قماش مأخوذة من ربطات عنق، بالإضافة إلى تذكارات أخرى خلفها المتشردون.

جميع الشعارات مرتبطة بسافانا، فات عليها عامان تقريباً. ثمّة موقد فوق حفرة يُستخدم في الطهي، تمنيتُ أن يكون بارداً حتى لا نضطر إلى البقاء لاستخدامه. ولكن تبّاً، قال جوبلن وقد جحظت عيناه اندهاشاً: «فلنبق هنا ليوم واحد».

عمّ المساء وعاد الناموس لينتقم، فلا رائحة تعلو فوق رائحة المبيد الحشري حولنا، ولا صوت سوى صوت رشّاش «أيروسول». يا هذا، مرّر إليّ زجاجة بيرة! تُضاء مصابيح بخار الصوديوم في الساحة كأنها يراعات ضخمة ثابتة. نسمع قرقرة عجلات السيارات فوق الجسر، وصرير عجلات القطارات فوق القضبان. وتعلو همهمات المحركات ودقاتها، بينما تنبعث أصوات غير مفهومة من أجهزة إرسال عمال التحويلة، في أثناء قيامهم بأفضل الأعمال على الإطلاق: بناء مواصلاتنا.

في الظلام تمتزج ضحكاتنا مع أصوات مكتومة، ونفثات الكلاب النائمة ونخراتها. تتزاوج القصص مع ضحكاتنا التي تعلقو تدريجيًا بعدما أضاء الخمر ظلام الليل في أعيننا. تنبعث في الجو رائحة زكية الآن، كرائحة الياسمين وزهر العسل. وطعم البيرة الرخيصة الحاد، الممزوج بمشروبٍ آخر، يُدغدغ لسانِي.

ما هذا؟ هل سمعتَ ما سمعته؟ هناك قعقة خافتة تأتي من ناحية المسار الرئيس. تبدّلت الحال من الاسترخاء إلى التوتر في تلك الليلة. اعتدلنا في جلستنا، واستحضرنا حاستي السمع والشم، كأنا الكلاب التي تنام بجانب أرجلنا. شششش! هل سمعتَ هذا؟ من أي طريق سيأتي؟ تبًا! لقد فتحنا الزجاجات ولن نستطيع إعادة غلقها من جديد! يعلو صخب أغراضنا التي نُعبّئها سريعًا في الحقائب، وأصوات أقدامنا. تبًا! ابتعدوا عن الطريق!

مضى جوبلن إلى المسار الرئيس، مختبئًا بين الظلال، يتلقّف يمينًا ويسارًا. هناك! صافرة وحيدة تنبعث من نهاية المسار، وثلاثة أضواء تتراقص في الظلام. انتظرنا، بترقّب.

وإذا بچارديتراجع للخلف ثلاث خطوات سريعة، مبتعدًا عن القضبان. يجرّ قدميه كما يفعل دائمًا. ثم أخرج لفافة تبغ من جيب سترته الكارهات، فانتظرناه ككلبين سيُلقي لهما عظم. في النهاية، تحدث جوبلن وهو يشعل سيجارته قائلاً: «إنه متجه شمالاً!».

لم تكن لدينا أدنى فكرة متى سنرى چارد مجددًا. ربما كان جنديًا عاد إلى المنزل ليأخذ عطلة من حربٍ لا نطمح إلى فهمها. لقد أردناه فقط أن يكون بأمان. وكم سعدنا برؤية الفرح في عينيه في ذلك الصباح الذي زرنا فيه منزل أبيه في الغابة، حيث برقت ألوان الخريف!

كان يوم خلاصنا؛ أتى فيه ابني، الذي أحببته من أعماق قلبي، بابنه الذي أحبه من أعماق قلبه. كان بإمكان الأخير البقاء بعيدًا، لكنه عاد إلى حضن أبيه. وما حدث وانتهى خلال السنوات الماضية، حتى لو لم يُنس، فقد غُفِر، لنكون عائلةً واحدة من جديد، ولو ليوم واحد.

قبل واحد وعشرين عامًا، غادر چف ولين والصبيان چورچيا. في ذلك اليوم، نظر چارد ذو الثلاثة أعوام إلى شيرل من مكانه بمقعد الصف الثاني داخل الشاحنة، فلمَحَ حزن الفراق في وجهه. أما هذه المرة، فقالت لي آجرو: «كاد جوبز»^(٣٥) يبكي لأنه رأى شيرل. وكان سعيدًا للغاية لقضائه وقتًا معها. كما أخبرني عن علاقتهما الوثيقة بعضهما ببعض».

وقفنا بالقرب من جراج چف لبعض الوقت لأننا لم نُرد الرحيل، أو بالأحرى لم نُرد أن ينتهي اليوم. احتضنناه وأوصيناه أن يعتني بنفسه، وأخبرناه أن يتصل بنا إذا احتاج إلى شيء.

قلتُ له: «أحبك يا بُني».

فقال: «أحبك يا جدي. أحبك يا جدتي».

(٣٥) جوبلن، لكن آجرو أطلقت عليه «جوبز» في هذه الفقرة فقط.

في أثناء رحيلنا، رآته شيرل يُلوّح لنا، لكنها لم تنبس بكلمة إلا بعد دقيقة من تحرّكنا. قالت: «هل رأيت الدموع في عينيّ چارد؟ لقد بكى عندما رحلنا، لكنه حاول إخفاء ذلك عنا».

بعد يومين، اصطحب چف الثلاثي چارد وآجرو وچيمبو بسيارته إلى محطة قطار فريديريكسبورج. خطط الطاقم للتوجه إلى فيلاديلفيا كي يقضوا عطلات عيد الشكر، وعيد الميلاد، والسنة الجديدة.

قال چف: «كان چارد أول من غادر الشاحنة من فرط حماسه. لم يُطق الانتظار. كان يُخرج أغراضهم، ويتحدث كثيرًا عن المكان الذي سيذهبون إليه. وكلما ناديته لم يكن يرد. لم يسمعي أصلاً من فرط انشغاله حينما صحّت: «يا چارد!». فقال له چيمبو: «أبوك يناديك يا صاح»، وحينها ردّ چارد قائلاً: «نعم يا أبي».

أعطاه چف سترة كان قد اشتراها من متجر فورد حيث يعمل. قال: «خذ هذه. إنك متجه إلى الشمال».

فقال چارد: «إنها جميلة يا أبي، شكرًا».

بعد ذلك قال لي چف: «ثم رحلوا، ولم أعلم إن كنتُ سأراه ثانيةً أم لا. كان هذا شعوري دائماً. لقد أتى إلى فيرجينيا ثلاث أو أربع مرات من قبل، وكان يزورنا. وفي كل مرة اصطحبته فيها إلى محطة القطار، راودني إحساس بأنها ستكون المرة الأخيرة».

هاتفني چارد مبكرًا في ديسمبر من العام ٢٠١٣، من فيلاديلفيا.
قال:

- سأنتجه من فوري، بعد عيد الميلاد، إلى إلينوي لأراك.

- كيف ستصل إلى هناك؟

- على متن قطار البضائع.

كانت طرق سفره تدهشني آنذاك ولا تزال تدهشني الآن. تمكنت من رصد تنقلاته عبر ملاحظاتي للمهاجرات والمقابلات. كان يتحدث عنها بعفو الخاطر، فكأنما ركوب قطارات البضائع على نحو غير قانوني وخطير في رحلة تصل إلى ١٥٠٠ ميل من مدن الساحل الشرقي الكبرى حتى القرية الصغيرة القبيحة في إلينوي، لم يكن سوى رحلة عمل قصيرة يقطعها حتى ملعب البيسبول.

وكان بصحبة چارد چيمبو وآجرو اللذان كانا متجهين إلى فيلاديلفيا لاصطحاب جرو قبل هجر الصقيع نحو تنسي. اعتزم چارد الرحيل معهما، لكنه صادق أحدهم، حين كان يساعد في نقل أثاث أحد معارفه. كانت امرأة تدعى «بروك». أخبرتني بروك: «تناغمنا أنا وچارد على الفور. كان محببًا وفكاهيًا، لم يكن سوى فتى طيب القلب يستمتع بالحياة».

قرر چارد، عوضًا عن الرحيل إلى تنسي مع رفاقه، البقاء مع بروك في منزلها في حي جنسنجتن في فيلاديلفيا. لم ترَضَ آجرو، التي اعتبرت چارد أخاها الأصغر برقة بنيانه وإعيائه، عما رأته يحدث. فتقول: «كل ما فعله چارد لشهور في أثناء تسكعنا في الطرقات برفقتي وچيمبو هو أن تسوء صحته وأن يشكو فراقه ماجي. أحب بروك، لا شك، إلا أنه أخبرني أنها ليست كماجي. احتاج إلى العون، والآن تركنا من أجل بروك».

كان منزل بروك يقع في مقابل ورشة تصليح سيارات في زقاق متداعٍ مرتفع من أحد الشوارع. واجهة المبنى القرميدية بدت كأنما علاها السخام أو الاسوداد عبر سنين كنسنجتن الكثيرة. قادت إليه ثلاثة سلالم أسمنتية حتى باب حديدي تَوَّطره الأخشاب المشروخة والطلاء الباهت لونه. وتشابكت القضبان الحديدية على نافذتي الطابق الأول والقبو.

حمل قطار معلق، على مبعدة نصف ميل من تقاطع جادة كنسنجتن وشارع سومرست، الركاب وأنزلهم. وذاع صيت المكان المشبوه لعمل تجار الهيروين والمومسات في جنباته، فلم تقطع عليهم عملهم شرطة فيلاديلفيا المشغولة بجرائم القتل وحروب العصابات. فكانت نصيحة بروك: «لا تخطُ هناك ليلاً».

تقول آجرو: «لم يكن في هذا الحي الكثير من المارة، وكان المنزل في موقع غريب كأنه شارع جانبي، لست أقول إنه مكان خرب بالضبط لكنه بمثابة سوق مكشوفة للمخدرات. تجمَّع أولئك الناس

قرب نواصي الشوارع ومكاتب معونات الغذاء. ولم يشع، في غالب الأحيان، النشاط في الحي. كان بمقدورك أن تستشعر الأمر إذ يشيع في الهواء، كان نوعًا من اللا مبالاة، لم يكن ثمة شيء يحدث، ماتت صور الحياة هناك».

وتستطرد آجرو: «كان لبيت بروك أرضية خشبية طويلة وضيقة متسخة بأكملها فكأنما لم تنظفها قط. تراكمت كرات شعر القطط والكلاب في زواياه. وارتأى كلب رفيقتها في السكن أن أفضل مكان يبول فيه هو ركن المطبخ، فلا ينبئ الكلب حتى عن حاجته إلى الخروج، بل يقضي حاجته فقط. بإمكانك أن تظن المكان، باستثناء الأثاث، مكانًا مهجورًا للوهلة الأولى. ولم تكن لديهم أطباق، لطالما تساءلت كيف كانتا تطهوان حتى علمت أنهما لم تفعلًا. لم يكن البيت، على أي حال، مكانًا تخطو فيه حافيًا».

أدخل چارد، في الثالث من يناير للعام ٢٠١٤، إلى مشفى إيسكوپال الذي يبعد ستة أعشار ميل عن بيت بروك. فشخصه الأطباء بالتهاب البنكرياس الناجم عادة عن معاقرة الكحول. البنكرياس هو عضو صغير يقع خلف المعدة وهو مخفي بداخل القفص الصدري، وضروري لهضم الطعام. ويُعرف عن التهاب البنكرياس أنه يولد شعورًا حارقًا كمثل أعمال سكين ساخنة في الظهر. بإمكانه أن يؤدي بك.

وفي السادس من يناير، وعوضًا عن تلقيه العلاج لالتهاب البنكرياس، خرج چارد طوعًا من المشفى رغم تعاليم الطبيب.

كانت قد مرت ستة أشهر منذ ترك ماجي چارد في أحد مشافي ألكسندريا ومن ثم رحيلها إلى بيتها في ماونت أيري. حصلت على وظيفة نادلة في إحدى الحانات. كانت تعلم أن چارد لا يزال متشردًا في الطرقات، مسافرًا برفقة آجرو وچيمبو. كم أرادت أن تكون هناك برفقته! فبقيت على اتصال به محاولة إيجاد الوقت والمكان المناسبين لأن تقابله.

لم يحفظ هاتف چارد الرسائل النصية، إلا أنه أبقى على رسالة ماجي التي قالت فيها:

«أود رؤيتك. عليّ أن أكسب بعض المال وأن أبتاع الأحذية وطوق الكلاب وبعض الأشياء ومن ثم سأرحل. بإمكاننا، إن أردت، أن نتقابل في أي مكان قريبًا، لأنني حزينة طوال الوقت ههنا. لا أنام أبدًا في العلية فالأمر يحزنني. وسيكون شعوري بالغ السوء لتركي أُمي، لكن الحياة يفترض أن تكون مفرحةً، أنا بارعة في كوني ثملة ذرية اللسان شحاذا نذلة عن كوني رهيفة الإحساس.

تلك مشكلات عائلية لست أقدر على التعامل معها. إني تعيسة، لم يكن الأمر بهذا السوء حين كنت معي. أحب أُمي لكنني لست معدة للعمل ودفع الفواتير.

إنك الشخص الوحيد الذي بإمكانه فهم ما أقوله.

ابعث إليّ بإحدى صورنا لأُشرح بمرآها».

وكان ثمة محادثة في هاتف ماجي. بدأت في ١١, ٠١ مساءً في العاشر من يناير في العام ٢٠١٤.

ماجى: آمل أنك بخير.

چارڊ: لست على ما يرام نوعًا ما، سأعود إلى المشفى، حاولت ذلك اليوم بالفعل لكن الانتظار في قسم الطوارئ كان طويلًا.

ماجى: كلا! ماذا حدث؟ كيف تشعر الآن؟

چارڊ: لديّ التهاب في البنكرياس، لست أعرف كيف أنطقه لكنه يؤلمني للغاية. لست أقدر على الأكل أو الشرب ويؤلمني المشي. وأعاني الهذيان الارتعاشي طوال اليوم لانقطاعي عن الشراب.

ماجى: سأبحث عن شيء لتسكين الألم كي يساعدك على النوم حتى الصباح على الأقل.

چارڊ: أجل، ستذهب فتاتي بحثًا عن بعض من البركوست أو من الزاناكس. كانت بروك تحاول أن تذهب إلى صديقتها لكنها لم تَقْلها. لا بأس، سأعود مجددًا في الغد.

ماجى: سعيدة لأنك محاط بأناس طيبين، آمل أن يبقوا بجانبك دائمًا. تَوَخَّ الحذر وتعافَ من أجلي، لست تقدر على الرحيل، لا أريد التوغل في الظلمة من جديد.

لا يعرف أحد متى تأتي الفرصة الأخيرة. لكننا نعرف الآن أن چارد أضاع فرصًا كثيرة للخروج من الظلماء، أكثر مما يدركه ذلك اليافع المريض. فنعلم الآن أنه أُدخل مشفى إيسكوبال للمرة الثانية في الحادي

عشر من يناير للعام ٢٠١٤. ونعلم أنه كان قد استلقى على سريريه في المشفى في الثالث عشر من يناير حين هاتفته أمه. تذكرت ما أخبرها إياه. قالت: «عليك الإقلاع عن الخمر يا چارد وإلا ستودي بحياتك». فأخبرها: «لا أريد الموت يا أمي».

قابلته في صباح ذلك الاثنين عاملة الخدمة الاجتماعية وتُدعى «دبورا لام» حاملة لفرصة جديدة، إذ كان مشفى إيسكوپال هاتفها لاستشارتها حيال مدمني المخدرات من المرضى. كانت قد قابلت چارد قبل أسبوع للمرة الأولى، أخبرني بعد شهور: «كان في غاية الأدب على نحو خفي، فلم يكن وقحًا أو مقتضبًا في حديثه، إلا أنه لم يكن صريحًا كذلك».

تذكرته لأنه كان يافعًا للغاية، فكانت عادةً ما تتعامل مع أبناء الخمسين والستين، ولأن زواره من الأصدقاء كانوا غربيي الأطوار من المهوروسين بالفن وتعلوهم الوشوم. قالت إنه لم يكن يود التحدث عن مقاطعة الخمر والتأهيل.

علمت إدارة المشفى بزيارة لام السابقة، فعندما عاودهم ذلك الشاب اليافع المخمور دائمًا طلبوا منها زيارته لمرة ثانية. فحاولت معه، إذ جلست بقربه، مرة ثانية. تعتقد أن المريض ربما يوافق، ليس الآن، بل بعد سنين من سماعه تلك المحاولة للمرة المائة، ويجب أن نعم. فتقول: «يمكن لوقع الكلمة أن يكون حاسمًا».

جاءت لام، بسبب سماعها دائمًا عن أن مدمني الكحول ليس لديهم تأمين صحي أو مال للإنفاق على إعادة التأهيل، بعرضٍ

استثنائي: «أخبرته أن بإمكانني أن أبدأ معه الإقلاع عن الخمر وإعادة التأهيل التي تستغرق تسعين يومًا في إحدى مصحات إدمان المخدرات مجانًا».

أمكنها فعل ذلك عبر برنامج وفّرتَه مقاطعة فيلاديلفيا وتُدعى «مبادرة الصحة السلوكية الخاصة». كان بإمكانه الإفاقة من السُّكر والتعافي، كان بإمكانه عيش الحياة باختياره لا اختيار الثودكا الرخيصة. لم يقدم أيُّ من مقدمي الخدمة الصحية عرضًا كهذا إلى جارد. إلا أن جارد أجاب، عوضًا عن ذلك، بما قاله دومًا.

فتقول لام: «بدا قوله كما قابلته في المرة الأولى، فهوّن من شأن شرابه وقال إنه سيقبل منه لتألمه: سيقبل من الثودكا ويزيد من الجعة. يظنون أن تلك هي الإجابة، إلا أنه لا يزال كحولًا ولا يزال عقارًا مميّتا. ومن ثمّ يعبون المزيد من الجعة؛ أي المزيد من الكحول للانتشاء كما نشوة الثودكا».

والآن، كما قال لا لحِف وِلِيزا قبل ثمانية عشر شهرًا مضت حينما حصلّا على موافقة بالحقاقه بمصحة الإدمان في بوكسود في فيرجينيا، قال جارد لدبورا لام في فيلاديلفيا إنه غير موافق.

سألت لام:

– كيف أمكنه رفض ذلك؟

فأجابت:

– نخطئ مع المدمنين حين نظن أن لديهم أي منطق.

للأمر منطقته، إلا أنه منطق اليأس. قال چاي ديشيدسن، مدير مصحة لويستفيل: «رفض چارد لسبيين، أولهما أن الخوض في انسحاب الكحول مؤلم بدنياً وعقلياً ونفسياً وروحياً. وثانيهما هو الخوف الصريح من العيش من دون الكحول وعدم القدرة على التكيف مع الحياة. نحمل، نحن المدمنين، مشاعر الذنب والعار والندم، مشاعر على شاكلة: كم أود لو أنني فعلت! وكم كان ينبغي عليّ أن أفعل أو ألا أفعل! فالأمر هو مجموع كل مشاعر الذنب والعار، فلا يمكننا التصرف حيالها. الأمر كربٌ نفسي، فنعاقر الخمر لسبب واحد: كي نبذل مما نشعر به».

في الساعة ١٢, ٣ عصرًا سجّل چارد خروجه من المشفى ضد تعاليم الطبيب. فهاتفني بعد ساعة، لم أكن أعلم آنذاك - إذ لم أعرف شيئاً عن دبورا لام - أنه كان قد أدخل مشفى إيسكوپال مرتين. سألته:

- كيف تشعر الآن؟

فأجاب:

- خرجت من المشفى لتوي، أشعر أنني بخير حال. أعطوني بعضاً من الأتيشن والمورفين كذلك. لست أتألم كثيراً الآن.

قال إنه احتاج إلى المال لشراء الأدوية، ظننت أنه سيخصص المال للوصفة الطبية إلا أنني حزرت أنه سيتنازع به الفودكا. لم أعرف شيئاً ولا أعبأ بشيء، فإن كان إرسال الأموال يجعلني متورطاً في هلاكه فلا بأس في ذلك. لم أفه بسؤال، فإن جعلني هذا جداً سيئاً وناقلاً للأخبار أسوأ، فلا بأس في ذلك. لم أهتم بشيء ذلك اليوم إلا بمساعدة حفيدي بالطريقة التي أرادها.

قلت:

- سأبعث لك بالمال عبر ويسترن يونيون الآن. لكن عليك أن تقلع
عن هذا يا چارد.

قال:

- أعلم.

- اعتنِ بنفسك، أحبك يا بُني.

- وأنا أحبك كذلك، بلغ جدتي السلام وقل لها إنني أحبها.

حوّلت، في الساعة ٤٥, ٤ عصرًا، عبر ويسترن يونيون، ١٠٠
دولار.

رفض چارد، للمرة الثانية منذ أسبوع، أفضل الفرص لتلمّس طريق
النجاة في ظلماته.

عاد إلى كنسِنجتِن.

كانت لين قد أخبرته بأنها ستلتقى خبر موته، أخبرته أنها تعرف
ذلك. فحذّرتَه، حتى اليوم السابق، من أن الشراب سيودي به. حاولتَ
أن تخيفه حتى يستقيم في عيشه بإصرارها على أن يجيب سؤالها:
«أنفضّل أن نحرق جثتك أم ندفنها؟». قالت الأمر برمته لكنها كانت لا
تزال أمه، فلم تظن أن خبره سيصل إليها. سيحدث أمر ما جيد. سيجد
الفتاة الصالحة وسينجبان الأحفاد وسنحتفل بصباح عيد الميلاد المجيد
وحفلات أعياد ميلادهم. سيتذكرون يومًا ما الفتية المتسكعين والأوقات

الرائعة التي قضوها على متن القطارات وكيف كانت مريعة، وكم كان رائعاً أن يخطو المرء من تلك الظلمة إلى النور.

ترك چارد مشفى إيسكوپال في يوم شتوي جميل غائم بدرجة حرارة ٥٢ فهرنهايت، تهب فيه الرياح من الجنوب الشرقي بسرعة ٩, ٢ ميل في الساعة. بلغ سُمك الجليد تسع بوصات في العام الجديد، إلا أن شيئاً منه لم يبقَ في نهار ذلك اليوم. كان الليل قد خيم، حينما عاد چارد إلى بيت بروك الصغير.

ثم داهمت المكالمات ميرتل بيتش، في تمام الساعة ١٢, ٢١ بعد منتصف الليل، في الخامس عشر من يناير ٢٠١٤. سأل طبيب الفحص بمقاطعة فيلاديلفيا إذا كان بإمكانه التحدث مع أقرب أقرباء چارد كندرد.

لم تتذكر أمه ما قاله بعد ذلك ليس إلا، لخواء تلك الكلمات؛ كلمات لم تود قَط سماعها، كلمات لا بد أنها لا توجه إليها، إلا أن الرجل أوصل الخبر الفظيع عن ابنها. قرأتُ، بعد شهور، تقرير الطبيب الشرعي واستشعرت كلماته أيّاً ما كانت، يعبر عنها اللفظ الطبي في خانة تُدعى «ظروف الوفاة»:

استجاب المسعفون لمهاتفة بشأن شخص وُجد في محل إقامته. استجابوا ليجدوا المتوفى يلفظ الأنفاس بألم شديد، ومن ثم نُقل إلى قسم الطوارئ على جهاز التنفس الصناعي. توقف قلبه فور وصوله. تم تمديد الخراطيم إليه وتلقى أربع جرعات من عقار

الآبينفرين ومن البيكربونات وأخرى من الكالسيوم. باءت كل محاولات إعادة إحيائه بالفشل وأُعلنت وفاته.

كان وقت وفاته في الساعة ١٤, ١ بعد منتصف الليل في الرابع عشر من يناير. استغرق الأمر يومًا كاملاً، إذ لم يتمكن المشفى من التوصل إلى ذويه على الفور، حتى هاتف طبيب الفحص لين. فحمل تقريره ما قالته لين:

حدثناه بالأمس، كان قد خرج لتوّه من المشفى. قال إنه على ما يُرام. ماذا جرى له بحق السماء؟

سمع چيکب بالمهاتفة فصرخ: «كلا، كلا. لا يمكن أن يكون ذلك چارد». أخبر أمه أنه لا بد ثمة خطأ: «سَليهم يا أمي، سَليهم إن كانوا متيقنين، سَليهم عن وشمه». فقالت لين عبر الهاتف:

- أ بمقدورك أن تخبرني إن كان على وجهه وشم؟

غاب الرجل هُنيهة، ووصف الوشم، إبان رجوعه. كان آخر تقريره:

لم تتمكن أم المتوفى من إكمال المهاتفة.

كانت شيرل تشاهد التلفاز عندما أجابت الهاتف في بيتنا في كارلوك في إلينوي. اقتربت من السرير، في الظلمة، ولم تَفْه إلا بست كلمات:

- چف على الهاتف يطلب أن يحدثك.

اشرأب رأسي.

- مات چارد.

كان ذلك في الساعة ١٢, ٣١ بعد منتصف الليل. أسقطت رأسي على المخدة. كان أسوأ مخاوفي أن أصغي إلى تلك الكلمات: «مات چارد». لم تستقم تلك الكلمات معًا. شعرت أن الوقت قد توقف ثم أكمل مساره بعد خفقة قلب. أفرغت تلك الكلمات، في لحظة حائرة، غرفة النوم من ظلماتها. لم أعد أشعر بالسرير من تحتي، فكنت معلقًا في الفراغ وعائمًا، لم أشعر بشيء. قمت من السرير واحتضنت شيرل. انتحبنا وأردنا أن نرجع الزمن كأن ما حدث لم يكن.

* * *

أتى الأوغاد الأخسَاء إلى الجنازة. أتوا مثلما كان چارد سيُحب رؤيتهم. أتوا على طبيعتهم، مثلما كانوا يعيشون: متسخي المظهر، يرتدون مرايل قدرة تنتشر عليها خيوط بالية ورُقَع غير متماثلة. حضرت الفتيات بشعورهن المُجدّلة المتشابكة، أما الفتيان فقد نَمَت في وجوههم لِحَى شعناء.

وفي تمام الساعة الواحدة وتسع دقائق ظهرًا، من يوم السبت الموافق ١٨ يناير عام ٢٠١٤، قال مدير الجنازة: «ثَمّة رعد». ثم مال برأسه ناحية الطريق السريع. دَوَّنَتُ الوقت والتاريخ والكلمات، وعادة الصحفيين هذه منحني سببًا لكي لا أنظر إلى التابوت. يموت الأجداد لأنهم كبار في السن، أما الأحفاد فيعيشون لأنهم سينجبون أبناءً ليربّوهم، وسيكون لهم أحفاد ليعشقوهم. لذلك، فإن مظهر الجد بجانب تابوت حفيده غريب، غريب للغاية.

هُدِّبَت لحية چارد المائلة إلى الحُمْرة بعناية، لتلائم وجهه الصغير والوسيم. ظهرَ بينطال كارهارت الجينز البُنّي، وتي شيرت أبيض، وحول رقبته التفتّ ربطة رأس الرَحّالة، «راية القطارات» التي سوّدها

وسخ آلاف الأميال. وضع طفل صغير مجسمًا من مكعبات ليجو فوق صدر چارد. داخل التابوت رقد جوبلن ميتًا، داخل التابوت رقد چارد الذي سيعيش في قلبي للأبد.

أتى چيکب وألقى نظرة واحدة من جانب التابوت ثم رحل. في الخارج، وقف چيکب مع چف لئُدخنا السجائر. ولم يتبادل الابن كلمة مع أبيه.

أما في الداخل، فجاءت فتاة تُدعى «براندي» لتقابل چيکب، كانا من قبل حبيين، لكنهما انفصلا، ولم يتقابلا منذ سنة. سألهما: لماذا جئتِ؟

فأجابت: جئتُ لصديقي چارد، ولأؤكد من أنك بخير يا حب عمري.

اتضح أن الرعد هو ضجيج دراجات هارلي ديفيدسون النارية. لقد طلبت جماعة «ملائكة الجحيم»^(٣٦) من أعضائها الذهاب إلى الجنائزة. وكانت لين وحبيها چو پيرون محبين لتلك الدراجات. لم يكونوا هؤلاء أفراد «ملائكة الجحيم» الذين خربوا حفل ألتامونت، بل كانوا رجالًا متوسطي الأعمار، أقصى خطر قد يُشكّلونه أن يبيعوا لك بوليصة تأمين.

أتت فتاة أخرى إلى الجنائزة، اسمها «سامانثا ستريت»، تبلغ من

(٣٦) عصابة شهيرة في الولايات المتحدة الأمريكية، يُعرف أعضاؤها بقيادتهم لدراجات هارلي ديفيدسون النارية، وبارتدائهم سترات سوداء عليها صور لجماجم أو أسلحة وغيرها من رموز العنف. يتصارعون بشكل أساسي مع العصابات الأخرى في تجارة المخدرات.

العمر ستة عشر عامًا. عرفت چارد على أنه ذلك الشاب اللطيف الذي تراه مرة كل عام في منزل أمه بميرتل بيتش، الذي يبعد عن منزلها بمسافة بنائيتين فقط. في الكنيسة، سألت سامانثا أمها عن هؤلاء الناس ذوي الملابس التنتة.

قالت الأم:

- إنهم من عالم چارد. يقفزون على القطارات ويتنقلون بين الولايات.

فقالت الفتاة:

- وماذا عن بيوتهم وأسرهم؟ وأين بقية أمتعتهم؟

- ليست لديهم بيوت يا عزيزتي، وهم بمثابة أسرة واحدة، وكل ما يمتلكونه هو ما يستطيعون وضعه داخل حقائبهم فقط.

حاول الأوغاد قدر الإمكان أن يُعدّلوا من مظهرهم. جلسوا بهدوء واحترام في الصف الذي أمام سامانثا، فرأت دموعًا تنهمر من الأعين، وجدائل مشبكة تستريح فوق لحى شعناء. ألهمها ما شاهدته أن تكتب عنهم لاحقًا في حصة اللغة الإنجليزية بمدرستها الثانوية:

عندما رأيتهم للمرة الأولى، كانوا مجتمعين، يحتضنون بعضهم بعضًا، ويُقدّمون الدعم للجميع بكلماتهم الرقيقة. لم يكثرثوا نظرات الدهشة التي صوّبها البعض نحوهم، بل اهتموا فقط بأن يبقوا معًا. راودني إحساس مهيب حينذاك. وكاد قلبي ينفطر لرؤية هؤلاء الناس المحبين متأثرين بعمق لفراق صديق عزيز لهم.

بحثُ بين الجميع عن فتاة لم أرَها من قبل.

أردتُ مقابلةَ ماجي.

أبصرتُ فتاةً لم تقدر على دخول الكنيسة.

كانت نحيفة وجميلة، تتناثر وشوم خافتة على خديها. أتت إلى مدخل الكنيسة الكبير، ومالت بجسدها للأمام لتنظر صوب الزاوية ببطء، كأنها تهاب رؤية ما تعلم أنها ستراه لا محالة: التابوت الذي ابتعد عنها بمسافة ثلاثين قدمًا. توقفت، ودفنت وجهها بين كفيها، ثم استدارت واتجهت صوب غرفة أخرى.

جلست على أريكة، فجلستُ بجانبها.

قلتُ لها: هل أنتِ ماجي؟ إنني جد چارد.

أسندت رأسها على كتفي.

- أشكركِ على لطفكِ تجاه چارد.

فهمست: لقد عشتُ معه أفضل أيام حياتي.

سمعتُ صوت آرلو جوثري منبعثًا من الكنيسة، يغني عن قطار اسمه «مدينة نيو أورلينز» يمر بخطوط إلينوي الرئيسية.

طلبُ أصدقاء چارد تشغيل تلك الأغنية مع عرض لقطات من حياته، قطار أحلام طفلٍ رحَّالٍ يُغني: ليلة سعيدة يا أمريكا^(٣٧).

عُرِضَت الصور والموسيقى في الخلفية. رأينا چارد مع ماجي

(٣٧) هذه الجملة وردت في نهاية أغنية «مدينة نيو أورلينز» لآرلو جوثري: ليلة سعيدة يا أمريكا، كيف حالكِ؟

مرتبن، وثلاث، وأربع، وخمس، وثمانى! بدا كلاهما ذهبياً تحت ضوء الشمس. شاهدناه نائماً يسند جبهته على كتفها، وبين الأنقاض بمحاذاة قضبان السكك الحديدية، كانا يضحكان، ويحاولان الإمساك بالكاميرا، ويحملان في أيديهما صناديق جعة ذات اثنتي عشرة علبة. كما رأينا صورة لـجف، عندما كان أباً لأول مرة في السادسة والعشرين من عمره، يحمل ولديه على ذراعيه، ووجهه يشع من فرط الغبطة.

– إنهما فتيا الريف، چيك وچيد.

ورأينا مجدداً جوبلن وبوز كوپ، سعيدين، يلصق كل منهما كتفه في كتف الآخر، يُغطينهما الوسخ والوشوم، ينظران إلينا نظرة تحدّ كأنهما يحثاننا على أن نراهما عدوين لا أخوين.

أتينا من إلينوي، أما الأوغاد فقد قدموا من مين وفلوريدا ولويسيانا وكارولينا الشمالية وكاليفورنيا وإنديانا. كل صورة كانت أجمل من تلك التي سبقتها، وكم عشقتُ تلك اللحظات التي ضحك فيها چارد أمام الكاميرا! أعلم أنها لحظات مضيئة في حياة مظلمة، إلّا أنني سألتُ آجرو:

– هل كان كذلك دائماً؟

فردّت:

– لا أعلم إن كنتُ قد فهمتُ جوبلن من قبل، لكن ذلك الفتى كان بإمكانه تحويل الخراء إلى ذهب. أتعلّم ما المثالية؟ جوبلن؛ شعاع الشمس الذي أنار حياة الجميع.

- أنار الحياة؟

- أنار حياة الجميع.

- أظنك قلت «أنار الحياة».

- أجل، لقد أنار جوبلن الحياة.

أتى واعظ الجنازة مهنّدم الملابس، ارتدى بنطالاً جينز أزرق وسترة من الجلد تشبه تلك التي يرتديها سائقو الدراجات النارية. تحدث بشغفٍ عن يسوع المسيح والخلاص والجنة. لم يكن يعرف چارد، ولم يقل شيئاً يخص أحداً من الحضور. وعندما انتهى، سأل إذا كان أحد يود الحديث.

أجل، أنا أود التحدث.

تذكرتُ اليوم الذي وقفنا فيه بجانب جدول ماء في المرعى، حين رفضتُ أن أوجد في الصورة التي التُقِّطت لأبي الذي كان يحتضر وهو محاط بأهله وأصدقائه. في فترة احتضاره، لم أستطع إخباره بأنني أحبه، وضيّعتُ فرصة الوقوف بجانبه في الصورة، وعِشتُ حياتي نادماً على ذلك القرار. لكنني سأحدث هذه المرة، سأكون بجانب چارد للمرة الأخيرة. وقفتُ وجُلتُ ببصري حول الغرفة، فرأيتُ لين وماجي وبوز كوپ وجِف وچيکب.

قلتُ: «لا أقصد مضايقة زوجتي شيرل، التي تجلس بجانبني الآن، بما سأقوله. لكنني، حينما تزوجتها، كنتُ أبلغ الحادية والعشرين من عمري، ولم أدر شيئاً عن العالم. ولمّا أنجبنا ابناً جِف كنتُ أبلغ

الثانية والعشرين من عمري، وأيضًا لم أدر شيئًا عن العالم. لكن حينما وُلِدَ چارد وچيگب، وكُنْتُ في السابعة والأربعين من عمري حينذاك، علمتُ في النهاية شيئًا عن العالم. علمتُ أن الحياة معجزة، وأن هذين الولدين أثبتا لي أن المعجزات تتحقق».

يقول واعظو الكنيسة المعمدانية إنهم يبدأون الحديث والرب يكمل، قد يكونون على حق، لأنني لم أكن أدري أنني سأقول الآتي: «مجددًا، لا أقصد مضايقة زوجتي وابني، لكنني لم أحب أحدًا في حياتي مثلما أحببتُ هذين الصبيين. أحببتُ چارد، وأحب چيگب، حبًّا يفوق حدود الفهم، كما قيل في الكتاب المقدس».

في أثناء رحلتنا من ميرتل بيتش إلى الجنازة، أخبرني شيرل أنها سيصعب عليها تحمُّل الساعات القادمة، وأنها لن تستطيع رؤية چارد من دون أن يُداهما انهيار عصبي. وفور وصولنا، لم تُطل النظر في وجهه. لامستُ لحيته بحنان، بأصابع ترتعش، قبل أن تترك جانبه. فقبَلْتُ جبهته -بحنانٍ أيضًا- ثم تبعتها.

عندما وقفت لين بجانب ولدها وبكت، ذهب إليها چيگب وقال: «أرجوكِ يا أمي، لا تبكي. لقد عاش چارد ليُسعد الناس».

ثم وقف چيگب بمفرده يكلم أخاه. لم نستطع سماع شيء سوى كلمته الأخيرة: «أحبك».



تبع الجميع دراجات الهارلي إلى موكب الرثاء في صالون دونيز، وهو حانة لسائقي الدراجات النارية على أطراف ميرتل بيتش. تجمهر مائة حول البار واصطفوا أمام طاولة الطعام الموضوعة تحت شاشة تلفاز تعرض الأخبار الرياضية لذلك اليوم. شربت لين نخب ابنها سائلة من الجميع أن يتشاركوا بعضًا من أفعال چارد، قالت للجمع: «فلنشرب نخب چارد».

كان شراب چارد من البروكلي لا الكحول. فتكوّن، كما ابتدعه في أثناء تناول العشاء عند أمه، من حزمة من القرنبيط وساق من البروكلي مدهونة بصوص الرانش ومقدمة في كوب بلاستيكي صغير.

جعلت تلك اللفتة چف يقترب من لين. كانا يتشاركان في حق الحضانة، رغم طلاقهما منذ عشرين عامًا مضى، وكانا كلاهما منخرطين في حياة ابنيهما. لم تكن بينهما إلا المهادنة الممتعة حتى شرع چف في أكل نخب چارد فأخبر لين:

- إنني آسف لكوني مسيئًا لك كل تلك السنوات. دعينا نصبح

صديقين.

كانا، كونهما تزوجا في سن صغيرة، من عشاق الدراجات النارية
والآن تعانقا في حانة لسائقي الدراجات النارية.

رأيت آجرو أول مرة منذ تلك المرة في أكتوبر في بيت چف.
اعتبرت كل ما قالته عن چارد وحياته في الطرقات أفضل ما توافر من
معلومات عنه. انتحينا جانبًا بعيدًا عن الضوضاء. وقلت لها:

- سأدافع عنمن يصعب الدفاع عنه يا آجرو، أخبريني لم عاش چارد
تلك العيشة؟ تعلمي، تمامًا مثلما أعلم، أن الناس لا يروكم سوى شباب
مُلَقَّين في الحضيض. تأتون جميعًا من بيوت مدمرة فتهربون من الألم
وكل من سبب ذلك الألم: الآباء ووعاظ الكنيسة والشرطة. ما بالك إن
قلت إن الألم يلقي بظلاله فوق الأيام كلها، وإنكم تسعون إلى تطبيقه
بالكحول والمخدرات الأخرى؟ ما بالك إن قلت إنكم أرواح ضائعة
هباء؟

كانت آجرو سمعت مثل ذلك الحديث من قبل. قالت:
- بإمكانني الحديث مطولاً، سأكتب إليك قريباً حالما تنتهي من
هذا.

وجاء جوابها، بعد أسبوعين. كتبت:

«لسنا ضائعين ولا نعاني من شيء. نستقل قطارات البضائع
للسبب ذاته الذي يلعب له لاعبو البيسبول! حباً في اللعبة! للمتعة
الخالصة بالحرية وحب الحياة. ألم تفعل قط ما هو جنوني بعض
الشيء ومخيف وممتع للغاية في الوقت ذاته؟! ومن ثم تفكر:

لكم أود أن أفعل هذا حتى نهاية حياتي! كنا شجعاناً ومتهورين غير هيّابين كفاية لأن نفعل ذلك! لم يكن لدينا خط رجعة، كنا مقدامين كفاية لهجر كل ما يتمسك به الأمريكيون، نشق الطريق حتى المجهول. هذا هو حقيقة ركوب قطارات البضائع. فإن لم يُرَق لنا أن نفعله، فلم نكن لنفعله.

كان حفيدك أفضل من ذلك الفتى في فيلم «إلى البرية». لم يكن جوبلن فيلسوفاً مدعيّاً لا يعلم شيئاً عن الحياة. لم يكتب اليوميات أو يداهن بالشعر، كان ما بقلبه على طرف لسانه. لم يكن معقداً، كان كمثّل كل المشردين! وجد ما أحبه ومن ثم تماشى معه. نركب أعظم الأخطار! نحن نجوم الشوارع، إذ نفتش في القمامة وننهب ونقود حتى المغيب. إنّنا قراصنة البرية! إنّنا لهيب مَضَاء، بعضنا يُنقَذ فلا يحترق حتى الثمالة.

كف عن سؤال: لم؟ عن جوبلن. لست أقدر على جوابك، ولا يقدر هو أو أي مشرد آخر. نحن، كما رحّالة الماضي ورعاة البقر، تكمن الشياطين والهياكل العظمية في خبايانا، لكنّا لا ندعهم يمثلوننا. كان جوبلن فتى رائعاً ومشرداً أروع. فيخوض الصعاب في ركوبه برفقتنا، لم يكن يهرب من شيء! بل ارتمى في خضم الحياة ممسكاً بنواصيها فكأنما هي كلبه المطيع».

احتضنتني أجرو، بعد أن وعدتني بإرسال الرسالة، وقالت:

- والآن سأنتقصي ما حدث لأخي الصغير بحق السماء.

اتجهت نحو امرأة لا أعرفها، فلم يصل إليّ ما قالتاه، إلا أن لغة جسديهما كانت واضحة. كان سمت آجرو بادياً في وجه المرأة. تميل آجرو، في كل مرة تميل فيها المرأة، نحوها منتفشةً مترهلة الأكتاف. اتجهت المرأة، بعد دقيقتين أو ثلاث، إلى باحة اصطاف السيارات فتبعتهما آجرو. فسألت آجرو عندما رجعت:

- ما حدث؟

- لا تنفك تغير قصتها.

- من هي؟

- بروك التي من فيلاديلفيا.

- ماذا كانت تقول؟

- إنها لم تكن تعرف ما حدث تلك الليلة.

- يبدو أنك لم تقتنعي بكلامها.

- بالطبع لا، لكنني علمت في باحة السيارات القصة.

- وما هي؟

- لست تحب أن تعرف.

- إني ناضج كفاية، أستطيع أن أحتمل وطأها.

- أخبرتني آجرو الكفاية وعرفت أكثر من ذلك.

استلم چارد المال، بعد ربع ساعة من إرسالي إياه عبر ويسترن يونيون. وكانت ظلمة كنسنجتن الجرداء مخيمَةً حينما عاد إلى بيت

بروك باهت اللون ذي النواخذ الحديدية. شرع خمستهم وچارڊ، فيما لا يفعلون سواء في وقت الفراغ، في تناول الشراب. ولثلاثة أيام حقن الأطباء چارد بالمورفين والأفيان والديلودود. وفي أثناء مكوئه عند بروك أضاف إلى ذلك تسمم الخمر.

كانت بروك في المنزل برفقة بعض الناس بمن فيهم إحدى صديقات چارد المقربات: بيكسي. كانوا جميعًا مفلسين سوى چارد الذي كان يحمل ١٠٠ دولار. اقترح عليه أحدهم، لمعاناته من التهاب البنكرياس، تعاطي الهيروين، لم تكن بيكسي قد رأت چارد يتعاطى أي مخدر سوى عب الكحول، إلا أن المتسكعين أرادوا تلك الليلة -بل احتاجوا- المزيد من الشراب. أخبرت بيكسي فيما بعد الأصدقاء: «غبنا برمتنا عن الوعي، إذ ابتعنا أكياسًا فاسدة».

فلم تر بيكسي، إلا بعيد منتصف الليل، بروك وچارڊ فاقدَي الوعي في غرفة المعيشة. فقالت بيكسي فيما بعد: «اتصل أحدهم بالإسعاف، إلا أن الأوان قد فات لجوبلن، فلم نستطع أن نعيده إلى وعيه».

و حين تحدثت مع بروك نفت عرضها الهيروين: «يود الجميع إلقاء اللوم على أحد ما، وأنا من يلومونها، لكن ذلك غير صحيح، لم أتناول الهيروين مذ كنت في التاسعة عشرة، وأنا في الثالثة والثلاثين الآن، فهل أردت ذلك؟ هذا ضرب من الجنون. كنت قد أخبرت الجميع أن لا مخدرات يُسمح بها في بيتي، لست أقدر على لوم أحد. كان چارد شابًا طيبًا لكنه كان كذلك راشدًا قادرًا على صنع قراراته. فإن أراد تناول المخدرات فلم يكن ليمنعه أحد. كان يتكلم عن الأمر لفترة طويلة

لمعاناته الآلام، لم يقدر على احتمال الألم أكثر».

أرسلت بروك، بعد اثني عشر يومًا من وفاة چارد مستاءةً من المواجهة مع آجرو في موكب الرثاء في ميرتل بيتش، رسالة نصية إلى لين جاء في بعضها:

«أشعر بالآسف حيال خوضك تلك الآلام الجسام. لكني أود استراحة، جئت من طريقي الطويل لإبلاغ عزائي في خليلي الذي كنت متيمة به. إلا أن ١٢ شخصًا لست أعرفهم حتى صرخوا في وجهي، يلومونني ويقولون إنني كاذبة. أجل، كانت ذكرى تلك الليلة ضبابية للجميع، لكنني اعتنيت بچارد، بذلت قصارى جهدي لحمايته، جلبته لبيتي وأطعمته وفعلت ما يمكنني فعله لضمان سلامته. لكم أحبته! لم أكن لأتكبد فعل ذلك لأيّ كان. كنت برفقته في المشفى كل يوم برفقة الأصدقاء محاولةً إقناعه بالانضمام إلى مصحة التأهيل والانتقطاع عن الشراب. فوّت الكثير من حياتي لاهتمامي به كثيرًا. فإن كان هؤلاء الناس غير قادرين على استشعار ذلك، فإنهم ليسوا سوى حثالة. آسفة لذلك، لكنهم لم يكونوا هناك بجانبه.

لم تكن ماجي أو آجرو في فيلاديلفيا تلك الليلة. تعتقدان أن چارد كان عالقًا بصحبة أناس لم يعرفوا كيف يساعدونه. فتقول ماجي: «لا بد أن أحدًا أقنع چارد بتناول المخدرات، كان چارد ليختار القودكا حتى لو صفّ أحدهم أمامه كل صنوف المخدرات من الكوكايين والحشيش

والميث والهيروين والكراك وموللي. لم يكن ليموت إن كنت أنا هناك،
كنت سأخبره: «هاك سبع حبات من الإيبوبروفين تناولهم».

أُرجعت وفاة چارد إلى إدمان الكحول المزمن، لكن تقرير السمية
ذكر أنه تسمم بالمخدرات. علمت لين أن جسد چارد كان قد وصل
إلى أقصى درجات مقاومة التهاب البنكرياس التي لم يستطع تعديها.
فسألت طبيب علم الأمراض في فيلاديلفيا السؤال المهم الوحيد،
أخبرته أن ابنها عانى الآلام لسنين، فهل كانت لحظاته الأخيرة يتخللها
الألم؟

أجابها الطبيب، واسمه أرون روزن، أن لا. فبغيا ب چارد عن الوعي
تلك الليلة لم يُعانِ الألم. بل نَعِمَ بالراحة. قالت لين مستوثقةً إذ وجدت
في الحقيقة ملاذها الآمن:

- إذن ابني غطَّ في النوم ولن يعاني الآلام من جديد.



ذهبتُ إلى ماونت أيري بعد شهر من جنازة چارد. جلستُ مع ماجي في غرفة المعيشة الصغيرة بمنزل أمها، على بُعد ثلاث أو أربع خطوات من السلم المؤدي إلى السندرة التي تقاسمتها مع چارد. تحدثنا لثلاث ساعات متواصلة. كانت مشرقة الوجه، ورزينة، ومنتبهة. تحدثنا عن الكلاب والقطط وأشياء كثيرة. ثم غادرنا المنزل لنجوب شوارع ماونت أيري. مررنا بمتجر ريد بارن وسينما إيرل، وتناولنا الهمبرجر في مطعم بارنيز، وطلبنا من سائح أن يلتقط لنا صورة بجانب تمثال آندي وأوبي. كم تمنيتُ حينذاك أن يعيش چارد ليقضي حياته مع ماجي! لأن تلك الصغيرة الجميلة عرفته في أفضل حالاته وأسوأها، وأرادت أن تبقى بجانبه دائماً.

بالطبع قد أحببتُ ماجي، وكيف لي ألا أحبها وقد أحبها چارد؟ لكنني فقدتُ التواصل معها بعد عام ٢٠١٤، عندما انشغلتُ في تأليف هذا الكتاب. وفي ديسمبر من العام ٢٠١٥، عانتُ زوجتي من جلطة حادة فتوقفتُ عن الكتابة لمدة سنتين تقريباً. وفور عودتي للعمل، كان أول ما قمتُ به هو البحث عن ماجي. وفي شتاء عام ٢٠١٦، كتبتُ منشوراً على فيسبوك عن ديكسي النائم على السرير:

«عاد الكلب ديكسي إلى تكساس، وأحبَّ أجواء المنزل التي أعددتها لنا. العمل الشاق يؤتي ثماره».

كانت حينذاك في أوستن. مرّت بالمدينة من قبل خلال سنوات ركوبها للقطارات، فأحبّتها. والآن تعمل في مطعم تكس-مكس. تغسل الصحنون مقابل اثني عشر دولارًا في الساعة. كذلك صارت لديها شقة وسيارة. أحست أنها أقرب إلى العالم الواقعي الذي ظنّت أنها ستعيش فيه مع چارد.

وبحلول خريف عام ٢٠١٧، حين تقابلنا من جديد، كانت ماجي قد أنمتّ عامًا في أوستن. قالت لي حينها: «إنها أطول فترة لزمّت فيها مكانًا منذ تسع سنوات».

كانت ماجي وقتئذ تبلغ السابعة والعشرين من عمرها. ذهبنا إلى حديقة والنّت كريك. بدّت قوية وبصحة جيدة، رغم أنها فقدت بعض الوزن منذ آخر مرة رأيتهما فيها. لقد عاشت لمدة أطول من عشرات الرفاق الذين صادقتهم على الطريق، فأدركت الآن أن عليها أن تعيش لمدة أطول من ماجي التي كانتها. ماجي التي نشأت في نيويورك على حب الاحتفال، وشرب جالونات الفودكا طوال اليوم كنوع من أنواع المرح.

أخبرتني أنها أقلعت عن الشراب للمرة الأولى منذ مغادرتها لماونت أيري عندما كانت لم تزل مراهقةً خارجة من مركز احتجاز. لم تعد تشرب الكحول، أو أي مخدر آخر، منذ انتهائها من برنامج إعادة التأهيل في أحد المراكز. كما قالت إن حتى التفكير في الشراب صار

يؤلم معدتها: «ليس بوسعي إخبارك عن آخر مرة شربتُ فيها الخمر. ما يهم الآن أنني تخلصتُ من لا مبالاتي».

بانت الآن تهتم بما لم تهتم به من قبل. صارت تتواصل مع أمها على سبيل المثال. صحيح أنهما تحدثتا عندما كان چارد لم يزل على قيد الحياة، مثل ذلك اليوم الذي قادت فيه ماجي السيارة من هيوستن إلى كارولينا الشمالية، حين صارَ چارد الموت على المقعد الخلفي، لكنها الآن -وهي تعيش بمفردها في أوستن- اكتشفت ماجي أنها لم تكن وحيدة، فقد اشترت أمها السيارة لها، وساعدتها في دفع إيجار شقتها. بعد أكثر من عشر سنوات من عدم اكترائها لطلوع شمس اليوم القادم، اتخذت ماجي من كل يومٍ جديدٍ تحديًا لها. قالت لي: «إنني الآن أكتب. قد لا تُصدِّق ذلك، لكنني أكتب بالفعل. وأود أن أكسب المال من كتاباتي».

أدركتُ مما قرأته لها أنها تمتلك حسًا مميزًا تجاه اللغة وإيقاع الحكاية. لكن البُعد شاسع بين الطموح والواقع. تُرى هل ستكون كاتبةً يومًا ما؟ علمتُ أن الإجابة عن هذا السؤال تقبع في الإجابة عن سؤالٍ آخر هو: هل ستستطيع هزيمة الإدمان؟

وفي الثامن من ديسمبر عام ٢٠١٧، وهو اليوم الذي كان سيُتم فيه چارد عامه التاسع والعشرين لو لم يزل على قيد الحياة، كتبت ماجي هذا المنشور على فيسبوك:

«أنت حلواي، ويقطيسيتي نتي نتي، وأنتَ فطيرتي الحلوة» (٣٨) ...
وأريدك أن تعلم أنني سأحبك دائماً وأبداً، وسأبقى بجانبك.
لهذا أغني لك تلك الأغنية. لأنك عزيز عليّ جداً!!!!!! لقد غنيتهَا
لي ليلالٍ كثيرة، أكثر مما بوسعي تذكره. وفي الليالي التي أشعر
فيها أنني لن أنجو، أو حتى حينما يصيبني الأرق، أتذكر تلك
الذكريات، وأغني تلك الأغنية أيضاً في الليالي العادية، وأستعيد
آلاف الذكريات الأخرى. يبدو أنني تأخرت. عيد ميلاد سعيبيد
يا ملكي جوبلن. أشتاق إليك كثيراً!!!!!! جداً!!!!!!، وأحبك
كثيراً!!!!!! جداً!!!!!! بووووب بووووب. «محطة قطار سخيفة.
هل يمكنك تخيل التخيل؟». لا يمر يوم من دون أن أذكر ذلك.
منذ سنة، كنتُ على متن قطار ضخم مرّ بفيرجينيا في يوم عيد
ميلادك، وكنتُ أنتَ في جيبي. كنتُ رماًداً أعطتني إياه ماما تايجر.
وكنتُ أحمل في يدي زجاجة فودكا. ولأول مرة منذ مدة طويلة
شعرتُ بالسعادة. أشتاق إليك كثيراً يا حبيبي. ما زال وعدي قائماً.
ما زال العالم محطة قطار سخيفة. وما زلتُ أشتاق إليك. أعلم
أنك تراقبنا من الأعلى، وتحميننا من الشرور. أحبك، وعيد ميلاد
سعيد يا سلحفاة البحر!!».

ثم ودّعته بكلمتين لا يمكن نسيانهما:

«أراك قريباً».



(٣٨) مقطع من أغنية You're My Honeybunch للمغني «بادي كاسل».

قابلت أجرو، في أحد صباحات ربيع العام ٢٠١٤، قرب النافورة الوسطى لمتنزه جرانث بارك. فدار حديثنا حول اعتقال ثلاثة من المتسللين على متن القطارات المتهمين في جريمة قتل في كاليفورنيا. إذ كانت تلك التقارير قد شاعت بين جموع الفتية المتسكعين وصولاً إلى جارد وماجي في ماونت أيري.

كان الضحية طالباً في الكلية في التاسعة عشرة. أخبر جون ألبرت عائلته بأنه ذاهب إلى باحة القطارات روزفيل لخوض مغامرة عظيمة تتمثل في استقلال القطارات خلصة. لم تسمع عائلته عنه شيئاً منذ الثالث عشر من مارس للعام ٢٠١٣. اكتُشفت جثته، بعد شهرين، قرب جدول في محيط مكان التسلل للقطارات في روزفيل، وجاء أن سبب الوفاة ضربة بأداة حادة.

أخبرتني أجرو أنها تعرف الثلاثة المقبوض عليهم، وأن محققاً هاتفها، إذ كان قد توصل، ضمن تحقيقه، إلى رقم هاتفها، فكان ذلك، كما قالت، جُل ما أراده لا شيء آخر، فقط مهاتفة اعتيادية. لم يكن لديّ سبب للاعتقاد في غير ذلك.

كانت آجرو تزور شيكاجو ليوم واحد، إذ كانت تبحث عن باحة انتظار القطارات لتأخذها إلى منيابولوس. فقدنا من حيث جرانت پارك حتى بلو آيلاند وحول بنسثيل، إذ أوصلتها، فور تخليها عن فكرة التسلل للقطارات أخيراً، إلى محطة الحافلات في قلب المدينة. قلت لها:

- اعطني بنفسك.

فقلت:

- إني فرحة لأنك لم تُقرئني السلام، فإن توديع أحدهم يعنى ألا تراه من جديد، ذلك ما يحدث ههنا على الدوام.

ثم تذكرت تعابير وجه چارد حين كان يقابل صديقاً: «كان حاراً للقيا الجميع ممن عرفهم سواء كانوا من خلصائه أو من معارفه، كان دوماً فرحاً لمرأى الجميع أحياء يُرزقون».

كان دوماً فرحاً لمرأى الجميع أحياء يُرزقون. قالتها بجدية كأنما كانت تقول إنه كان فرحاً لمرآهم يتتعلون الأحذية. كان الموت إحدى حقائق الحياة هنالك، فيقدر مايكل ستيفن أن چارد هاتفه، في خمس سنوات، ليبلغ عن موت ثلاثين من الفتية المتسكعين. أخبرتني آجرو، في طريقنا مشياً إلى محطة الحافلات أن قلقها الوحيد من الموت يتمثل في وجود من سيعتني بكلبها توبياس. فتقول: «سيلتف فقط على نفسه قرب جثتي».

رفعت حقيبة ظهر ضخمة على كتفيها الغليظتين وشقت طريقها عبر الأمطار الليلية حتى محطة يونيون، إذ كانت ستستقل حافلة متجهةً

إلى منيابولوس، وبرفقتها توياس.

قرأت خبراً، بعد أقل من ثلاثة شهور، في الأول من يوليو، من روزفيل في كاليفورنيا.

اعتقال المشتبه به الرابع في مقتل متسكع القطارات

اعتُقل المشتبه به الرابع في مقتل جون پول ألبرت ذي التاسعة عشرة ضرباً، ذلك الأحد في واشنطن بُعيد أيام من إصدار شرطة روزفيل مذكرة اعتقال للمشتبه به. فطبقاً للمتحدثة باسم شرطة روزفيل ديدي جنشر أُلقي القبض على شارتي آن ويليامز ذات الثامنة عشرة...

وكان قد اعتُقل، في بداية هذا العام، كلٌّ من لورا كنر وإدوارد أناو وچولز كاريللو لانتهاهم بمقتل ألبرت. توفر لدى المحققين، باستكمالهم التحقيقات حول القضية، الأسباب الوجيهة لاعتقال ويليامز.

تحدثت مع مراسل صحفي من روزفيل يُدعى سكوت توماس أندرسون إبان تغطيته لخبر عمن عُرفت باسم آجرو.

أخبرته: «كانت ذكية، فصيحة وبعيدة النظر وواثقة غير هيّابة، يتملك منها الجزع والحزن».

أخبرني المراسل أن لا تفاصيل لديه حول انخراط آجرو المزعوم في جريمة القتل. واقترح، بحديثه مع الشرطة المحلية في الغالب، أن

حدث الاعتداء بالضرب لاختراق ألبرت قواعد السلوك لأنه حديث العهد بها، مما أغضب قدامى متسكعي القطارات، فأجهزوا عليه حتى غاب عن الوعي. يصبح ذلك، طبقاً لقانون كاليفورنيا، جريمة قتل من الدرجة الأولى عملاً بالنص: إزهاق الروح كيداً.

اعترفت آجرو بجرمها أخيراً في بداية عام ٢٠١٨، بعدما أصررت على المثل أمام المحكمة، وبعد اعتراف الثلاثة الآخرين المدعى عليهم بجرمهم. وحُكم عليها بالسجن ما بين خمسة عشر عاماً وثلاثين عاماً.



في الثاني عشر من مايو عام ٢٠١٤، سافرتُ مع شيرل للمرة الثانية إلى ميرتل بيتش، لنحضر حفل تخرج چيکب في معهد پيتسبرج للملاحة الجوية. ارتدى بدلة سوداء، وقميصاً رمادياً، وربطة عنق زرقاء، وبرم طرفي شاربه وثبتهما. وكم بدا وسيماً!

جلس مع عشرة خريجين آخرين على منصة أمام حشدٍ صغير من الأصدقاء والأهالي. تراوحت درجاته في مادة ميكانيكا الطيران ما بين ممتاز وجيد جداً، كما نجح في امتحانات صيانة الطائرات وميكانيكا مولدات الطاقة. وكان قد أدى في صباح ذلك اليوم الامتحانات الشفوية النهائية، ليكون ميكانيكياً معتمداً من إدارة الطيران الفيدرالية. كان فخوراً بإنجازه هذا، بالأخص بسبب مثابرته.

قال: «اضطرتُّ لتخطي أحد الفصول الدراسية، فحينها قالت لي أمي: «إن معظم مَنْ يُفَوِّتُونَ فصلاً دراسياً في الجامعة، لا يعودون إليها أبداً». فقلتُ لها: «تَبَّأ. هذا مستحيل. سأعود بلا شك، وسأنهي دراستي». وحينما بدأ الفصل الدراسي الأخير، بعد موت چارد بيومين، واجهتُ صعوبات كثيرة. لم تكن تحديات دراسية، بل كان صعباً عليّ أن أُسَكِّتَ الأصوات في رأسي».

لم يكن چيگب يومًا طالبًا جيدًا. حضر حفل تخرجه في المدرسة الثانوية على مضض، لأنه اكتفى بانتهاؤه من الدراسة. ثم ترك كلية محلية للتعليم المتوسط بعد قضائه فصلًا دراسيًا واحدًا فيها. وإلى أن أتمَّ دراسته لستين بمعهد پيتسبرج، لم يكن چيگب سوى محض تائه في الحياة، تمامًا مثل چارد.

قال: «حتى عندما كنتُ منتظرًا في الحفل، قلتُ في نفسي: «إنهم لن ينادوا اسمك»، رغم علمي بتخرجي. لكن القلق تملَّك مني، أو ربما لم أصدق لأنني لم أتخيَّل يومًا أن ذلك سيحدث أصلًا. لم أقتنع في البدء بأنني سأستطيع إتمام دراستي، إلى أن فعلت، ومضيتُ لأتسلَّم شهادة إدارة الطيران الفيدرالية».

تابع چارد تقدُّم چيگب في المدرسة في وقتٍ ما، وأخذ يسخر من منزله «الواسع للغاية»، الذي له فيه غرفة. حكى لي چيگب تلك القصة في يوم تخرجه، بعدما وضع الشهادة على طاولة صغيرة بجانب سريره. كنتُ قد ذهبتُ إلى غرفته بمنزل أمه كي أخبره بما لم يُسعفني ذكائي لقوله لأخيه.

قديمًا، لم تتجاوز معلوماتي عن الإدمان سوى بضعة خطوط عريضة. أما عن أسبابه، وما يفعله بدماع الإنسان، فلم أعلم شيئًا. وها أنا الآن أعرف ما لم أُرِد معرفته قط، لذلك، فإنني لم أستطع القدوم إلى حفل تخرج چيگب، التي سيبدأ بعدها حياةٌ لها توجُّه، من دون أن أحدثه عما تعلمته من فهمي للإدمان. لم أكن بحاجة إلى أن أخبره بأن أخاه كان مدمنًا، لأنه يعلم ذلك، لكنني أحسستُ بضرورة تلك المحادثة. لقد

أخفقتُ في قول الحقيقة المُرّة، الباردة، لـجارد، والتي كان من المحتمل أن تُحدِثَ فرقًا. وسأكون ملعونًا إن لم أقلّها لـچيکب.

- كان چارد مدمن كحول، أتعلم يا چيکب كيف تصير مدمنًا؟
جلس يستمع في صمت.

- تشرب الفودكا، فيُشعِرُكَ مخك بالسعادة. تستمر في الشرب، فتجد نفسك في حاجة إلى المزيد كي تشعر بنفس مقدار السعادة. أتمنى أن أشعِرُكَ بالعرب مما سأقوله، إذ إنك بعد فترة وجيزة ستشرب ما يكفي لإنهاء حياتك.

ضرب چيکب مثالًا غريبًا. قال:

- أجل، الأمر يشبه استخدام مرطب الشفاه بشكلٍ مفرط. يفرز الجسم اللعاب ليُرطب الفم بشكلٍ طبيعي. لكن في حال استخدامك لمرطب الشفاه على نحوٍ دائم، سيتوقف الجسم عن إفراز ذلك السائل. وهكذا...

- لكن استخدامك لمرطب الشفاه لن يقتلك.

كنا جالسين في غرفة نومه بمنزل أمه. ولكي أتأكد من أنني قلتُ كل ما وددتُ قوله، كتبتُ الملاحظات على ورق وتركتها مع چيکب:

١- الإدمان مرض يُصيب العائلات.

٢- أنتَ في خطر.

٣- لقد تملّك المرض من چارد.

٤- إنه يتحكم في وظائف عقلك حربيًا.

٥- بالنسبة إلى مدمن الكحول، أو المخدرات، فإن التفكير المنطقي أمر مستحيل.

٦- يتعامل المدمن مع ما يدمنه كأنه غذاء؛ إنه لا يريده فقط، بل يطالب به، ويشعر بأنه في أمس الحاجة إليه.

٧- عليك أن تعلم علامات الإدمان لكي تستطيع طلب المساعدة.

٨- اطلب المساعدة، وستجدها.

٩- لكن عليك أن تعلم شيئاً؛ يجب أن تطلبها فور إحساسك بظهور علامات الإدمان. لو كان چارد قد طلب المساعدة منذ البداية، لنالها.

١٠- يقول ديشيد شِف: «الإدمان ليس عيباً في الشخصية، وليس فشلاً أخلاقياً، بل إنه مرض يجب معالجته، لذلك، اطلب المساعدة».

- لم يكذب چارد عندما قاله لأمك إنه سيكف عن شرب الخمر، لكن زمام أموره لم يكن في يده، بل كان في يد القودكا، في يد الإدمان. لقد كان متحكماً في الخمر في البداية، إلى أن تحكم الخمر فيه.

ثم حدثته عن نوع الإدمان الذي أودى بحياة والدي؛ إدمان السجائر:

- دَحَنَ أبي السجائر في سن الثانية عشرة، وواظب على تدخينها طوال حياته، حتى خلال الحرب العالمية الثانية، وبعدها، إلى أن أصيب بسرطان الرئة ومات في سن الواحدة والخمسين. الواحدة والخمسون يا چيگب! إنني أكبر من ذلك بعشرين سنة الآن. لم أدخن السجائر في حياتي، ربما لأن مدرينا نهونا عنها. لكنني لم أفكر في التدخين بعد

موت والدي قُط، لأنني خُفْتُ من التدخين. لذلك، عليك يا چيگب أن
تخاف من شرب الخمر.

في ذلك اليوم، اصطحبنا بسيارته إلى المطار لنعود إلى بيتنا.
احتضنني، وقَبَّلَ وجنة شيرل، وقال:

- سعدتُ بوجودكما معي.

فقلتُ:

- كُنْ آمناً، واعتنِ بنفسك. ولا تنسَ أن تأتي إلى إلينوي لتقضي
الوقت معنا وقتما أردت.

وقبل أن يغادر، لَوَّحَ لنا وصاح:

- أحبكما.

ثم رحل قبل أن يسمعني أهمس: «أحبك يا فتى».

لم أهمس بتلك الكلمات لنفسي، ولا لشيرل، بل للولدين اللذين
حملتهما في كَفِّي عندما وُلِدا.



ذهبتُ ولين، بعد موت چارد بتسعة أشهر، إلى نيو أورلينز لقضاء الهالوين. كانت مدينته المفضلة، والعيد عيده الأثير. والفكرة أن نخطو حيث خطأ ونرى ما كان قد رأى. جلبت قنينة من رماد جسده كيما ننشره على الدرجات الخشبية لمرفأ السفن عند ميناء الميسيسيبي، كانت عتبات قديمة استولدت الأنذال. رسخ اعتقاد لين أن يحضر چارد معنا ونحن نقف هنالك على الدرج في نيو أورلينز في عيد القديسين.

توقفنا ثم جلسنا على الرصيف بجوار مطعم شركة بوبا جامب للقريدس في ٤٢٩ من شارع ديكاتور. جالسنا ليندزي وصديقاً آخر لچارد هو شاموس، حتى رأنا ضابط شرطة في الساعة ١٠,٣ ليلاً أربعتنا، فقال:

- عيب عليكما.

فكان يعني أنه لم يكن لليندزي وشاموس الجلوس على الرصيف، وهو ما يعرّض الفتية المتسكعين للغرامة في نولا، وأن عليهما الرحيل مصطحين كبار السن (يقصدنا نحن). سألنا شاموس:

- إلام نذهب الآن؟

أجابت لين:

- إلى الدرج.

فمشينا شمالاً، كان چارد ماثلاً في الطريق بطوله.

توقفنا قبالة الباب الأحمر لمطعم البيتزا وحانة بيج إيزي، وهو الباب الذي وصفته كريستين ماينارد في مقالها حول سارافينا سكارلت، المطربة تربة الأسماك، من انكبابها أرضاً على الجيتار. يفضي الباب إلى ممر يقود إلى البناية رقم ٩٠٧ أ، حيث شقة كريستين القديمة التي نام چارد على أريكتها المصنوعة من الجلد الإيطالي، حينما صعدوا إلى سطحها لمشاهدة المواكب الاحتفالية وشمس الأصيل. أردت الولوج لكن الباب كان موصداً وصندوق البريد يغص بالمظاريف الراجعة توارىخها إلى شهور مضت.

مررنا ببناية لها لون القشدة حيث مصنع الجعة الذي رقص چارد وبازلز على سطحه، وحيث نام چارد على الحصى بحذاء السكك الحديدية عند ظهر البناية. بُعيد ميدان چاكسون حيث زوّج چارد سارافينا لپاترتسيو، ولجنا مقهى دو موند، حيث انتشل چارد وستراي الحلوى البنية التي ألقى بها السياح. توقفنا قرب نافورة لمحادثة دايس مبتور الذراع والقدم بسبب إنقاذه لكلبه من تحت عجلات قطار. عرف چارد بكنيته: جوبلن. فيقول: «كان فتى رائعاً، قدّمني إلى خليلتي فلاف».

وكان بجانبه بوز كوپ الذي قال وهو جالس على الطرف:

- اعتدنا أنا وجوبلن على التقاط العملات المعدنية من النافورة لشراء الشراب فيما بعد.

التقينا بشاب جسيم يُدعى دراجون، قال إنه في الرابعة والثلاثين وقضى خدمته في الجيش مرتين في العراق وأفغانستان. قال مبتسماً تلك الليلة:

- أفقد الكثير من الأصدقاء، بضع عشرات في هذا العام إن لم يكن من الجرعات الزائدة فمن الشراب، وإن لم يكن الشراب فمن دهس القطارات أو على يد الشرطة.

سألني ولين عما نفعله في نيو أورلينز. أخبرته:

- لا نريد سوى أن نتمثل ما فعل چارد.

فسأل دراجون:

- أتدخنان الحشيش؟ كان جوبلن أستاذًا في تدخينه، كان يضارع بوب مارلي في ذلك.

قادنا دراجون إلى حيث مرفأ السفن. كانت عتباته ضخمة بارتفاع ثلاثة أقدام وعرض ثلاثين. كانت عريضة من الجذوع الخشبية الغليظة المثبتة على تبة تنحدر نحو النهر. كم كانت، تُرى، تلك الأشجار كبيرة كيما تصنع درجات كهذه! كانت درجات صُنعت لتدوم أبد الدهر.

قالت لين:

- ههنا كان چارد.

جلست عند طرف الدرجات الأيمن قرب عمود طويل، يمر من خلاله جبل حتى العمود الذي يليه، كانت لين قد رأت صورة فوتوجرافية للفتية المتسكعين على الدرج. رأت ابنها في تلك البقعة. قالت:
- سننثر الرماد ها هنا غدًا.

شاهدنا، إبان إيابنا في شارع ديكاتور تلك الليلة، شرطين يتوليان أمر ستة من المشردين يتفاوتون في درجات الشمال، فكان البعض مغشياً عليه وجميعهم كان ثملاً، وهم متكومون قرب رقعة معشوشبة عند تمثال چين-بابتست لو موين دي بينفل، أحد حكام لويزيانا المبكرين، ومؤسس نيو أورلينز في العام ١٧١٨.

قال أحد الشرطين للمشردين:

- أتودون قضاء وقت أحسن في نيو أورلينز؟ إذن فلتكفوا عن تناول المخدرات! لا أود مضايقتكم، انهضوا واضبطوا الثياب، هلموا. كان قد مر عليه عشر دقائق من تحرير المخالفات عندما سألته:
- فيمَ تدون ما فعلوه؟

فأجاب:

- يُدعى تكدير السلم بالسلوك المضطرب.

- لكنك لم تعتقلهم!

- بالطبع لا، إن اعتقلناهم مخمورين أو منتشين بالمخدرات فسيتعين علينا اصطحابهم إلى المشفى، وللممرضات بأس أشد من

الله. فتمكث هنالك حتى يجرون الفحوصات وننهمك في تدوين الأوراق الثبوتية التي تجلب الصداق، كنا لنمكث هنالك طوال الليل.

سألني ولين الشرطي الآخر الأكبر سنًا:

- ما جاء بكما إلى هنا؟

فأوضحت لين. قال الشرطي:

- اسمح لي بسؤال آخر. ليس يتوجب عليكما الإجابة. أنتما

تبدوان من الشرفاء، لكن عن ابنك وحفيدك: ماذا كان حدث له كيما يأتي إلى هنا؟

بالطبع كان له أن يطرح السؤال، يطرح الجميع، عن سبب مجيئه للعيش هنا. كان مارك، وهو صديق لي منذ أربعين عامًا، قد سأل جف، في فطور عزاء چارد، السؤال عينه. أجابه جف:

- لست أدري شيئًا.

وأجابت لين الشرطي في نيو أورلينز:

- لست أدري.

فأومأ الشرطي برأسه، فمن غيره من الشرطيين الذين يجوبون الشوارع ليلاً يدرك أن الحياة لغزٌ ليس له حل منفرد؟

تحدثنا، لين وأنا، في الفندق حتى ساعات الصباح. لم يمر سوى عمر الصبي وبعده القليل، من بعد الوقت الذي وقفت فيه أمام مكتبي في چورچيا تسألني الزواج بابني. طلبت منها، حينئذ، أن تنجب منه توأمًا، وقد فعلت. لكم أحببتها حينها ولا أزال أحبها الآن في نيو أورلينز بحذاء

المسييبي وفي شارع ديكاتور عند ميدان ديكاتور! كانت تلك الجنبات التي استشرنا فيها حضور چارد.

ذاقت حلاوة اليوم أخيراً حيث ذكرها الجميع وكل شيء بابنها.
قالت:

- كم كان رائعاً المجيء إلى هنا! أشعر أنني بخير حال، الآن أدرك أنه استمتع هنا.
قلت:

- كيف لك معرفة ذلك؟
ضحكت:

- لأنني أستمتع هنا.

عدنا إلى درجات المسييبي في ظهيرة عيد القديسين الساطعة. هنالك كانت ليندزي برفقة بوز كوپ وتامي وشاموس ودراجون وما قارب العشرات من الفتية المتسكعين. جاء بعضهم بالجيتار وأخر بلوح الغسيل والمعالق، كلهم متسخون نتنوا الرائحة فرحون حيث انتموا. صرخت فيهم ليندزي، في الساعة ٥٧، ٤ عصرًا على الدرج:

- نحن هنا لنكرم ذكرى جوبلن، تصاحبنا الآن أمه، الأم النمرة، فمن غيرها كان ليأتي إلى هنا! سننثر رماد جوبلن على الدرج و...

لم يلق الجميع بالآ بما كانت ليندزي تقوله. لم يلتزم الجميع بالصمت تبجلاً لذكرى جوبلن، لربما لم يعرفوا كيف التصرف في حدث جلل، فأمرتهم النمرة: صه!

ومن ثم نثرت ليندزي رماد چارد من القنينة على الدرج حيث
جلس يومًا. وفي حين أدار النسيم الرماد المنسال الهاطل على الدرج
قال أحدهم:

- اسكبي عليه الجعة ليبقى هنا.

وقال آخر:

- كلا، كان جوبلن ليبغض هذا؛ إراقة الجعة هباءً.

ففرقع الضحك على رماد الفتى. أو من بأن چارد كان ماثلاً هنالك
- يضحك.



الخاتمة

أشتاق إلى چارد.

كلما رنَّ هاتفني تمنيتُ أن يكون هو.

أعلم الآن بعض ما حدث، وعلمتُ ما يكفي عن أسبابه. علمتُ جغرافيا حياته على الطريق، وشراسة إدمانه. هل كنتُ رفيقًا بچارد في أثناء روايتي هذه القصة؟ بالتأكيد، لقد صدَّقتُ ما قاله آش دوجسكن. أطلق شاب قبيلة لاكوتا عليه اسم «هيوكا»، المهرَّج المقدس الذي يعالج الجراح النفسية والجسدية. كانت موسيقى حياة چارد الأساسية هي الزئير العدمي لقطارات الشحن، لكنني أيضًا استمعتُ إلى أغنيات خلاصه التي تغنت بحركاته المبهجة، وكلماته الحمقاء، المختلفة.

الشعاع الذي أثار الحياة... فتيات عاريات يا جدي، يركضن في الغابة هكذا، عاريات... إنه مغازل صغير لطيف... أسعد إنسان رأيته في حياتي...

يعرف الجد أن حياة حفيده اختلفت عن حياته. لكنني لم أتخيَّل أن چارد سيرحل، ناهيك عن أنه رحل إلى مكانٍ سيُسأل فيه أسئلة لها إجابات مظلمة. لم أدرك حجم الألم الذي عاشه إلا بعد فوات الأوان،

فبحلول الوقت الذي علمتُ فيه مدى اليأس الذي يُصيب المدمن، لم أستطع مساعدته.

لقد أحببتُ الصبي للدرجة التي لم تؤهلني لتحمل فكرة فقدانه للأبد. ولما علمتُ كل ما حدث، وعرفتُ جميع الإجابات، حتى أكثرها ظلمةً، أحسستُ أنني أضمه إلى صدري مجددًا.

مرّت شهور وسنوات وأنا أراقب القطارات. عند بوابة عبور، قلتُ لشيرل: «أترين تلك العربة هنا؟ هذا قطار ينقل الحبوب. في نهاية كل عربة، ثمة مساحة مسطحة كان يجلس چارد فيها». هزّ القطار الأرض من تحتنا، فقالت شيرل: «يا إلهي».

ذهبتُ إلى متجر لبيع المعدات كي أشتري المسامير، فأبصرتُ في الممر المقابل سترات كارهارت.

وفي أوجوستا، چورچيا، مررتُ بقطارات الشحن سي إس إكس، أحبّ القطارات إلى چارد.

داخل متجر وولمارت الذي في حيّنا، هناك بنك كنتُ أحوّل منه المال لچارد، من خلال خدمة وسترن يونيون. حتى بعد مرور سنة كاملة، نظر إليّ موظف الشباك، ظانًّا أنني سأطلب تحويل المال.

أعاد مكتب الطبيب الشرعي في فيلاديلفيا متعلقات چارد الشخصية إلى أمه، التي كان من بينها حقيبتَه. حوتِ الحقيبة سترة كارهارت، وبداخلها قبعَتُ أصداف «القبلات والأحضان».

عشر بوز كوپ على وظيفة بعدما تخلى عن الترحال، وحاول الإقلاع عن الشرب.

وستراي صارت مسؤولة عن بعض الألعاب في أحد الملاهي.

أما الفتاة التي تسمى بيرد فقد أرسلت لي هذه الرسالة:

«عندما علمتُ أن جوبلن مات، بكيْتُ في الشارع مثل الأطفال، من دون أن أكرث لأن يراني أحد. في تلك السنة، ٢٠١٤، سافرتُ كثيرًا إلى أن عثرتُ على وظيفة في كاليفورنيا. اشتاق إلى الترحال، ولديّ الكثير لأحكيه لصديقي. بالتأكيد سيكون سعيدًا لأنني بخير. لم أرَ قطار سي إس إكس منذ مدة وذلك أمر غريب. أتمنى أن يرافقني في المرة القادمة التي أركب فيها قطار شحن، ويبدأ صليل المعدن في هدهدي للنوم. كم أشتاق إليك يا جوبلن».

كما كتبتُ أجرو رسائل طويلة في السجن.

في ربيع عام ٢٠١٨، زُرْتُ أجرو في سجن كاليفورنيا برفقة صديقتي پاتي پاركر. جلسنا خلف طاولة من عشرات الطاولات التي تكتظ داخل غرفة الزيارات المشمسة. لم تكن پاتي تعرف أجرو إلا من خلال حكاياتي؛ شابة رأت صورها في بذلة السجن البرتقالية، شعرها الداكن مصفوف في قصة غريبة. لكنها الآن رأتها، رأت تشاريتي آن ويليامز، متعشة وبصحة جيدة، فقالت عنها: «فتاة جميلة شعرها أشقر طويل مموج». لمحتُ أول حرفين من اسم چارد واسم العائلة موشومين على خدّها، والحبر حمل رماد جثته. طُلب من أجرو خلال فترة إعادة التأهيل أن تتحدث عن الجريمة التي ارتكبتها، فسمعنا ما

حدث، وأخبرتنا كيف استخدمت مقلاة وصحن طعام كلبها في حفر مكان لدفن الصغير چون ألبرت بجانب جدول ماء. قالت: «لقد عُمِدْتُ هناك، ودعوتُ لأبوي چون».

في عمر الثانية والثلاثين، تقضي في السجن فترة ما بين خمسة عشر عامًا وثلاثين عامًا، وستكون جلسة الإفراج الأولى في الثاني من فبراير عام ٢٠٢٧. سألتها عما يمكنني ذكره في كتابي من محادثتنا، فقالت: «كل شيء. اروي الحكاية كاملةً، ولا شيء سوى الحكاية. يجب أن يعرف قراؤك ما يمكن أن تؤدي إليه مثل تلك السلوكيات، لكن من دون أن تصفنا بالمجتمع الشرير».

وقبل رحيلنا، سمعنا صافرة قطار وحيد تأتي من مسافة قريبة. التفتت آجرو ناحية مصدر الصوت وقالت: «لقد تسببت في وجودي هنا، لكنني ما زلتُ أحبك».

وبعد برهة صمت أضافت بنبرة خافتة: «الآن أسمعُه ولا يمكنني الوصول إليه».

في ميرتل بيتش، بكّت قطرة.

سمعت لين صوتها في الليل ولم تُلقِ لها بالاً. ثم حينما جاء الصباح وخرجت من المنزل، وجدت القطرة منكشمة بجانب الجراج. كانت من ققط الكاليكو، صغيرة ورمادية اللون إلا من بعض البقع البرتقالية. اعتقدت لين أن القدر قد أرسل إليها تلك القطرة. ففي نفس اليوم، الثالث من أغسطس، قبل خمس سنوات، سمح چارد لكريج أنتيهيرو أن يرسم له وشماً على وجهه. لاحظت لين أن ذيل القطرة مكسور.

«تمامًا مثل قلبي».

كان لديها ثلاث قطط: سانداي، وهافانا، وكورونا. ثلاثتهم مدللون للحد الذي جعل چارد يقول إنه يودُّ أن يعود إلى أمه ليُعاملَ بمثل معاملتهم. والآن، صارت القطط أربعًا، لأن الكاليكو، فور دخولها المنزل، جلست فوق أريكة و«تعاملت كأنه بيتها». اختارت لين لها اسم «جوبلن».

أما ليندزي، الحب الأول لچارد، فقد تزوجت من چيمبو، الذي رافق چارد يوم قابلناه في أورنچ. ثم صار چيمبو وليندزي أبوين، وأسميا ابنتهما «كندر».

زعم أصدقائي أن تألّفي لهذه الكتاب كان نوعًا من التداوي بالكتابة. لكن هذا ليس صحيحًا. على مدار خمس سنوات، تألّمتُ مثلما لم أتألم من قبل في أثناء البحث والكتابة. طاردتني أهوال الإدمان. واضطرتُّ بروايتي للحكاية أن أفتح جراحًا كثيرة في جسد عائلتنا. جراح تمنينا، كما جميع العائلات الأخرى، أن تُشفى. إذن فلم أكن أُنْداوى بالكتابة. زاد عملي هذا من حزني بمعرفتي بما لا يودُّ أي جد معرفته عن حفيده، ولا عن نفسه.

جلستُ أنا وشيرل مع الواعظ الذي تولّى جنازة أُمي. كان اسمه «موريس ستربلينج»، ولكنه أخبرني بأن الجميع ينادونه بـ«سكيت». كان يشبه رسل العهد القديم، ذا وجه ذابل تحفه لحية بيضاء كبيرة. تتقاطع الحيوانات على الطريق، والدليل على ذلك أنني اكتشفتُ أنه كان

قس كنيسة أتلانتا، حيث كنتُ أحضر -منذ سنوات طويلة- دروس يوم الأحد فقط لأجلس بجانب لوان، حبيبة الصف الثالث.

قال سكيت: «يؤمن المسيحيون بأن الرب عطوف على جميع خلقه. وأنا أؤمن بذلك أيضًا لأننا لا نعلم أي شيء عن الشياطين التي يُحاربها الناس بداخلهم. إنني أثق برب عطوف يرى ما بقلوبنا. فنحن لسنا في مقام الرب لتُحدّد القيمة التي تنتجها الحياة. إن السنوات لا تُحدّد قيمتنا؛ قد تعيش مائة سنة ولا تُفيد الآخرين، وقد تعيش عشرين سنة فقط وتُقدّم إسهامات لا مثيل لها. لقد وزّع حفيدك الحب على مَنْ حوله، ومنحك إياه أيضًا. وحتى صعوباته أضافت شيئًا لحياتك، وكذلك موته. ما منحه لك، ولشيرل، في ذلك الوقت القصير شكّل حياتكما على هيئتها الآن».

وفي الرابع عشر من يناير عام ٢٠١٩، بعد خمس سنوات من موت چارد، جلستُ مع شيرل في دار الرعاية حيث ماتت أمي، وحيث صارت شيرل نزيلًا بها بعد إصابتها بالجلطة عام ٢٠١٥، وأصبحت غير مؤهلة للتواصل. أريتها صورةً لچارد وچيکب، في عمر الثلاثة أعوام، وهما يرتديان البدلتين البضاوين، ويبدوان كبطلَي عالم. دققتُ في الصورة لخمس، لست، لسبع ثوانٍ. فكّرتُ فيما رأيته، أو ما جال بذهنها آنذاك. ثم جاءت الإجابة: ارتسمت على وجهها ابتسامة حانية، ابتسامة جدة عذبة.

أتذكر يومًا في يوليو من العام ١٩٩٧، وكان چارد آنذاك يبلغ من العمر ثمانية أعوام، حين ذهبنا إلى رحلة استكشافية معًا، كجدٍّ وحفيده. ركب الدراجة خلفي، وأخذنا جولة حول مزرعتنا بشيرچينيا. صعدنا

تلاً ونزلنا من فوق أخرى، وسرنا بين جذوع أشجار ضخمة، وبمحاذاة الشلال الذي يغذي راسل رَن، ونهر راپاهانوك، وخليج تشيسايبك، وفي النهاية يصب ماؤه في المحيط الأطلنطي. استغرقت الجولة نحو ساعة، ثم قبل أن يحل المساء، توقفنا عند منطقة مرتفعة من المرعى.

قلتُ له: «انظر إلى السماء يا چارد. إنها جميلة».

خفت شمس اليوم وسقطت بالقرب من الأفق، خلف بطانية من السُّحب القُطنية.

أشار چارد نحو السُّحب وقال: «أترى؟ هؤلاء الملائكة الذين يحموننا».

رأيتُ الملائكة، ورأيتُ الشمس الرقيقة تعتليهم، ورأيتُ الأشعة الذهبية البرّاقة تتخللهم. لكن چارد رأى المزيد. قال: «يبدو أن هذه بوابة الجنة».



